شرط الزمان

(الجزء الأول)

Amty
http://arabiccivilizations.blogspot.com

محمد هلال

مكتبة غريب

محمد جلال

فرط الرمان

(الجزء الأول)

Emly
http://arabicivilizationz.blogspot.com

الناشر
مكتبة غريب
١ ، ٣ شارع كامل صدقي (الفجالة)
القاهرة : ٩٠٢١٠٧

[١]

تستحم فرط الرمان بالشمس . والشمس فى حارة الحلوانى كانت فى هذا الصباح من ديسمبر عروسا رفعت الخمار عن وجهها . وقف أدهم يرقب الحمامة النشوانة بأشعة الشمس . رمق عشرى زميل أدهم فى هواية الحمام فرط الرمان بنظرة تخفى ما فى داخله من كراهية لأدهم . تعلقت عينا أدهم بوكالة الحلوانى . يريد أن يفتح الباب وتقبل كروانة وترى فرط الرمان وهى ترقص للشمس . . وحارة الحلوانى تصفق لها . لم يستطع أن يكتم عشرى كراهيته . قال :

ـ عندى حمامة ترقص أفضل من فرط الرمان .

أقبلت سيارة المعلم الحلوانى . . كانت أسرع من فزع أدهم . . سحقت فرط الرمان . ابتلعت غمامة الشمس . . ماتت سعادة الناس . . فرح عشرى . بدا على وجه زين الفطاطرى الضيق ، ارتفع صوته حزيناً : لا حول ولا قوة الا بالله . ألقى أدهم بنفسه تحت عجلات العربة التى توقفت . . احتضن بأصابعه الحمامة التى بلون حبات الرمان . ضحك الحلوانى وهو يخرج من عربته . وصله صوت على العطار محتجا . يعرف أنه يكرهه . ضرب الحلوانى أدهم على ظهره بيد ثقيلة ، وكأنه يريد أن يخرس صوت العطار :

ـ الرجال لا يصرخون من أجل حمامة تموت !!

وقف عشرى بجوار المعلم . تجمدت الدموع فى عينى أدهم . أبصر الحلوانى الغضب فى عينى أدهم . يشترى صمت الناس بأوراقه المالية . .

أخرج من جيب جلبابه الكشمير حفنة من أوراقه . حرص على أن تخرج أوراقاً صغيرة ولكن يده أخرجت أوراقاً مالية كبيرة . ألقى ببعضها له :

ــ خذ يا ابن السقاء . اشتر خمس حمامات بدلا من واحدة .

ثم أعطاه ظهره . أسرع عشرى فى أثر المعلم . أبصر أدهم كروانة تقبل عليه . صاح حمص صانع الخيام :

ــ يا رب يا متجلى اهلك العثمانلى . .

تفجرت دموع أدهم . تملك كروانة الهلع ، قال أدهم بدموعه :

ــ ماتت فرط الرمان .

نظرت إلى يده الممدودة بالحمامة القتيلة . شعرت بشىء من الأسى . . بشىء من الراحة . .

تملك أدهم الغضب وهو يقول :

ــ الحلوانى تعمد قتلها بعربته .

خافت كروانة أن تكون نظرتها قد أفصحت عما أصابها من شعور بالراحة قالت :

ــ نختار حمامة أخرى ونسميها فرط الرمان .

أراد أدهم أن تمد كروانة يدها وتمسك بحنانها فرط الرمان ولكنها لم تفعل . أحس بالموت . . ماتت جدته واختفى الحنان . وأبوه زكى السقاء يعطى أيامه الباقية للحلوانى نكتاً ليجعله يضحك ويتركه يعلمه فى كلية الزراعة . اختار كروانة لحنانها ولكنها لا تمد يدها . تفجر غضبه :

ــ لن أختار حمامة أخرى !

أحست فى داخلها بالسعادة . تعرف أنه يرى فيها جدته التى أعطته

الحنان بعد موت أمه ، ولكنها ترفض أن يرى فيهـا إنسانا آخر غيرها . تريد أن يراها هى . اقتربت منه .

ضغط أدهم على الأوراق المالية التى ألقى بها المعلم إليه بعنف وقال :

ــ كل أموال الحلوانى لا تستطيع أن تشترى صمتى .

فزعت كروانة . لا تريده أن يواجه الحلوانى . تخاف عليه من بطشه . تضعه فى عينيها وتتكحل عليه كل صباح . أحست أنها قد أخطأت لأنها لم تمد يدها وتشاركه حزنه . مدت يدها . اندفع أدهم فى اتجاه بيته . وتركها واقفة . أحست كأنها قطرة ماء معلقة . لم يشربها غصن شجرة ولم تسقط على الأرض . شعرت بالبرودة .

●

[٢]

تطاير الحمام حول أدهم . يقف فوق سطح بيتهم القديم فى حارة الحلوانى . بدا له كأن الحمام يعزف سيمفونية جنائزية . يعرف أن الحلوانى قتل فرط الرمان . وقفت حمامة على كتفه . تذكر الليلة . . ماتت أمه قبل أن يراها . وربته جدته . وسقته حنان الحب . وذات يوم أخذوه من حضنها ووضعوه فى حجرة مغلقة . . عرف أن الموت قد خطف جدته ، وبكى . يريد أن تعيد دموعه الحب له . ولكن دموعه أسلمته للنوم . وتساقطت الدنيا فوق رأسه . وأصابه الفزع . مد يده يريد أن يمسك يد أبيه لتنقذه . . ولكن يد أبيه لا تصله ، ويبصر جدته حمامة على كتفه . وتأخذه بين جناحيها وتمضى به إلى ربوة عالية .

ويجلس على ينبوع ماء . ويمشى فى بستان زهر . ويرى القمر فتاة تبتسم له . يندفع إليها . تحاول الإفلات منه . يمسكها . يفتح عينيه . يبصر حبات الرمان بين أصابعه . أحضر له والده بعض ثمرات الرمان الذى يحبه قبل أن يذهب بجدته إلى القبر . تعلق قلبه بحبات الرمان . يتصور أن جدته ستهبط ذات صباح على كتفه حمامة ترفرف . . وعندما كبر ملأ سطح بيته بالحمام .

ورأى فى كروانة حنان جدته . واختار معها حمامة فى لون الرمان سماها فرط الرمان وأحاطها بقلبه . مزق الحلوانى قلبه بعربته السوداء . قلبه ينزف . الحزن جبل على صدره . الحلوانى يكره حبه لفتاته . يريدها جارية . سماها كروانة . ليس اسمها الحقيقى . يريدها أن تغنى له

وترقص . حبيبته ليست جارية . تذكر نظرة اللامبالاة فى عينيها وهى تنظر إلى يده الممدودة بفرط الرمان المقتولة . لا يمكن أن تكون هذه نظرة فتاته التى يعرفها . . يمزقها الحلوانى كما مزق فرط الرمان بعربته . لن يسمح له . . سيواجهه . . تذكر أباه . . سيغضب . قال له : الحلوانى أنقذنى من حمل قربة الماء على ظهرى والجرى من بيت إلى آخر . ويعطينا المال لتتعلم فى كلية الزراعة .

حاول الحلوانى أن يعطيه مالاً بلا عمل ولكنه رفض . لا يتلقى إحساناً من أحد . بذل جهداً فى تنسيق حديقة الدار التى اشتراها الحلوانى . ويشرف على أمر العمال الذين يجيئون من أنحاء مصر بحثاً عن العمل . سيرد له المال الذى ألقى به له بعد أن قتل فرط الرمان بعربته ، ويعلمه أنه لا يستطيع أن يقتل حبه .

●

[٣]

سبقتها ضحكتها الرنانة فى حارة الحلوانى ، خرجت فلة من دار الحلوانى . ينتظرها على العطار . أبصرته يقف على باب دكانه . تعرف لهفته على سماع أخبار دار الحلوانى . توقع العطار أن تتجه إليه مسرعة بعد أن أبصرته يقف على باب دكانه . ابتلع ما تبقى من فنجان قهوته مرة واحدة . أحست فلة بالنشوة وهى ترى حبيبها العطار ينتظرها على عتبة دكانه . وزعت ابتساماتها على كل من تصادفه فى الحارة . أبصرت جابر صبى الوكالة يرنو إليها بحب . اهتزت بالسعادة ، أصبح جابر رجلا . . كل الرجال يحبونها فى حى الجمالية . أحكمت الملاءة السوداء حول جسدها . ضحكت مع امرأة أسمعتها نكتة . مدت بصرها تملأ عينيها بالرجل الذى اختارته دون كل الرجال ليكون حبيبها . . لم تجده واقفاً على عتبة دكانه . دق قلبها . لابد أنه يتحدث فى داخل الدكان مع امرأة من النساء اللائى يحمن حوله منذ شاعت قصة حبهما فى حى الجمالية . اتجهت مسرعة إليه . أبصرته يعد أوراقه المالية قالت وقد ابتسمت :

ــ صباح الفل . .

تجاهل العطار دخولها واستمر فى عد أوراقه المالية . حررت فلة جسدها من الملاءة السوداء . وكشفت عن جلباب أحمر شفاف . وقالت وهى تقترب منه بدلالها :

ــ عطارى . . صباح الفل . .

رفع رأسه وقال وقد علت وجهه تكشيرة :

ــ انتظرتك حتى أشرب القهوة معك !

نظرت فى عينيه . ترتوى بكحل عينيه . تقول النساء فى حى الجمالية أن على العطار يكحل عينيه بكحل يجىء به من الهند ولكنها تعرف أن كحل عينى حبيبها ربانى . قالت :

ــ ستصنع لك فلة القهوة بيديها . .

تجاهل رغبتها وامتدت يده تصنع القهوة . . ورغم أنها تحب أن تشرب القهوة من صنع يديه إلا أنها أحست بالضيق . فكت منديل رأسها . تعرف أنه يحب أن يرى شعرها منسدلا . قالت لتلفت نظره إلى شعرها الذى طال :

ــ دار الحلوانى مقلوبة . .

هذا ما ينتظر سماعه منذ الصباح . . قال لها وهو يناولها فنجان القهوة وقد غمرته السعادة :

ــ صباح التفاح . .

ارتعشت بحلم عمرها . تتزوج العطار ويشترى لها داراً كدار الحلوانى . وتكف عن قراءة الفنجان التى تكسب منها قوتها وقوت أمها . وتصبح سيدة الدار كأنيسة امرأة الحلوانى ويتسابق الجميع على خدمتها . توقعت أن تسمع منه كلمات الغزل التى يحسن اختيارها عندما يكون مزاجه رائقاً ولا يكون مزاجه رائقاً مثلما يسمع أخباراً سيئة عن الحلوانى فقالت :

ــ الحلوانى غاضب من تصرف أدهم ولم ينم . وأنيسة تحاول أن تزيل غضبه . .

قال بسعادته :

ــ ألم أقل لك ؟ أنيسة تحنن الحلوانى مع أدهم . .

غاص قلبها . . تعرف أن أنيسة امرأة فاضلة . حرمت الابن وتعطف على أدهم كابنها . أوشكت أن تقول له : أبعد هذه الفكرة عن رأسك . . أنيسة امرأة فاضلة لا تعرف الخيانة . . ولكنها صمتت . لا تريد أن تغضبه . يغضب عندما تذكر الحلوانى أو أنيسة بالخير . تشعر فى هذه اللحظة كما لو كانت أرضا عطشانة لكلمات غزله . أبصر العطار على وجهها الضيق بما قال . فقال بصوت مرتفع وهو يشير بيده فى اتجاه دار الحلوانى :

ــ سيصحو الحلوانى على زلزال يهدم الدنيا فوق رأسه . .

تخاف عليه من غضب الحلوانى . قالت :

ــ لا ترفع صوتك .

ضحك على العطار . قال :

ــ تخافين على من تاجر التراب . .

أبصر امرأة لا تحبها فلة تدخل الدكان . أقبل عليها يرحب بها ، كأنه يغيظها . اغتاظت فلة لأنه تركها وذهب إليها . . ولكنها تمالكت نفسها . ستذهب المرأة بعد قليل ويعود إليها . لا يستغنى عنها أبداً . . يحبها . . ولكنه من الرجال الذين يعتبرون الاعتراف بحبهم ضعفاً . سيجىء الوقت ويعترف لها بحبه . وقعت نظرتها على فنجان قهوته ، لم تقرأ له فنجانه منذ أحبته . . مدت يدها تمسك الفنجان . وجدت أصابعه تمسك يدها وهو يقول :

ــ فلتى . .

ذابت ، كأنه قد قرأ ما يعتمل فى داخلها وسيعترف لها بحبه . قالت بذوبانها :

ــ نور عين فلة . .

قال بشىء من الدلال :

ــ أنت لا تحبين عطارك ؟!

تصورته يريد شيئا من دلالها فقالت :

ــ دعنى أقرأ فنجانك . .

وكأنه تذكر أنها كانت تريد أن تقرأ فنجانه من وراء ظهره فقال بنبرة حادة :

ــ تخفين عنى ما دار فى دار الحلوانى ؟!

كأنها قد سقطت فى قاع بئر وصوته يجىء لها من بعيد وهو يقول بنبرة ازدادت حدة :

ــ كل ما قلب دار الحلوانى هو أن أدهم رد المال الذى أعطاه له الحلوانى بعد أن قتل له فرط الرمان بعربته فى الحارة وجعله لا ينام .

لم تكن تريد أن تهز رأسها ولكنها وجدت رأسها يهتز . . فقال :

ــ تقولين نور عين فلة وتشكين فى أنى لا أصون السر ؟!!

تجسد لها أنه يعادى الحلوانى بلا سبب فوجدت نفسها تقول :

ــ الحلوانى ليس بالرجل السهل . . .

امتلأت نظرته بالدار التى كان العمال يجملونها . . شعر بالغيظ . فوجىء به يشترى هذه الدار التى ظلت مهجورة سنوات طويلة أمام عينيه من وراء ظهره . لو عرف أنه سيشتريها لأسرع واشتراها هو الأول . قال بصوت اختنق بغيظه :

ــ ماذا يظن نفسه هذا الحلوانى ؟ . . أصبح شهبندر التجار ؟!

فكرت فى أن تتركه . لمت شعر رأسها فى منديلها وجذبت الملاءة من على المقعد . . تضايقت لأنه لم يطلب منها أن تبقى قالت :

ــ ألم تسمع ؟! زبيدة تفصل لكروانة رداء جارية . .

ــ رداء جارية ؟!

ــ سيقيم حفلا بمناسبة افتتاح القصر . .

ــ هذه الدار التى كانت تسكنها العفاريت يسميها قصرا . .

ــ ويغضب من ابنته حبيبة عندما لا تقول قصرا .

ــ الرجل قد جن . .

أرادت أن تخرج . جذب الملاءة السوداء من يدها . ابتسمت وهى تقول :

ــ سيدعو تجار الجمالية . .

قال ساخرا :

ــ وترقص جاريته كروانة . .

قالت كأنها تغيظه :

ــ لأثرياء الجمالية . .

قال دون أن يدرى :

ــ وأنا منهم . . ؟!

وكأنها لم تسمع عبارته . قالت :

ــ يريد أن يصبح شهبندر التجار وتتحدث الجمالية عنه . .

قال فى شىء من اللهفة :

ــ سيدعونى يا فلة ؟!

اندهشت ، كيف يكره الحلوانى كل هذه الكراهية ويريد أن يدعوه إلى حفلة . نظرت فى عينيه . شعرت بالتعاطف معه قالت :

ــ أول المدعوين يا حبيبى . .

فتح خزينته على غير عادته أمامها . أبصرت الأوراق المالية المكدسة . قالت :

ــ أنت من أثرياء الجمالية يا عطارى . .

ثم ضحكت وكأنها قالت بضحكتها : إنى أعرف . .

تنبه إلى أن دكانه قد ازدحم بالزبائن . أسرع وأغلق باب خزينته . ينبغى ألا يترك قرشا يذهب من بين أصابعه . المال هو الذى جعل هذا الأجير الذى كان يجمع التراب على كتفيه يشترى داراً مهجورة ويصنع منها قصراً ويقيم حفلا ويدعو الأثرياء . أسرع إلى زبائنه يرحب بهم . شعرت فلة بشىء من الضيق لأنه قد تركها . نظرت فى فنجانها . تقرأ للنساء أسرار الحب وتنسى نفسها . . أبصرت وجه جابر صبى الوكالة . انفجرت ضحكتها . توقع أن تقول له شيئا نسيت أن تقوله له عن حفل الحلوانى . قالت له :

ــ رأيت صورتك يا عطارى فى فنجانى . .

●

[٤]

دخل الحلوانى القاعة الشرقية ، فرغ العمال من إعدادها . تملكه الزهو . كان يريد أن تكون ابنته حبيبة أول من يدخل القاعة معه . بحث عنها . لم يجدها . ذهبت فى الصباح الباكر إلى نادى الفروسية . شعر بالضيق . كان يريد أن يرى تأثير روعة القاعة فى عينيها . دارت نظراته فى القاعة الذهبية . لم يحس بالبهجة . بهجته فى الدنيا نظرة من عينى ابنته . اشترى هذه الدار القديمة التى شيدها أحد أمراء المماليك وسلمها لخبير فى فن العمارة .ليحولها إلى قصر . تزينه حبيبة . زهرة أيامه . عارضت زوجته أنيسة فى شراء الدار . سيدعو أنيسة لترى القاعة . أول ما أنجزه العمال فى القصر . ستعترف له بأنه مازال فارسها . سمع صوت العمال . يعيدون للفسقية الحياة . ينبغى أن يفرح . صار الحلم بين أصابعه . أبصر السقاء يقف على باب القاعة . دعاه للدخول . دخل السقاء . عرف أن ابنه أدهم أساء إلى المعلم ، صرخ فى وجهه فى الحارة . وجعل حمص صانع الخيام يردد عبارته « يارب يا متجلى أهلك العثمانلى » التى يتضايق المعلم من سماعها . ورد له المال الذى أعطاه له . خاف على أدهم من غضب المعلم . صنع من نفسه شمعة ترقص للمعلم ليتركه يضىء طريق ابنه ويعلمه فى كلية الزراعة ويحميه من أن يريق كبرياء أبائه كما يفعل هو . .

سمع المعلم يقول :

ــ جئت فى وقتك يا سقاء . .

عرف أنه يريد أن يضحكه . نظر فى عينيه . أبصر الصقر . لن

يرحمه . جرى به الزمن . لم يعد قادرا على إضحاك أحد . ولكن الخطر يحدق بابنه . حرك شيئا راقدا فى داخله ، قال :

ــ جاءتنى العصفورة وقالت لى : معلمك يريدك فى القاعة الملكية فجئت طائرا .

طابت نفس الحلوانى بكلمة الملكية .

انحنى السقاء :

ــ عبدك بين يديك !!

ضحك المعلم . وكأن ضحكة الحلوانى ساعدت رشاقته القديمة على أن تعود عندما كان ينتزع الضحك من قلب الصخر . لقد كان فى صباه يعمل مهرجا فى سيرك يجوب أسواق القاهرة . وعندما ثقلت حركته ترك السيرك وحمل القربة على ظهره يوزع الماء على بيوت الجمالية . سيغرق المعلم فى بحر الضحك وينتزع منه عفوا عن ابنه أدهم .

طغت السعادة على وجه الحلوانى :

ــ أنت متألق يا سقاء على غير عادتك !

أشار السقاء إلى جدران القاعة الذهبية قائلا :

ــ الذهب يا معلمى !

شعر المعلم بالثراء . سخا السقاء فى حركاته المضحكة . تفوق فى نكاته . ضحك الحلوانى من قلبه قائلا :

ــ الله يجازيك يا سقاء . .

نظر المعلم إلى النرجيلة . فهم السقاء أنه يطلب منه إشعال الفحم . لم يشعل الفحم له منذ زمن . من أجل أدهم تحترق أصابعه بالنار . سقطت

فحمة مشتعلة . أمسكها بأصابعه . خشى أن تحرق السجاد الفاخر الذى يغطى أرضية القاعة الشرقية وينحرف مزاج المعلم .

تلذذ الحلوانى بدخانه . قال :

ــ رجل يا عجوز . . تريد شيئا . . ؟

ضحك السقاء . فهم المعلم أنه قادم ليطلب العفو عن ابنه أدهم . قال :

ــ لن أطلب قبل أن تسمع هذه النكتة الطازجة .

ضحك الحلوانى رغم أنها كانت نكتة قديمة رواها له من قبل .

قال له بنصف عين :

ــ تريد شيئا لأدهم ؟!

امتلأت عينا السقاء بشىء أشبه بالدموع :

ــ ليس عندى غيره .

توقف عن الكركرة . قال :

ــ لهذا السبب سأزيد مرتب أدهم . سأعطيه ما كنت سأعطيه له عندما يتخرج فى الجامعة .

شعر السقاء كأن القاعة تنهار على رأسه . انتهز الحلوانى الفرصة ليحقق رغبته القديمة . يمنع أدهم من إكمال تعليمه فى الجامعة .

بدا الإشفاق فى صوت المعلم وهو يقول :

ــ لاحظت الإعياء عليه وهو يحدثنى فى الحارة أمس . شعرت بالعطف

عليه . أرهقه سهر الليالى وقراءة الكتب . . ماذا ستعطيه هذه الكتب غير تعب القلب ؟!

ثم جذب نفساً من نرجيلته وقال :

ــ أريد أن أوفر له الراحة . .

قال السقاء دون أن يعى :

ــ أدهم يجد راحته فى تعبه !

خفض الحلوانى نبرة صوته :

ــ سقاء . . أنت رجلى منذ زمن بعيد . تركت القربة التى تحملها على ظهرك وجلست بجوارى فى الوكالة تضحكنى . وعندما أضحك يصفو قلبى . وعندما يصفو قلبى يتألق فكرى . ويجىء المال . والمال كما ترى أصبح كثيراً . أملك قصراً . . وليس لى غير حبيبة . ليس لى ابن . وأدهم فى منزلة ابنى . لا تحرمنى من أن أقدم له شيئا .

شعر السقاء بعدم القدرة على التنفس .

أراد الحلوانى أن يتخلص من رؤية وجه السقاء الذى امتلأ بالتعاسة . لا يريد أن يرى التعاسة فى قاعته الذهبية . قال وهو يتطلع إلى الآيات القرآنية المخطوطة بماء الذهب فوق رأسه :

ــ سافر الآن إلى السويس . هناك باخرة ستبحر بالعمال فى الفجر . أريدك أن تتأكد من أن كل شىء يسير كما ينبغى .

قام السقاء ومشى . لم يكن يمشى . كان يتناثر .

شعر الحلوانى بالعظمة وهو يرى السقاء يمشى مهزوما . لم يذهب إلى المدرسة ولكن الحياة علمته أن يرتب الزور جيدا عندما يتحدث . حديثه

مع السقاء كان مرتبا . يبغض الجامعة التى يتعلم فيها أدهم . جامعته كانت التراب الذى يملأ حلقه وهو يراقب العمال وهم يحفرون . تعلم ما لم يتعلمه أدهم . تذكر أدهم وهو يقف فى حارته والناس يلتفون حوله . ود أن يسحقه بعربته ولكنه سحق فرط الرمان . . حمامة يحبها . يكره كبرياء نظراته . يشعره بالضآلة عندما تلتقى عيناه بعينيه . يشترى أدهم الكتب بماله . ويعرف ، وكلما ازداد معرفة ازداد كبرياء . رنت فى أذنيه عبارة « يا رب يا متجلى أهلك العثمانل » لا يمكن أن يعرف حمص هذه العبارة من تلقاء نفسه . لابد أن أدهم قرأها فى كتاب وأخبره بها . سمعه يزهو بأصله التركى . لن يقرأ أدهم بعد ذلك . شعر بالراحة لقراره . ألقى ظهره إلى الخلف . تعلقت نظراته بالقنديل المعلق فوق رأسه . امتلأ أنفه برائحة البخور . هاجت فى رأسه ليالى الجوارى . يتمنى لو كان قد ولد فى عصر الجوارى ويغرق فى ليالى العشق . وصله صوت الفسقية كأنه نداء من الماضى . شعر بثقل كيس نقوده على صدره ، اعتدل فى جلسته . بماله يستطيع أن يعيد الزمن الذى يريده . أبوه علمه الطريق . الاتجار بالفقراء . الفقراء طيبون . يرضون بالقليل . ولكنه تفوق على أبيه . السفن تشق البحر بعماله . يستغل جنون الدنيا بالعمران . ويكنز المال . أصبح ثريا . يقيم حفلا فى قصره . ويدعو أغنياء حى الجمالية . لن ينسى الفيروزى أمير الصاغة . ينتزع اعترافاً بأنه أصبح واحدا منهم . وترقص كروانة بالرداء الذى أعدته زبيدة لها .

لن تعارض . وجدها طفلة لا تعرف اسمها فى بيت تهدم . اشترى أنقاضه . ماتت أسرتها . ورباها فى بيته . واختار لها اسم كروانة . ابتلع دخانه الأزرق . ضحك . كان يعرف أنه سيصبح ثرياً ويملك قصراً ويحتاج إلى جارية . تذكر كروانة فى سنواتها الأولى .

كانت ترقص له وتغنى . كبرت كروانة . أنضجها بماله . يريد أن يراها الآن . صفق . جاءت كروانة وهى ترتدى رداء الجارية . شعرت كروانة وهى ترتدى الرداء الذى أعدته زبيدة لها بأنها تختنق . تختنق من أجل أن يصفح المعلم عن أدهم ويكمل تعليمه .

انتشى الحلوانى بالقدرة على تحقيق الحلم :

ــ ذكية يا كروانتى . . تعرفين ما أريد قبل ما أطلب !

بدت له كقادمة من عالم الأساطير . حركت يديها . تراقص الدخان الأزرق حوله . صاح :

ــ الغناء يا كروانه !

انساب موشح أندلسى . حمله الطرب طائراً . . قاربت لحظته الحلم . أصبح أميراً . يجلس فى قاعته الذهبية . وكروانة الجارية تتمايل بالدلال وترتمى تحت قدميه وتطلب ، ويجيبها لما تطلب ، سكر بالنشوة :

ــ اطلبى يا كروانة . .

ضحكت كروانة . كأن ضحكتها ينبوع ماء وهو يرتوى من ينبوعها ويبلل عطش لياليه .

قالت كروانة :

ــ رقبة أدهم يا مولاى .

فرقعت ضحكة الحلوانى . تيقظ . فهم أن كروانة عرفت أنه أمر بألا يكمل أدهم تعليمه فارتدت رداء الجارية . وجاءت ترقص له . وتطلب العفو . . سيعفو عنه . ويعرف أدهم أن كروانة رقصت له ليتركه يكمل تعليمه . وتعرف حارة الحلوانى ، ولا يستطيع أدهم أن يرفع رأسه ،

ولا يرى الكبرياء فى عينيه .

قال الحلوانى باسمًا :

ــ لك ما طلبت . .

ورفع رأسه ليرى تأثير استجابته لطلبها على وجه كروانة .

أبصر زوجه أنيسة تقف أمامه . تحملق فى الرداء الذى تلبسه كروانة فى دهشة . خشى أن تبدر منها كلمة أمام كروانة .

قال مسرعاً :

ــ أرأيت الرداء الذى سترتديه كروانة ليلة الحفلة ؟ ستكون مفاجأة لضيوفنا . أردت أن أطمئن إلى أن زبيدة . . .

قاطعته أنيسة وقد وضح الضيق على وجهها :

ــ العمال يتشاجرون . .

ضحك الحلوانى وكأنه يهرب بضحكته من ضيق زوجه بما ترتديه كروانة . قال :

ــ إذن سأنام الليلة جيداً !

ارتفع صوتها قليلاً :

ــ يتقاتلون !

تضاحك :

ــ من لم يمت منهم . . سيذهب إلى عمله فى الصباح !

ثم قال لكروانة التى تجمدت فى وقفتها :

ــ اذهبى يا كروانة وأخبرى أدهم . .

بدت اللهفة فى صوت أنيسة وهى تقول :

ــ بماذا ؟

ابتسم الحلوانى :

ــ سامحته . . سيستمر فى دراسته .

شعرت أنيسة بشىء من الراحة . كانت قادمة لتطلب منه أن يترك أدهم ليكمل تعليمه . . تحب أدهم كأنه ابنها .

تذكر الحلوانى . يريد رأيها فى القاعة . يسمع منها شيئا تؤكد به أنه مازال فارسها القديم .

قال فى تودد :

ــ اجلسى يا أنيسة .

لم تجلس أنيسة . وقفت تتأمله . كأنها تريد أن تتأكد من أنه الحلوانى الذى كانت تراه يركب حصانه ويقطع الطريق من مسجد البيومى إلى بوابة الفتوح فى عصر كل يوم ويتمهل أمام بيتها ويتطلع إلى نافذتها وينفجر غضب حى الحسنية وتشتعل معركة ويصرع الحلوانى فتوات الحسنية ويخرج من المعركة منتصراً ويتزوجها .

قال الحلوانى فى زهو :

ــ ما رأيك ؟

ثم دارت نظراته فى جدران القاعة يتأملها كأنه يراها للمرة الأولى وهو يقول :

ــ قاعة ليست فى قصر أمير !

وأراد أن يقول لها : زوجك أصبح أميراً يا أنيسة . . ولكن عبارته انطفأت عندما نظر فى عينيها .

تذكرت أنيسة ما قالته لها ابنتها حبيبة فى الصباح : سأذهب إلى النادى حتى لا يرانى أبى ويحدثنى عن القاعة الشرقية . . لا أدرى ماذا جرى لأبى ؟ عندما يتحدث عن هذه الدار التى يسميها قصراً . . أحس أنه ليس أبى الذى أعرفه . . تغير أبى كثيراً . .

أبصر الحلوانى فى عينى زوجه شيئاً من عدم الحماس للحديث . شعر بالغضب قال :

ــ كيف سمحت لابنتك أن تخرج فى الصباح الباكر دون أن أراها ؟

●

[٥]

دارت نظرات حبيبة فى سوق العصر . تبحث عن أدهم بين هواة الحمام الذين يملأون السوق . أخبرتها كروانة أن أدهم غضب منها لأنها طلبت من المعلم أن يعفو عنه ويتركه يكمل تعليمه . وعرفت من على العطار أن أدهم ارتفع صوته فى حارة الحلوانى غاضباً : لست عبداً عند الحلوانى . . أنا حر . . شعرت حبيبة برغبة فى أن ترى أدهم . عرفت أنه حمل حمامه وجاء لهذا السوق الذى يقام فى الإمام وراء القلعة . تريد أن تحدثه ، تعشق الحرية . تريد أن يتحرر الناس من الخوف فى حارة الحلوانى فيتحرر أبوها . الناس مسئولون . ينحنون لأبيها أكثر مما ينبغى ثم يكرهونه . تكره أن ترى أباها غير محبوب . مشت فى سوق العصر ، المرة الأولى التى تخطو قدماها فى أرض السوق . تشم عطر القدم وهى تتنقل بين هواة الحمام . يبدون لها كأنهم عشاق يبدرون أرض السوق بعشقهم . تسمع نوح الحمام . يبكى . كأنه يريد أن يتحرر من أقفاصه وينطلق إلى الشمس . الشمس غادة فى هذا العصر . ستزف بعد قليل إلى المجهول . السوق ينفض قبل أذان المغرب ، لا تريد للزمن أن ينتهى . لا تبصر أدهم ، كأنه قطرة فى بحر . توقفت أمام شاب يتغنى بمزايا حمامة . أمسكت حمامة بيضاء . احتضنتها أصابعها . أخذها تيار الناس . موجة فى بحر سلام . تكشف لها عالم الحمام فى هذه اللحظات . ودت لو كانت حمامة تطير . . خلقت لتطير ، حملتها قدماها فى اتجاه بعض الناس . يلتفون حول حمام يتشقلب . أرادت أن تشارك الناس فرحتهم . توقفت . لمحها أدهم . أفسح لها مكاناً . عرفت أن أدهم صاحب الحمام الذى يتشقلب . الناس يتهايلون من فرط نشوتهم . وحمامة بدت كراقصة تبدع فى حفل . وأصوات الناس كأنها

موسيقى تصاحب حركات الراقصة . فرغت الحمامة من عرضها . دوى التصفيق . تبين أدهم أن عشرى يقف بجواره ولا يصفق .

قال أدهم لحبيبة والبهجة على وجهها :

ــ فرط الرمان .

فهمت حبيبة أنه يشير إلى الحمامة التى قتلها أبوها بعربته فى حارة الحلوانى .

قال أدهم :

ــ اخترت أخرى وسميتها فرط الرمان . لا يستطيع أحد أن يقتل فرط الرمان .

لاحت الفرصة لعشرى . يدافع عن المعلم ، وتنتبه حبيبة له . وتخبر المعلم . ويعرف إخلاصه وتبدأ لعبته . .

قال عشرى :

ــ لم يقصد المعلم قتلها . شاهدت بعينى ما حدث . رأيت العربة وهى تدخل الحارة مندفعة . كان من الصعب عليها أن تتفادى الحمامة .

نظرت حبيبة إلى عشرى فى اندهاش . رأى عشرى فى نظرتها اهتماما بما يقول . ينبغى ألا تفلت من يده .

تحمس عشرى :

ــ لقد أخطأت يا . .

ثم ابتلع كلمة « أدهم » فقد رأى الغضب فى عينى أدهم . لا يريد إغضابه . هدفه أن يقتلع أدهم من وكالة الحلوانى . يحتفظ بصداقته ويجتث جذوره .

قال عشرى متداركاً :

ــ أخطأت الحمامة .

ضحكت حبيبة . ينبغى أن يستمر فى إضحاكها . الضحك يرفع الحواجز .

قال :

ــ كان ينبغى أن تتأدب الحمامة وتفسح الطريق لعربة المعلم ولكنها حمامة لا تعرف الأدب !!

ثم ضحك عشرى . لم تضحك حبيبة . نظرت إلى أدهم . فطن إلى أنها تريد أن تعرف شيئا عنه .

أسرع عشرى وقدم نفسه :

ــ عشرى ، من زقاق القناديل ، صديق أدهم ، أهوى الحمام . وأتردد على وكالة الحلوانى . والمعلم يثق بى . ويكلفنى ببعض الأعمال الخاصة .

قالت حبيبة فى نبرة تفصح عن سخريتها :

ــ تشرفنا !

فوجىء بسخريتها . لاذ بصمته . احتواها بنظرة . هذه الفتاة الواقفة أمامه هى القنطرة التى سيعبر عليها إلى ثروة الحلوانى . يستولى عليها فيصبح مال المعلم فى قبضته . أبصرها وهى تدخل السوق . المرة الأولى التى يلقى هدفه وجها لوجه بعيدا عن حارة الحلوانى . لن يترك الفرصة تفلت من يديه ، استحضر خبرته فى معاملة المرأة . يعطيها الأمان ثم ينقض

عليها . أبصرها تتفرج على الحمام . تابعها بحذر . فوجىء بها تتجه إلى المكان الذى يقف فيه أدهم . استبعد أن تكون حبيبة قادمة لتقابل أدهم . شعر بالغيظ وهو يراها تمسك فرط الرمان فى إعجاب .

علا صوت عشرى :

ــ آنسة حبيبة . .

لم تلتفت إليه .

تنبه إلى ارتفاع صوته . خفض صوته وهو يقول :

ــ عندى أنواع نادرة من الحمام . لم أحضرها معى . لم أكن أعرف أنك قادمة . لم نتوقع أنا وأدهم أن نراك فى سوق العصر . هل تهوين الحمام ؟

نظرت إليه حبيبة وكأنها لم تنظر إليه . أوشك أن يقول لها : أدعوك لزيارتى فى بيتى . ولكنه تراجع . ينبغى ألا يتعجل الأمور .

التفتت حبيبة إلى أدهم وأصابعها تلامس الحمامة التى فى لون فرط الرمان وقالت :

ــ أعجبتنى . .

بدت السعادة فى عينى أدهم وهو يردد :

ــ فرط الرمان . .

نوى عشرى ألا يقف صامتا . قال :

ــ لك حق يا آنسة حبيبة . فرط الرمان تشقلبت بمزاج . لم يصفق لها الناس من قبل مثلما صفقوا هذه المرة . فرط الرمان من النوع . .

قاطعته حبيبة قائلة لأدهم :

ــ أعجبتنى شجاعتك . .

تجمد وجه عشرى . بدت الدهشة فى عينى أدهم .

قالت حبيبة لتزيل دهشته :

ــ عرفت ما قلته فى حارة الحلوانى . .

تنبه عشرى إلى أن شيئا لا يعلمه قد حدث فى حارة الحلوانى . وينبغى أن ينصت حتى يتبين أمره .

بدا لأدهم أن ما ردده فى حارة الحلوانى من أنه حر لا يعتبر شجاعة . فمن حقه أن يقاوم تدخل المعلم فى حريته . .

قال أدهم فى هدوء :

ــ حريتى يا آنسة حبيبة .

رفرفت حبيبة حوله كفراشة . فتح عشرى أذنيه . ينبغى ألا تفوته حركة .

قالت حبيبة :

ــ تعرف أنى أحب أبى .

توقع عشرى أن يسمع أدهم يقول : وأنا أكرهه . ولكنه أبصر أدهم صامتا وقد التفت إلى السوق الذى انفض وقال لحبيبة بعد لحظة تأمل :

ــ أكره لحظة النهاية !

قالت حبيبة فى حماس :

ــ ولكن النهاية قد تكون ضرورية لنبدأ شيئاً جديداً .

نظر عشرى فى عينى أدهم . يريد أن يرى الكراهية . كان فى عينى أدهم شىء من الحزن . أراد عشرى ألا يتجه الحديث بعيدا عن المعلم ، ينبغى أن يفصح أدهم عن كراهيته للمعلم . ويجد ما يقوله للحلوانى . لا يحب أن يختلق حديثا .

قال عشرى مستفزا أدهم :

ــ من يستطيع أن يكره الحلوانى ؟ !

تطلع عشرى إلى حبيبة . توقع أن يجد إعجابا به . أبصر ضيقا بعبارته .

قالت حبيبة وهى تعطى اهتمامها لأدهم :

ــ فى حارة الحلوانى يخفون مشاعرهم الحقيقية نحو أبى ويظهرون حبا زائفا . وأنا أكره الزيف .

قال عشرى :

ــ وأنا أيضا يا آنسة حبيبة .

بدا لحبيبة فى هذه اللحظة أن عشرى لا يريد ها أن تكمل حديثها مع أدهم فأعطته ظهرها وقالت :

ــ أبى يستحق حب الحارة يا أدهم .

فوجىء عشرى بأدهم يقول :

ــ وأنا أحب الحلوانى .

امتلأت عينا حبيبة بالامتنان :

ــ أعرف يا أدهم . . لأنك صادق . . تقول الصدق . .

تأكد عشرى أن حبيبة جاءت لتقابل أدهم . بينهما شىء ما . كيف

فاته هذا وهو الذى لا يغفل عن شىء يدور فى حارة الحلوانى ؟ ينبغى أن يسرع ويخبر الحلوانى . أدهم قابل ابنته فى سوق العصر . ولن يحتاج لتفاصيل ليثور الأب. ويبطش بابن السقاء . ويتخلص من الخطر الذى يتهدده فى حارة الحلوانى . وينفرد بالمعلم . ويصل إلى حبيبة ، نظر إلى حبيبة . كأنه يريد أن يطمئن الى أن هدفه مازال على مرمى بصره . . أبصرها تنظر إلى الحمام الذى يحمله أدهم فى قفصه . مد يده يريد أن يحمل القفص عنه . . رفض أدهم ، نظر أدهم إلى حبيبة تمشى بجواره . ترتدى بلوزة وجينز . معجبة بثورته على أبيها . سمعها تقول :

ــ أحلم بأن تصبح حارة الحلوانى مثلك . . أنت الوحيد الذى يستطيع أن يغيرها . .

تجسد لأدهم حلمه ، يريد أن يفجر شيئا فى هذه الحارة . يراه فى عيون الناس . ويلمسه فى ترابها ويشمه فى عطر تاريخها . ويتدفق هذا الشىء ويكتسح هذا الخوف الغريب . ويعيد عمرا من معانقة النجوم .

تألقت فيروزة فى صدر حبيبة .

مد عشرى خطوته . إنه الحب الذى جاء بحبيبة لسوق العصر لتقابل أدهم . وتريد بكلماتها أن تخفى عن عينيه شرارة الحب . وعينه تعلمت أن تلمح الشرارة قبل أن تولد . ينبغى أن يخمد الحب فى البداية . وليس هناك غير الحلوانى . يجرى إليه ويتستر بحرصه على حبيبة ويلعب لعبته بمهارة . ويخدع العالم .

فوجىء عشرى بحبيبة تنظر إليه . ابتسم . كأنه يريد بابتسامته أن يخفى ما نواه . أبصرت حبيبة الخداع فى ابتسامته . قالت لأدهم :

ــ أريد الحارة تحب أبى ولا تخدعه . .

فطن عشرى إلى أن شيئا فى وجهه قد فضحه . كثيرا ما يخونه وجهه . وتشى تعبيراته بما يدور فى رأسه . قال يدارى وشاية وجهه :

ـ أعرف أدهم جيدا . . زميل عمرى . . أثق فى قدرته . . يستطيع أن يغير الحارة . يريد أن ينبت الزهر فى قلب الصحراء . .

تورقت الابتسامة على وجه أدهم . ذكره عشرى بفكرة لا تفارقه . . أن يذهب إلى الصحراء ويغرس حديقة .

انعكست ابتسامة أدهم على وجه حبيبة فقالت :

ـ من أجل هذا جئت لأقابلك يا أدهم !

شعر عشرى بالثقة فى نفسه . استطاع أن يخدعها بكلماته ويدفع حبيبة إلى أن تعترف . .

بدت حبيبة لأدهم فى نسمة المغرب كطيف . جرت كروانة أمام عينيه كنسمة . تذكر الألم الذى أطل من عينيها وهى تقول له :

ـ أخاف عليك من غضبة المعلم .

شعر برغبة فى أن يجرى إلى كروانة . يمسح الألم الذى سببه لها عندما ثار عليها لأنها رجت المعلم أن يعفو عنه .

ثقلت خطوات عشرى بالثقة . يملك ذكاء حاداً يعطيه الحق فى أن يجلس على قمة الدنيا . .

تنبه أدهم إلى أنه قد سبق حبيبة وأنها تحاول أن تستوقفه . . وجد نفسه يقول :

ـ كروانة يا حبيبة !

أسرع عشرى بنظرته . يريد أن يرى تأثير ذكر اسم كروانة على وجه حبيبة ليعرف حقيقة مشاعرها نحو أدهم . . ولكن نظرته كانت أبطأ من أن لمح شيئا . .

●

[٦]

فى الليلة الـ[illegible]رحه ترك أدهم حبيبة واقفة وجاء لكروانة بالحب . أبصرت كروانة الحب فى عينيه وهو يعتذر عن غضبه لأنها رجت المعلم أن يتركه يكمل تعليمه فى الجامعة . طارت بالفرحة . جلست عمرا تنتظر هذه اللحظة . لم تنم الليل . ظلت مستيقظة . خائفة أن تغفو ويطير الحب ولا تجده فى الصباح . . تجده الآن فى العصفور الذى يزقزق على حافة النافذة . وفى شعاع الشمس الذى يلامس جسدها . . وفى المرآة التى ترى فيها كحل عينيها . . وفى لمسة أصابعها لقميص نومها . . وفى الموال الذى ينساب إليها فى حارة الحلوانى . لقد جاء المغنى على غير عادته هذا الصباح ويغنى : والله ان سعدنى زمانى لأسكنك يا مصر ، وأبنى لى فيكى جنينة . . وفوق الجنينة قصر . . وأجيب منادى ينادى كل يوم العصر . . دى مصر جنة هنية للى يسكنها . . واللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى .

. . .

سترت جسدها واندفعت خارجة . لم تنتظر أن يطلب الحلوانى منها أن تخرج إلى المغنى وتمنحه بعض المال كعادته عند سماعه يغنى هذا الموال الذى يحبه . أعطت كروانة المغنى بسخاء . تكافئه ، كأنه رسول الحب فى هذا الصباح ، علت الدهشة وجه المغنى الأعمى من عطاء لم يتعوده فى حارة الحلوانى . تساءل بدهشة :

ــ من أنت ؟

قالت له الطفلة التى تصاحبه :

ــ كروانة . .

قال المغنى بحنانه :

ــ بنت الرجل الطيب .

طلبت كروانة من المغنى أن يردد مواله مرة ثانية . امتلأ صوت المغنى بالشجن . تحركت دمعة كروانة على خدها . تنبهت إلى أن العيون فى حارة الحلوانى تجرح دمعتها . أخفت دمعتها فى خصلة شعرها وعادت إلى الدار . وأغلقت باب حجرتها . . وفكت شعرها . شعرت أنها تتحرر ، كأنها تتحرر من عيون الزمن . امتدت يدها تنفض التراب عن صندوق تذكاراتها . أحست أنها طفلة . . عمرها ليلة . ميلادها الحب الذى رأته فى عينى أدهم فى الليلة الماضية . أخرجت عروسة من صندوقها . تذكرت أيام طفولتها التى أمضتها فى دفء الحلوانى . تشرب الحب حتى جاءت ليلة أحست فيها أن الدنيا قد سقطت فوق رأسها . عرفت أن الحلوانى ليس أباها ، أبوها مات مع أسرتها تحت أنقاض بيتهم القديم الذى انهار فى الليل . والحلوانى كان المقاول الذى اشترى الأنقاض . عثر عليها حية بين أنقاض البيت . كانت طفلة لم تكمل سنتها الأولى . حملها على صدره إلى داره . وقال لزوجته : هذه هدية الله لنا . وسماها كروانة لأنها كما يقول : كانت تغنى بضحكتها . شعرت بالدموع فى عينيها وهى تنظر إلى صورة الرجل التى أخرجتها من صندوق تذكاراتها . تذكرت أنها اختارت صاحب الصورة من مجلة ليكون أباها . بدت ملامح القوة فى وجه الرجل . كانت تريد فارسا ينتشلها من عذاب صبية اكتشفت فجأة أنها بلا أب . وعرفت أدهم فى وكالة الحلوانى . ونسيت الصورة . وامتلأت لياليها بالأمان . وفى ليلة أطار أدهم النوم من عينيها . قال لها : أنت لست كروانة . الحلوانى سماك كروانة لأنه يريدك جارية . ابحثى عن اسمك

الحقيقى . تعثرين على نفسك وتتحررين من عبودية الحلوانى . واشتعلت لياليها بالأسئلة ودار الحلوانى لا تجيب . وأدهم لا يطفىء الحريق . لا يمد يده لينقذها من عذاب ليال بلا أجوبة . ويزيدها لهيبا بكلماته : أخشى أن تكونى غير راغبة فى التحرر من عبودية الحلوانى .

تطلعت فى المرآة . لم تعد صغيرة . أنضجتها الليالى . تفتحت على كلمات أدهم . وقعت نظرتها على الرداء الذى أعدته زبيدة لها لترقص فى حفل الحلوانى الذى سيقيمه لتجار الجمالية . أمسكت الرداء . وضعته على صدرها ، تفحصت نفسها فى المرآة . ليست هى التى جاء إليها أدهم بالحب فى عينيه فى الليلة البارحة . سقط الرداء من بين أصابعها . لن تكون جارية ترقص للتجار . . ينبغى أن تجد نفسها . امتلأ رأسها بصوت المغنى الضرير وهو يقول لها : بنت الرجل الطيب . . لابد أن المغنى يعرف أباها . . تذهب إليه ولا تتركه إلا اذا عرفت حكايتها . اندفعت إلى حارة الحلوانى . لم تجد المغنى . مشت بلهفتها فى دروب حى الجمالية تبحث عنه . اختفى المغنى الكفيف . هاجمها الإعياء . أبصرت دار زبيدة . تريد أن ترتاح . صعدت إليها . شعرت بزلزال يجتاحها وزبيدة تضع قهوتها على نار هادئة . وكأن كروانة انشطرت إلى نصفين وهى تقول :

ـ ما اسمى ؟ !

نظرت زبيدة إليها بلا دهشة . كان الزمن قد سرق منها دهشتها .

قالت كروانة :

ـ اسمى الحقيقى يا سيدة زبيدة ؟ !

رفعت زبيدة القهوة عن النار قبل أن تفور .

غلا الدم فى رأس كروانة :

ـ من أنا ؟ !

صبت زبيدة القهوة فى فنجانها .

قالت كروانة :

ـ أريد أن أعرف حكايتى .

لفت زبيدة سيجارتها . .

قالت كروانة :

ـ كروانة اسم جارية .

أشعلت زبيدة سيجارتها . كأن كروانة تحتج عليها . لأنها تشعل السيجارة ولا تجيب عليها :

ـ لست جارية . . أرقص للتجار .

نظرت زبيدة إليها نظرة حادة وقالت :

ـ كروانة . . ابعدى عن أدهم .

شعرت كروانة كما لو كانت زبيدة تقول لها : أنت تحبين أدهم . تملكها الخوف . كأنها تعرت فجأة . خفضت نظرتها . غمغمت :

ـ أدهم مجرد . .

قاطعتها زبيدة بصوت عال :

ـ الحلوانى ينزلك منزلة خاصة . . يحيطك برعايته . . يشترى لك أفخر الملابس . ويرسل لى الهدايا لأعتنى بك .

رغبت كروانة فى أن تقول : ليجعل منى جارية ولكنها لم تستطع . لامت نفسها لأنها أنكرت الحب الذى حمله لها أدهم فى الليلة البارحة .

أرادت أن تقول لها بصوت عال .

ـ أحب أدهم وأدهم يحبنى . .

قالت زبيدة :

ـ الحلوانى يحبك يا كروانة .

قالت كروانة بصوت عال ، كأنها تعلن عن حبها لأدهم :

ـ وأنا أحبه . .

قالت زبيدة ساخرة وهى تشير إلى ما يشاع فى حارة الحلوانى من أن أدهم يرى فيها جدته التى ماتت وهو صغير وتصور أن جدته ستهبط ذات صباح على كتفه حمامة فى لون الرمان الذى يحبه . . وعندما كبر ملأ سطح بيته بالحمام واختار حمامة فى لون حبات الرمان وسماها فرط الرمان :

ـ تريدين أن تكونى فرط الرمان ؟ !

ـ لا أريد غير اسمى .

ابتسمت زبيدة . أدارت فنجان القهوة بين أصابعها . تريد أن تعرف أخبار ابنها حمادة المنصورى الذى يقاطعها منذ فترة . هاجمتها رغبة فى الصباح الباكر وهى فى فراشها مغمضة العينين بين النوم واليقظة . . أن تقوم وتحمل حقيبتها وتذهب إلى المعادى وتقيم عند ابنها . وعندما فتحت عينيها ووصلها ضجيج حارة الحلوانى اختفت هذه الرغبة . تفحصت الأشكال التى رسمتها بقايا قهوتها فى فنجانها تريد أن تعرف شيئا عن ابنها ولكنها لا تعرف قراءة الفنجان . فكرت فى أن تطلب من كروانة أن تذهب وتحضر فلة . فهمت كروانة من نظرة زبيدة ما يدور فى ذهنها . . أرادت أن تقوم وتذهب قبل أن تطلب منها الذهاب إلى فلة . لا تريد أن تلتقى الآن بفلة التى ترى الدنيا ضحكة . تريد أن تحتفظ باحساسها الجاد الذى يتملكها

الآن بعيدا عن تأثير شخصية فلة المرحة . أرادت أن تقف ولكن شيئا فى داخلها يقاومها . ظلت جالسة . انتبهت إلى أن زبيدة تحدثها . تبينت أنها قد فاتها بعض مما قالته وهى تسمعها تقول : طفلة صغيرة تمثل وترقص وتغنى فى روض الفرج . فهمت أنها تكلمها عن حياتها فى روض الفرج . تعرف أن زبيدة أمضت طفولتها وشبابها فى مسارح روض الفرج . وتحب أن تصغى إليها باهتمام عندما تحدثها عن هذه الفترة من حياتها .

هزت كروانة رأسها لتؤكد أنها تصغى لحديثها باهتمام .

قالت زبيدة وقد أحست بالامتنان لهذه الأيام :

ـ فهمت الدنيا جيدا !

ثم سقطت نظرتها فى الفنجان الذى مازال بين أصابعها وهى تقول : « تفتحين على نفسك باباً لا يجىء إلا تعب القلب » تصورت كروانة أن زبيدة تحدث نفسها . . ولكن عندما سمعتها تقول : « إنى أخاف عليك يا ابنتى » عرفت أنها كانت تحدثها . أحست كروانة بالدهشة . ليس هناك ما يدعوها للخوف عليها . تشعر الآن بأنها قوية . تشعر بحب أدهم لها . تستطيع أن تواجه الدنيا . وتبدد غموض الحياة حولها وتعرف حكايتها وتصل إلى اسمها الحقيقى وتستريح قلبها . لم تجد رغبة فى أن تقول شيئا لزبيدة فصمتت ، كأنها الصمت هو التعبير المناسب عن شعورها بالقوة .

تركت زبيدة سيجارتها تحترق بين أصابعها وهى تقول :

ـ أسوأ شىء أن يكتشف الإنسان بعد فوات الأوان أنه يجرى وراء السراب !

ضحكت كروانة ضحكة بلا معنى .

قالت زبيدة فى صوت هادىء وقد بدا لها أن كروانة اقتنعت بوجهة نظرها :

ــ قومى . . وأغلقى النافذة وارتدى هذا الرداء الجديد لكى أراه عليك . . فرغت من إعداده لك . . سترتدينه فى آخر الليل فى حفل الحلوانى .

لم تقم كروانة ، ربتت زبيدة على ظهرها ، وهى تقول :

ــ قومى يا حبيبتى واخلعى جلبابك !

قامت كروانة . كأنما الحنان جعلها تنتصر على هذا الشىء الذى كان يمنعها من الوقوف منذ قليل . أدارت زبيدة لحنا حزينا . خلعت كروانة جلبابها . شملت المرأة جسد كروانة المتفتح للحياة بنظرة . تحسرت على شبابها عندما كانت زهرة فى روض الفرج يتسابق الرجال عليها . واقتطفها المنصورى أحد أعيان المنصورة الذى كان يتردد على المسرح الذى كانت تعمل به . واهتصرها فى ليلة وذهب ولم يعد ، ووجدت ابنها حمادة فى حضنها بعد شهور . ووضعته فى عينيها . وغطته برموشها . وسقته حب الفن . وكبر حمادة وملأ الدنيا بعشقه للألوان والكلمات واشتهر برسم اللوحات وكتابة القصص . .

ولكنها لم تنجح فى أن تجعله يحب المعلم الحلوانى . . الرجل الذى ساعدها على أن تعطى ظهرها لعالم روض الفرج وتستقر فى بيتها . يكره ابنها الحلوانى . لا يرتاح لعلاقتهما .

أوضحت له كثيرا أن الحلوانى وقف بشهامته معها عندما تخلت الدنيا عنها وساعدها فى تربيته ليصبح فنانا مشهورا . ولكنه أصر على أن تترك حارة الحلوانى . . فحارة الحلوانى تذكره بالماضى الذى دفنه . واستجابت لرغبته وذهبت إلى المعادى وأقامت معه فى فيلته وشعرت كما لو كانت شجرة قد

اقتلعت من جذورها وغرست فى أرض غير أرضها . هاجمها المرض . ولم تبرأ إلا عندما عادت إلى دارها وتنسمت نسمة حارة الحلوانى. وغضب حمادة وقاطعها . لم يعد يزورها . تعرف أخباره من فلة . تحس فى الأيام الأخيرة أن الموت يتربص بها . وتتصور فى كثير من الليالى أن الصباح لن يطلع عليها وستموت قبل أن تحقق رغبتها فى أن يكون وجه حمادة هو نظرتها الأخيرة فى هذا العالم . أرادت أن تمد يدها وتخرق سيجارة ولكنها شعرت أن ذراعها لم تعد فى جسدها كما لو أن الموت قد غافلها وأخذه . امتلأت عيناها بالدموع وهى ترى كروانة تتفجر بالحيوية وهى تجلس أمامها بعد أن جربت الرداء الجديد الذى أعدته لها . انتابتها رغبة فى أن تمزق الرداء الجديد .

تطلعت كروانة لوجه زبيدة . اكتشفت أنها قد شاخت فجأة . فكرت كيف تعيد إليها ابتسامتها ؟ ابتسامتها مازالت شابة تطارد الزمن .

انفتح الباب ودخلت فلة . تزفها فرحتها وهى تشير الى الجريدة التى تحملها فى يدها .

ــ صورة حمادة .

انهمرت الدموع من عينى زبيدة قبل أن تبصر صورة ابنها فى الجريدة .

قالت فلة بدهشتها :

ــ تبكين ؟ !

وسقط الشال الأحمر من على كتفيها وهى تقول فى انفعال :

ــ ماذا أفعل أنا ؟ . . وأخى سلطان قد سافر إلى أوربا ولم يرسل لى رسالة منذ سنوات كأنى لم أبع مصوغاتى من أجله . تركنى أشقى من أجل لقمة خبز أتقاسمها مع أمى التى لم تعد ترى من كثرة البكاء على سلطان . . دعينا من الدموع . . الدموع تذهب بالبصر ولا تعيد أحدا .

ثم مدت فلة يدها بحركة آلية إلى فنجان قهوة زبيدة المقلوب وتناولته وتفحصته بنظرتها وهللت :

ـ حمادة . .

خطفت الأم الفنجان من يد فلة . واحتوته بقلبها وفلة تقول فى ثقة :

ـ حمادة سيعود لحارة الحلوانى ويطرق بابك بعد يوم أو أسبوع أو شهر .

ضحكت دموع زبيدة فى عينيها .

شعرت كروانة بالامتنان لفلة . غاب الحزن عن وجه زبيدة . مدت كروانة يدها . التقطت الشال الأحمر من على الكليم الذى يغطى جزءا من بلاط الحجرة التى يجلسون فيها ووضعته فى حضنها . تحسست الشال الحريرى . تذكرت أن المغنى الضرير سيجىء بعد أيام . وستسمعه يغنى مواله فى الصباح وتسرع إليه وتجزل له العطاء وتسأله عن أبيها ويحدثها عن الأب الطيب وتستزيده ويخبرها بحكايتها وتسرع إلى أدهم وتخبره باسمها الحقيقى .

لمحت فلة الطبلة فى المكان الذى تركتها فيه منذ أيام .

تذكرت انتصارها على العطار . مرت عليه بدكانه قبل أن تجىء ونجحت فى أن تنتزع عبارة فسرتها وهى تسمع صوت حذائها على سلم زبيدة الخشبى بأن العطار قد باح بحبه لها . أحست بالامتنان لنفسها لأنها جعلت العطار الذى اشتهر بين نساء حى الجمالية بأنه لا يبوح بمشاعره يفصح عن حبه . شعرت برغبة فى أن ترقص كأنها تريد أن تكافىء نفسها على انتصارها . امتدت يدها إلى الاسطوانة الحزينة وأوقفتها وهى تشير إلى صورة حمادة

ـ تسمعين هذا الغم والدنيا فرحة بتألق نجم حمادة ؟ !

ثم سقطت فى شوق جسدها لأن يرقص ويذوب فى بوح الحبيب بحبه . جذبت الشال من حضن كروانة وربطته حول وسطها وناولت الطبلة لكروانة وقالت لها :

ـ طبلى . .

واهتز وسط فلة قبل أن تلامس أصابع كروانة الطبلة وتطبل بحماس .

ضحكت زبيدة بصوت عال وهى تحتضن بيدها فنجان قهوتها كأنها تحتضن بشارة فلة بعودة ابنها حمادة . .

●

[٧]

عادت حبيبة من نادى الفروسية . انتهت من تمرينها اليومى . حدثتها أمها أنيسة عن غضب أبيها . لأنه عرف أنها قد ذهبت إلى سوق العصر والتقت بأدهم . أخبر عشرى أباها . شعرت بالضيق . احتضنت أمها كأنها بحضنها تعبر عن ضيقها بغضب أبيها . تعود أبوها عندما لا يعجبه تصرف من تصرفاتها أن يفجر غضبه فى أمها ويغمرها بالحب عندما يلتقى بها . .

قالت دون أن تنظر إلى أمها ، كأنها تحدث نفسها :

ــ لماذا لا يصرخ فى وجهى عندما يضيق بتصرفى ؟ !

ابتسمت أمها . تعرف أنه يخاف عليها من نسمة الهواء يود لو وضعها فى محارة وأخفاها عن عيون الدنيا . .

نظرت فى عينى أمها . شعرت ببركان أمها الخامد فى نفسها . تعرف أن أمها قد تزوجت أباها لأنها أبصرته من مشربية دارهم فارسا . . ولكنها تبينت وهمها فى لياليها الأولى . وسقطت من حلمها وغرقت لياليها فى الأحزان . لا تقوى على تركه . . فليست من تقاليد دارهم فى حى الحسنية أن تترك المرأة زوجها عندما تكتشف أنه ليس بفارس . .

ضحكت ، وكأن بركان أمها الخامد قد صحا فى ضحكاتها ، تريد أن تلقى بنفسها فى العواصف وتمشى إلى آخر الدنيا . تشتعل خطواتها بالغضب وهى تمشى فى الدار الفسيحة والنقاشون يلطخون جدران الدار

القديمة بالألوان . تصرخ فى وجوه العمال ولكن العمال لا يتوقفون ، تهرب إلى الوكالة . تلتقى بالعمال الذين يهبطون من قرى مصر وتسمع أحاديثهم العفوية . عبرت حديقة الدارمسرعة . امتلأت بالغيظ من أدهم لأنه هذب أشجارها أكثر مما ينبغى . لم تعد ترى التوحش الذى كانت تحبه فى هذه الأشجار . تريد أن تصافح وجوه الرجال الذين لا ينتقون ألفاظهم . لم تستقبلها ألفاظهم المنطلقة التى تعودت أن تستقبلها فى كل مرة دخلت فيها الوكالة . أبصرت عشرى يقف أمامها فى الضوء الشاحب . تبينت أن العمال يتكومون فى صمتهم . دارت نظراتها تبحث عن خميس الذى هبط وكالة الحلوانى منذ أيام ليقنع أباه عبد العال بالعودة إلى قريتها . ارتاحت لحديثه عندما حدثها فى المرة الماضية وقال لها أنه عارض أدهم فيما صنعه فى الأشجار . تريد أن تحدثه . خطت نحوه . ابتعد عنها بنظراته . قال له أبوه عندما رآه يحدثها : لا شأن لك بابنة المعلم . .

تصور عشرى أن حبيبة قادمة لتقابل أدهم . لابد أنها تعرف أنه يجىء فى مثل هذا الوقت من كل أسبوع ليوزع على الأجراء أجورهم . تضايقت حبيبة عندما تجاهل خميس إقبالها عليه . قالت :

ــ أين أدهم ؟ !

تأكد عشرى أنها قادمة لتقابل أدهم ، قال مبتسما :

ــ ذهب منذ قليل . .

تذكرت أنه أخبر الحلوانى بأنها قد ذهبت إلى سوق العصر لتقابل أدهم . ثقلت ابتسامته عليها . دارت نظرتها فى وجوه العمال الذين كانوا يجلسون حولها . . ينظرون إليها نظرتهم الطيبة . يعرفون أنها تعطف عليهم . . وكأنها قد اكتشفت فى هذه اللحظة أن العمال ينامون فى حظائر لا تليق بالبشر . وأن عشرى هو المسئول عن هذا فقالت منفعلة :

ـ إنهم بشر . . والبشر لا ينامون فى حظائر الخيول !

ثم وقعت نظرتها فى نظر خميس ، فأبصرت إعجابه بما قالت ، فوجدت نفسها تقول لعشرى : إنهم أفضل منك . . بدلا من أن تقول : ربما كانوا أفضل منا . .

طاف فى رأس خميس وجه صبحة الفلاحة التى كان يحبها فى قريته . تذكر جسارتها .

فوجىء عشرى بإهانة حبيبة له أمام الأجراء وخاصة خميس الذى كرهه منذ وقعت عيناه عليه فى الوكالة . غلا الدم فى عروقه . قادمة لتقابل أدهم فى الوكالة وعندما يراها تهينه أمام حثالة من البشر . يرد لها الإهانة ويقول : لست مسئولا عن أجراء أبيك يا هانم . . ولكن سرعان ما أمسك كلماته بين شفتيه . تذكر فلسفته التى يعتنقها منذ اكتشف عالم المال . . أهلا بالإهانة ماحدامت ستجىء له بالمال . . كان فى الماضى يثور من أجل نظرة إنسان لا تعجبه . . ويحطم مصابيح المقاهى ويفر الرجال أمامه ويصبح عاصفة من الذعر . . وينال ما يريده . ولكن الزمن قد تغير . . ظهرت فيه قوة أكبر من قوة عضلات الجسد المفتول . . أصبح المال يحطم الدنيا وهو جالس فى مقعده فى حجرته ودخان مزاجه يراقص عشق فطومه له . يستثمر إهانة ابنة المعلم له أمامهم . لا يمكن أن توجه له هذا الحديث إلا إذا أصبح مسئولا عنهم . سيأخذ بعد ذهاب حبيبه وخروج خميس من الوكالة ما أقرضه لهم خلال الأسبوع الماضى مضاعفا . لابد أن يدفعوا ثمن الإهانة التى لحقت به بسببهم .

قال وكأنه لم يسمع عبارة « إنهم أفضل منك » :

ـ لك حق يا حبيبه هانم . . إنهم بشر !

ثم ضحك . .

أحست حبيبة بالقرف من ضحكته . شاركها خميس قرفها . تضايق عشرى من خميس . قال وهو يقترب من حبيبة :

ـ خميس لا تعجبه الحياة هنا . . يريد أن يأخذ أباه ويعود به إلى قريتهما . .

تجاهلت حبيبة ما قاله عشرى . اتجهت نحو خميس . تريد أن يفسح لها مكانا تجلس بجواره تحدثه ويحدثها ويحكى لها ما حكى لأبيها عن جسارته فى اقتحام خط بارليف . أوشك خميس أن يفعل ولكنه أبصر فى عينى أبيه رفضا . . أحست حبيبة بأنه لا يريد أن يحدثها . فقالت :

ـ تريد أن تتركنا يا عم عبد العال ؟ !

خاف عبد العال أن يغضب ابنه خميس ويقول لها أنه سيبقى فقال :

ـ ربنا يأتى بالخير يا ست هانم . .

تنبهت إلى أن عشرى يدوس بقدميه على الأجراء وهو يمشى خلفها حاملا المصباح فقالت :

ـ أجننت . . تدوس عليهم ؟ !

تطلع خميس إليها بإعجاب . ود لو جلست بجواره فى هذه اللحظة .

شعر عشرى بأنه قد تسلطن بما تناوله من مخدر وهو يقول :

ـ ماذا أفعل ؟ . . يرقدون فى سكتى . . وأنا أمشى وراء ست الهانم حاملا المصباح . .

ثم ضحك . بدت لحبيبة ضحكته بلهاء . اغتاظت . أرادت أن تصفعه على وجهه ولكنها أسرعت تعطيه ظهرها وتخرج من الوكالة . .

أطفأ عشرى نور المصباح ، وجلس بجوار خميس . ووضع المصباح من يده على الأرض وقال :

ـ الهانم غاضبة !

أراد أن يرى تأثير عبارته على وجه خميس . أشعل عود ثقاب وقربه من وجهه . أبصره غاضبا .

أراد أن يقول : أنت غاضب يا خميس لأنى أجلس بجوارك ؟ ! ولكنه سمع عبد العال يتمتم ببعض الأدعية . يريد أن يبعد الشر عن ابنه ، وكأن عشرى هو هذا الشر فى هذه اللحظة فقال :

ـ لست شرا يا عم عبد العال !

قال عبد العال :

ـ الشر فى أنفسنا يا ابنى !

ـ لك حق يا رجل يا طيب . .

قال عشرى فى شىء من الود :

ـ بعد هذا العمر الطويل الذى عشته يا عم عبد العال . . هل فهمت المرأة ؟ !

ضحك عبد العال وقال :

ـ آه من المرأة !

ـ تعرفها ؟ !

ـ مهما عرفتها فستظل لغزا !

وجد خميس نفسه يفكر فى حبيبة . . ماذا تريد منه ابنة المعلم ؟ ! هل

كانت قادمة لتحدثه وعندما امتنع حاولت أن تخفى رغبتها بالسؤال عن أدهم . . ولكنه من هو ؟ إنه مجرد فلاح ابن فلاح . . وحبيبة ابنة المعلم تسكن قصرا . . وهو ينام فى حظيرة . . لا يمكن أن تكون قادمة من أجله . . ولكنها كانت تريد منه أن يفسح مكانا لها لتجلس بجواره . . لماذا لم يجعلها تجلس حتى يعرف ماذا تريد ؟ لقد أخطأ عندما استجاب لرغبة أبيه . . تنبه على صوت عشرى وهو يقول لأبيه :

ـ يا رجل يا عجوز . . أنت عاشق كبير !

وجد نفسه يقفز من جلسته . بدا لعشرى كطلقة رصاص وهو يطرحه أرضا . تذكر ما يروى عن تهوره الذى بلغ حد الجنون وهو يخترق خط بارليف . . قال عشرى وقد شلت مقاومته :

ـ ماذا أغضبك يا خميس ؟ إنى أضحك مع عم عبد العال . . قل له يا عم عبد العال . . دعه يتركنى !

قال عبد العال :

ـ اتركه يا خميس . .

تبين عشرى وهو يسترد أنفاسه أن دخان لياليه مع فطومه قد غافله وسرق شيئا من جسارته . عز عليه أن يصنع به هذا أمام الأجراء . أراد أن يقوم ويضربه ولكنه لم يتحرك من مكانه . برر لنفسه عدم تأديبه الآن بأنه لا مزاج له . لن يفرض عليه ابن الفلاح وقت المعركة . سيختار اللحظة المناسبة ليطحن عظامه . تذكر ما فعله مع أجير مشاكس ، اختار الوقت المناسب وحطم ضلوعه . وامتلأت قلوب الأجراء بالرعب . وتناقلت الألسنة جنونه عندما يغضب ويجنى ثمار هذا الجنون كل أسبوع . يأخذ ما يريد من مالهم دون مقاومة . اللحظة المناسبة ينبغى أن تكون دائما فى

قبضة يده . نظر حوله فى وجوه الأجراء الراقدين حوله . شعر بالاطمئنان . . ما دامت هذه الوجوه حوله فإنه ينبغى أن يطمئن . سيحقق كل ما يريد . . يتدفقون على الوكالة بالمئات . لا يتوقفون لحظة . أدركهم سعار البترول . يريدون أن يركبوا بحره اللحظة قبل اللحظة القادمة ، كأنهم يخشون أن يجف البترول قبل أن يصلوا إليه . . ولا يغتسلون من عار فقرهم ويملكون ما يستر حياة أولادهم . . ويشترون به أجهزة تسجيل تسمعهم أغانيهم التى يحبونها . . ويتلقفهم المعلم . . ويتكومون فى حظائر . . وعندما تضيق بهم يفترشون رصيف حارة الحلوانى لا يهابون الليل . . وفى ضوء النهار يشقون فى مقاولات المعلم التى لا تنتهى . . ويلقى لهم بوجبة طعام بعد غروب الشمس حتى يصبروا على استغلالهم ويحمل لهم أدهم فى نهاية الأسبوع بعض المال . وينتظر خروج أدهم وينقض عليهم . وبمهارته فى سرقة الكحل من العين يستولى على معظم ما أخذوه ويترك لهم خفة ظله ونكاته . كان فى أول الأمر يكتفى بإقراضهم ما يحتاجونه من مال . يستعينون به على إشباع حاجة أيامهم . . ولكن رأى ألم الشوق لأهاليهم الذين تركوهم فى قراهم يعصف بلياليهم . . لم يحتمل قلبه الذى يبدو أحيانا كعصفور آلام هؤلاء المساكين . فى استطاعته أن يسكن آلامهم . يغامر من أجلهم ويبيع لهم السلطنة . . يستطيع الواحد منهم أن يصبح سلطانا يطير إلى أهله على جناحى شوقه ويعود قبل أن يطلع الصباح.ويسوقونه للعمل ويحتفظ بشىء فى داخله يعينه على شقاء النهار . . منذ هبط خميس الوكالة كف عن بيع السلطنة لهم . . يخشى أن يخبر المعلم ويمنعه من دخول الوكالة . . عندما يلتقى بالحلوانى يحدق فى عينيه يتصور أنه سيقربه منه عندما يعرف أنه يخدر عماله حتى لا يحسوا بالزمن الذى يمضونه فى أعماله الشاقة.ولكنه أحيانا يخاف من حديث الشرف الذى يحب المعلم سماعه وخميس يجيده . تذكر عندما جاء خميس من قريته ليمنع أباه

عبد العال من السفر إلى بلاد البترول ورفض الأب . وغضب المعلم عندما عرف أن أحدا يحرض عاملا من عماله على التمرد والتقى بخميس وتوقع عشرى أن يبطش المعلم به.ولكنه فوجىء بأنه قد ارتاح لحديثه ودعاه للإقامة فى الوكالة دون أن يطلب منه عملا . . وعمل مع أدهم فى رعاية حديقة القصر . .

نظر فى اتجاه خميس . . متى يخرج من الوكالة ؟ يريد أن يأخذ ثمن إهانة حبيبة له . . تنبه إلى أن خميس يبحلق فيه . استراب فى نظرته له . فطن إلى أنه يجلس وخميس يقف . . يستطيع أن يغدر به وهو جالس . يقوم . شعر بخدر فى إحدى ساقيه . قاوم خدره . خذلته ساقه . شعر بالعجز . ابتسم . أحس أحد العمال بأن اللحظة مواتية ليعطى لعشرى الذى عليه دون أن يقوى على مجادلته . وضع المال فى يد عشرى . أوشك عشرى أن يلقى بالمال فى وجه العامل ولكن يده تمهلت . أسرع بقية العمال وفعلوا نفس ما فعله العامل . نظر عشرى إلى خميس . أبصره يبحلق فى المال الكثير الذى أعطاه العمال له . يعرف أنه لا يرضى عن إقراضه المال للعمال . يلقبه بالمرابى الغشاش . أسرع ودس المال فى جيوبه . شعر العمال بالامتنان لخميس . ابتسموا له . لولاه لأخذ عشرى كل أموالهم . قدم أحدهم سيجارة لخميس . خطف عشرى السيجارة من يد العامل . أشعل عشرى السيجارة بعصبية . . ضرب بكف يده ساقه التى ما زالت تؤلمه . . انتابته رغبة لا تقاوم فى أن يهزم خميس فى عيون الأجراء وهو جالس . . يملك صوتا جهيرا أقوى من صوت خميس . . يستطيع أن يصرخ ويركبه التهور إلى حد الجنون . . هذه لعبته من زمن فى حى الجمالية . . وجد نفسه يقول فى صوت مرتفع :

ـ بدلا من أن تجىء ابنة المعلم وتقول لى أن عمال أبيها بشر والبشر لا ينامون فى حظائر الخيول . . تذهب إلى أبيها وتقول له هذا الكلام . .

التصق العمال بالأرض التى يفترشونها . يريدون أن تبتلعهم حتى إذا سألهم أحد عما سمعوا يقولون :

ـ لم نكن موجودين . .

دارت نظرات عشرى فى وجوه الأجراء . . أبصرهم يبتسمون له . تنافقه ابتساماتهم لأنه يرفع صوته . . كلاب يخافون من يرفع صوته . . وقعت عينه على وجه خميس . . توارت بحلقته . شعر بشىء من الانتصار . يجلس على شاطىء التطرف وتتدلى قدماه . ويرتفع صوته :

ـ الحلوانى يسرق عرق هؤلاء المساكين . . ويشترى بدمهم قصرا ويغلق البوابة الحديدية ويمنعهم من الدخول حتى لا يصله صوتهم .

فوجىء عشرى بخميس يقفز . لم يعرف متى جلس ليقفز . بدا له كعود كبريت أشعلته كلماته وخميس يقول :

ـ سيصله صوتى . .

كأن عشرى قد سقط فى بئر الخوف مرة واحدة . تعلقت نظراته بعبد العال . يستنجد به ليمنع ابنه من الذهاب إلى المعلم ، ولكن الأب لم يتحرك من جلسته . شعر عشرى بالخطر يمشى فى خطوات خميس . يقتحم بجسارته المعلم ويخبره بما ردده أمام الأجراء ويفقد المعلم صوابه وتنهار الدنيا فوق رأسه . . هب عشرى واقفا . يذهب للمعلم مسرعا . يملك سببا ليقابله فى الحال . يخبره بزيارة ابنته للأجراء فى حظائرهم القذرة وسؤالها عن أدهم . فهم من حديثه عندما أخبره بذهاب حبيبة إلى سوق العصر ومقابلتها لأدهم أنه يطلب منه أن يفتح عينه ويخبره بكل ما يراه . سيؤكد له أنه أصبح عينه التى لا تنام . وإذا نجح خميس فى أن يصل إليه قبله وأخبره بما ردده أمام الأجراء سيقول له : هذه مجرد حيلة يا معلم ليطمئنوا

ويفتحوا قلوبهم لى وأنصت إلى دقات نفوسهم وأنقلها لك . أراد أن تسرع خطواته . . ولكن خطواته كانت بطيئة رغما عنه . كان مزاجه الذى عمر به رأسه قد قيد خطواته . يخاف أن يواجه خميس أمام المعلم الآن . أبصر أحد الأجراء يقترب منه ويقول له فى صوت خفيض :

ـ خميس اتجه إلى حارة الحلوانى يا معلم !

نظر إليه وكأنه يسأله : من أنت ؟ !

انحنى الأجير فى حركة تمثيلية :

ـ الغلبان طواوى ولد الطواوى . .

ضحك عشرى . . قال له طواوى :

ـ سأسرع فى أثر ابن عبد العال لأخبرك أين يذهب ؟ لن أجعله يضيع من عينى . . عينى واسعة كما ترى يا معلمى . .

اطمأن عشرى إلى أنه سيصل إلى المعلم قبله . سيدخل خميس من بوابة القصر الرئيسية وسيدخل هو من الباب الخلفى . . ويلتقى بالمعلم . سينسب إلى خميس كلامه الذى ردده أمام الأجراء . رفت عينه . انقبض قلبه . يتوقع الشر عندما ترف عينه اليمنى . . يريد أن يبتعد عنه الشر فى هذه اللحظة . . فطن إلى أنه لن يستطيع أن يصرع خميس بمجرد أن يقول كلماته للمعلم . تذكر أن المعلم استقبل خميس فى الليلة البارحة فى قاعته الشرقية وأجلسه بجواره وطلب منه أن يحكى له عن جسارته فى اقتحام أهوال سيناء وعندما حان موعد العشاء دعاه للطعام . قرر ألا يتحدث عن خميس الآن . يحتاج إلى بعض الوقت ليستطيع أن يحفر له بئرا عميقة . ويلقى به فيها . . . ويجلس على حافة البئر ويسمع صراخه ويضحك . . مشى فى حديقة القصر . . أبصر برتقالة ملقاة تحت الشجرة . التقطها . أحس بالجوع . راح يقشرها بأسنانه ويلتهمها . .

[٨]

دخلت حبيبة حجرتها . شعرت بالضيق من نفسها لأنها لم تحقق رغبتها فى الجلوس إلى جوار خميس والحديث معه . أبصرت حجرتها مرتبة . . خلعت ملابسها . . أشاعت الفوضى فى الحجرة . تناولت كتابا فى الفلسفة . لم تكمل قراءة صفحاته . ألقته من يدها . لا تريد الفلسفة الآن . تناولت مجلة فرنسية لم تتصفحها بعد . قلبت صفحاتها . وقعت نظرتها على وجه أسمر يشبه وجه خميس . خفق شىء فى داخلها . . ماذا أتى بالوجه الأسمر إلى صفحة مجلة فرنسية ؟ ! قرأت حكايته مع فتاة فرنسية لم تبلغ ربيعها الثامن عشر . أحبته وتزوجها . غضبت أسرتها وأبلغت الشرطة وقبض على الطالب المصرى ودخل السجن . القانون فى فرنسا يعطى للأسرة الحق فى منع مثل هذا الزواج . احتوت الطالب الأسمر بنظرتها كأنها تحتوى وجه خميس عبد العال . شعرت بالتعاطف معه . تفرست وجه الفتاة الفرنسية . . أبصرت الاستسلام فى نظرتها . شعرت بالغضب منها . لو كانت مكانها لهدت الدنيا . . كل الدنيا لا تساوى لحظة رضوخ . تذكرت أمها . . رضخت للحياة مع أبيها رغم أنها كانت ترغب فى أن تفترق فى أيام الزواج الأولى . وقعت عيناها على صورة أبيها التى تتصدر حجرتها . رأت الحب فى نظرته . اختفى غيظها . لو أرادت أن تتزوج بمن تحب ما اعترض رغبتها . الموسيقى تنساب حولها . تشعر أنها نغمة طائرة فى سيمفونية حب أبيها . صور أشهر نجوم الدنيا على الجدران . حجرتها حريتها . نسيت تعاطفها مع أمها . اندهشت لكراهية الحارة لأبيها . تريد أن تجرى إليه وتقبله . الشىء الوحيد الذى تملكه

لتقدمه لأبيها الذى أعطاها الحق فى أن تختار حياتها . تتعلم الفرنسية التى تتم دراستها الآن بكلية الاداب وتذهب الى نادى الفروسية تتمرن للاشتراك فى سباق . وتتمرد على أشياء كثيرة فى دنيا أبيها حتى اسمه تنطقه كما يحلو لها . أرادت أن ترى أباها الآن وتغرقه بالقبل . ويتحول المعلم الذى يخيف صوته الرجال إلى طفل صغير . . تشعر فى كثير من الأحيان أنها أمه . رفعت رأسها . أبصرت الحلوانى يقف أمامها . طفلها يسعى إلى حضن أمه . تملكتها أمومة غامرة . .

ــ حلوانى ؟ !

دغدغته نشوة الدنيا . . يسمع أعذب كلمة صادفت أذنيه . الوحيدة فى دنياه التى لها الحرية فى أن تنطق اسمه كما يحلو لها ، أنيسة زوجته لا تتجاسر أن تفعل هذا . . تخاطبه بكلمة المعلم . ذهب غضبه الذى كان يشعر به عندما أخبره عشرى بأنها ذهبت إلى حظائر العمال . يخاف عليها من الهواء العطن الذى يتنفسونه . ذاب صوته فى نشوته وهو يقول :

ــ عيون الحلوانى . .

تركت حبيبة نفسها لمقعدها الهزاز الذى كانت تجلس عليه وهى تقول :

ــ كنت ذاهبة إليك لأقبلك . .

ــ جاءتنى العصفورة وأخبرتنى ، فتركت الدنيا وجئت إليك . .

مد رقبته لتقبله . .

قالت حبيبة وهى ماتزال تهتز :

ــ العصفورة تحبك يا حلوانى . .

قفزت من مقعدها . تعلقت به . قبلته ثم توقفت عن التقبيل قالت :

ـ تريد أن تحبك الدنيا . .

ذاب إرهاق الدنيا .

قالت :

ـ ليس عندى غير حلوانى واحد . . طعمه سكر .

تذكر فرسه سكر . أهداها لها فى عيد ميلاده .

قال :

ـ سكر . . ما أخبارها ؟

لا تريد منه أن يهرب من خديثها . قالت :

ـ أريد أن يذوق كل واحد فى حارة الحلوانى طعمه الحلو . .

ضحك ضحكة رائقة من القلب . .

ـ تكفينى عصفورتى . .

ابتعدت عنه قليلا فى شىء من الدلال :

ـ لا يا حلوانى . .

تجسد له حلمه الذى تحقق . بنى جبلا من المال . وأقام فوق قمته قصرا . تجلس عليه أميرة قلبه حبيبة . من حق أميرته أن تتكلم وعليه أن يصغى إليها .

قالت :

ـ أنت حلوانى طيب . . وحبيبة تريد أن تذوق الحارة طيبتك . .

ثمل الحلوانى بحروفها . انزلقت كلماته على شفتيه دون رغبة فى أن يتكلم :

ـ لو وزعت طيبتى على الناس ما اشتريت هذا القصر . .

قفز الدم إلى وجنتيها :

ـ لا أريد هذا القصر . .

كأن حبيبة لم تنطق بشىء .

قالت حبيبة :

ـ هذه الثروة التى تجمعها لا تشترى خلجة حب فى قلب إنسان . .

وكأنه أبصر اللحظة أن هناك مجلة أجنبية فى يد ابنته . مد يده يتناولها منها . يريد أن يتصفحها . بدت له أنها تمانع فى أن يأخذها ، اندهشت من نفسها وهى تطوى المجلة بسرعة . كأنها تخفى صورة الطالب المصرى عن عينيه . تفحص الحلوانى غلاف المجلة . شعر بالزهو لأن ابنته تقرأ مجلة لا يعرف لغتها . أوشك أن يقول لها : هل تقرئين لى فى هذه المجلة ؟ . . ولكنه سمعها تقول له :

ـ حلوانى . . أنت تجمع هذا المال من أجل حبيبة . .

برقت عينا الحلوانى بالحب . . قال :

ـ قبل أن تهبط عصفورتى على كتفى لم أكن أهتم بالمال . .

ثم مد يده بالمجلة وكأنه يقول : لكى تقرئى هذه المجلة كان لابد من أن أهتم بالمال . .

قالت :

ـ أريد عندما أمشى فى حى الجمالية أن أرفع رأسى ويشيروا إلى : هذه ابنة الحلوانى . .

ترك المجلة لتسقط من بين أصابعه ليمسك يدها التى امتدت نحوه . . قالت :

ـ حلوانى . . حبيبة ليست ابنة رجل عادى . . كل همه أن يجمع مالا يتركه لابنته من بعده . . أنا بنت الحلوانى الذى تتسمى حارة باسمه فى حى الجمالية . . أريد أن تترك لى حبا فى قلوب الناس . .

ـ المال يشترى كل شىء يا حبيبة .

قالت حبيبة فى انفعال :

ـ إلا الحب يا حلوانى !

بدت حبيبة له أنها أصغر من أن تعرف أن المال يشترى كل شىء . أخرج سيجارة من علبته الذهبية . رنت فى رأسه عبارة عشرى التى سمعها منذ قليل : حارتك يا معلمى تحبك .

قال :

ـ حارتى تحبنى . .

ـ تخافك . .

بدا عدم الفهم على وجهه . . قالت :

ـ تظهر الحب فى وجهك وعندما تعطيها ظهرك تكرهك !

وجد نفسه يقول بنبرة وشت بغضب مكتوم :

ـ من أجل هذا تذهب ابنة الحلوانى إلى العمال فى حظائرهم القذرة

وتقابل أدهم فى سوق العصر وقر على العطار فى دكانه .

وضعت ذراعيها حول عنقه :

ـ ليحبوك يا حلوانى . .

أبصر الحب فى عينيها فقال وكأنه يكتفى بحبها عن حب العالم :

ـ لا أريد هذا الحب . .

سحبت حبيبة ذراعيها من حول عنق أبيها . . قال الحلوانى كطفل يدبدب بكلماته :

ـ لست مسئولا عما فى داخلهم . . الله هو الذى يرى ما فى داخلهم .

احتوته بنظرة . . يبدو كطفل . . أوشكت أن تقول له : لا تغضب يا طفل الصغير .

خاف الحلوانى أن تكون نبرة صوته العالية قد أغضبتها . فقال مسرعا :

ـ بماذا تأمر العصفورة ؟

قالت بسرعة :

ـ قلبك . .

وقبل أن تقول : تفتحه لحارة الحلوانى . . سمعته يقول :

ـ وتبتعدين عن الحارة . .

ثم احتضنها ، كأنه يريد أن تذوب فى صدره حتى لا تتكلم ولا يسمع شيئا يعارض رغبته وهو يقول :

ـ القمر يراه الناس من بعيد . . وأنت قمر الحلوانى . .

شعرت كأنها نغمة طائرة وهى فى حضن الحلوانى . .

●

[٩]

تسابقت بعض فتيات نادى الفروسية على الجلوس بجوار حمادة المنصورى . رتبت منال هذا الاحتفال . لقد صدر لحمادة روايته الجديدة « صبايا الليل » . حرصت حبيبة على أن تجلس فى مواجهته . تأملته والفتيات يحاصرنه بالإعجاب . يختال بعينيه الزرقاوين . . تذكرت أمه زبيدة . يجمل عينيها منها . المرة الأولى التى تدقق النظر فى وجهه عن قرب . تريد أن تعرف هذا الانسان الذى يقاطع أمه لأنها تتمسك بجذورها وترفض أن تترك حارة الحلوانى . . همست منال فى أذنيها بعبارة . مالت برأسها . تسمع عبارة الغزل فى جمال عينى حمادة . لم ترتح لعبارة منال . رفعت رأسها . . أبصرت حمادة يفتحمها بنظراته . تضايقت . تكره أن يعريها أحد بنظراته . لمحت منال الاعجاب بحبيبة فى نظرات حمادة . أرادت أن يعرف أنها التى دعت حبيبة . . قالت :

ـ صديقتى بيبى . .

قالت حبيبة فى نبرة عالية :

ـ لست بيبى . . أنا حبيبة الحلوانى !

يعرف حمادة أنها ابنة الحلوانى . . الرجل الذى باعته أمه من أجل أن تحتفظ بصلتها به . يراها كثيرا وهى تملأ النادى عدوا بفرسها . . وتمشى أمامه فى اعتداد دون أن تعيره اهتماما . تولدت لديه رغبة بمجرد سماع عبارتها فى أن يهزم اعتدادها بنفسها أمام فتيات النادى . . انتقاما من أبيها . .

قال بشيء من الاستهزاء :

ـ ابنة المعلم . .

امتلأ صوتها بالتحدى وهى تقول :

ـ المعلم الحلوانى صاحب وكالة الحلوانى بحارة الحلوانى !

. كأنه قد فوجىء بصوتها . أراد أن يتأكد أنها صاحبة الصوت المتحدى . نظر فى وجهها . . أبصر التحدى فى عينيها . تنبه إلى أنها تعرف أنه قد تخلى عن أمه لأنها تقيم فى حارة الحلوانى وتعيره بموقفه هذا . شعر بالتوتر . عندما تجيء سيرة أمه يضيع منطقه وتسهل هزيمته . ينبغى أن يسرع بالابتعاد عن حديث أمه . يذهب الى حديث يملك ناصيته . . استرد أنفاسه . . قال بسرعة :

ـ قرأت صبايا الليل ؟ !

ـ ولم تعجبنى !

وكأنها ألقت بقنبلة على مائدة الاحتفال . . تناثرت كلمات الفتيات حولها . ضحك حمادة . يشعر بالثقة بين الفتيات . يستطيع أن يسحقها بكلماته . قال :

ـ لماذا ؟ !

ـ لا أجد نفسى بين سطورها . .

شعرت منال بالضيق . . أقامت هذه الحفلة لتتقرب إلى حمادة . وحديث حبيبة سيفسد هدفها . قالت بسرعة :

ـ ولكنى أجد نفسى فيها يا حبيبة . . لم تقرئيها جيدا !

تجاهلت حبيبة ما قالته منال وقالت وهى تتجه بحديثها لحمادة الذى علت وجهه ابتسامة الثقة :

ـ بطلاتك لا يعبرن عن جيلنا !

وكأن الفتيات الملتفات حول حمادة يمثلن هذا الجيل الذى يعبر عنه حمادة فى روايته . . انفعلن . . أردن أن يرجمنها . . أوقفهن حمادة باشارة من يده . . قال وقد ازدادت ابتسامته اتساعا :

ـ أكملى يا . . . .

قالت :

ـ حبيبة الحلوانى . .

ـ اعذرى ذاكرتى . . تنسى الأسماء بسرعة .

نظرت إليه حبيبة وهى تقول لنفسها : لن تنسى حبيبة أبدا يا ابن زبيدة !

أحس حمادة بأنه أمام فتاة لم يألفها من قبل . . فتح عينيه . قال :

ـ ماذا تقصدين بقولك . . . . .

وقبل أن يكمل عبارته قالت :

ـ فى روايتك شيء تخفيه ! . .

هاجمه التوتر فجأة . قال :

ـ ليس فى حياتى ما أخفيه :

قالت حبيبة :

ـ أستاذ ؟ !

ثم ضحكت .

دفعتها منال فى ذراعها . تعرف جموحها . تريد أن توقفها . . التفتت حبيبة ناحية منال وقالت :

ــ لا تخافى على الأستاذ حمادة . . يعرف كيف يدافع عن نفسه دون أن يغضب . .

ارتبكت منال .

قال حمادة بصوت أفصح عن غضبه :

ــ لست غاضباً

نظرت حبيبة إلى الشموع التى تعدد رواياته وتنتظر الإشعال .

فكرت فى أن تصمت . تذكرت أن فلة قالت لها أن أمه لا تكف عن البكاء . تخشى أن تموت قبل أن تراه . وجدت نفسها تنفعل وتقول له :

ــ انشغلت يا أستاذ عن العمل الفنى بمحاولة الإخفاء !

ثم احتوته بنظرة حادة . أحس بلسع نظراتها . أمسكته من جرحه الغائر . . أمه زبيدة . . نزيف عمره . . بعض النقاد يقولون عنه أنه يكتب ليدافع عن خطيئة أمه . . شعر أنه يسقط فى بحر لا قرار له . . سمع واحدة من الفتيات تقول :

ــ صراحة الأستاذ حمادة جارحة لا تخشى الإعلان عن شىء !

وكأن صوت الفتاة الذى كان خفيضاً نوعا ما أعطاه بعض القوة ليقاوم الموج الذى يجرفه . قال فى صوت حاول أن يسترد قوته :

ــ إنى أدعو إلى . .

قالت حبيبة بسرعة .

ــ ما تدعو إليه يا أستاذ افعله . . فأنا قارئة جيدة لك . .

وكأن صوت حبيبة وهى تقول عبارتها مستعينة بيديها الجميلتين كانت الموجة التى شلت مقاومته . شعر أنه يغرق . سمع ضحكة حبيبة . غامت الاشياء فى عينيه . مد أصابعه الى علبة سجائره الموضوعة أمامه . أمسك علبة سجائر منال . . شعرت منال بشىء من النشوة لأنه اختار علبة سجائرها . أخرج حمادة سيجارة . سقطت من بين أصابعه . أشعلت منال ولاعتها . قربتها من حمادة ، كأن فى عينيه دموعا . لا تريد أن ترى حبيبة الدموع فى عينى حمادة . شعرت فى هذه اللحظة بأن حمادة يخصها وحدها . أبعدت الولاعة عن وجهه . أحس حمادة بالاختناق . . مد يده الى ياقة قميصه يبعدها عن رقبته . استنشق نسمة هواء باردة . أحست منال بمسئوليتها عن الضيق الذى طفا على وجهه . تملكها الغضب . التفتت الى حبيبة . اختفت صديقتها القديمة . بدت لها كعدوة . تهاجمها . تجعلها أضحوكة فى أفواه الفتيات . ويبتسم حمادة . تعشق ابتسامته . استحضرت عبارة جارحة . تعرف أن حبيبة لا تستطيع أن تصمد أمام شراستها . حانت منها نظرة لحمادة . . تبينت أنه يبتسم لحبيبة . ارتجفت السيجارة بين أصابعها . تعرف بخبرتها أن الاقتحام قد يذيب ثلوج الزمن وحمادة يبدو دائما أمام المرأة كجبل ثلج لا يذوب . هل تنجح حبيبة فيما فشلت فيه ؟! . . تجمعت شراستها فى عبارة : ابنة النخاس الذى يتاجر بالفقراء لا تتكلم . أوشكت أن تنطق بعبارتها . أبصرت حمادة يمد يده بعلبة سجائرها الى حبيبة . وحبيبة تقول له بدلالها : لا أدخن .

تجمدت عبارتها على لسانها . فتحت عينيها على اتساعهما . تريد أن تستوعب ما حدث . . شعرت بالتوتر . أرادت أن تهرب من توترها قالت :

ـ نشعل الشموع يا بنات . .

أبصرت حبيبة الحزن عميقاً فى عينى حمادة وهى ترفض أن تأخذ السيجارة . تضايقت من نفسها . شعرت أنها قد قست عليه وتفسد الاحتفال . . قالت بكل رقتها وهى تنتزع الولاعة من بين أصابع منال :

ـ سأشعل الشموع بنفسى . احتفال الأستاذ حمادة . . عزيز على . .

حاول حمادة أن يتذكرها وهى صغيرة تجرى فى حارة الحلوانى ولكنه وجد صورتها وهى تملأ النادى عدوا بجوادها أمام عينيه . شعر كما لو كان قد سقط تحت حوافر جوادها . أراد أن يراها وهى تشعل الشموع . . أبصر العطف فى عينيها . اشتعل غروره فجأة . لا يريد عطفا فى عينى حبيبة . ينبغى أن يقاوم سقوطه ويجمع منطقه وبهاجمها . احتواها بنظرة متفرسة . . كأنه يستطلع عدوه قبل هجومه . تحولت نسمة الهواء الباردة إلى هبة هواء . هاجمت حبيبة . سقط شعرها على جبهتها . أخفى شيئا من عينيها . توقع حمادة أن ترفع شعرها عن عينيها . يريد أن يراها من عينيها . تشعل حبيبة الشموع . أطفأ الهواء الشموع . أعادت محاولة الشموع . ود حمادة أن تفشل محاولتها . قاومت حبيبة الهواء . أصرت على أشعال الشموع . اشتعلت الشموع . تراقص الضوء . طفا فى عينيها وجه خميس عبد العال . رأته أول مرة على ضوء شمعة . قفز إلى رأسها صوته . أحست برغبة فى أن تعود الى الوكالة لتلتقى به وتحدثه . .

قالت حبيبة للفتيات اللائى يحاصرنها بنظراتهن :

ـ سأترك لكن مهمة إطفاء الشموع ! . .

ثم وقفت حبيبة كغزال يريد أن يهرب :

ـ يقتلنى المعلم إذا تأخرت . . !

ضحكت بعض الفتيات . نظرت إليهن . توقفن عن الضحك . بدا على وجه منال أنها تتعجل ذهابها . فوجىء حمادة بوقفتها قال :

ـ لم نكمل حديثنا يا آنسة حبيبة . .

قالت بعينيها السوداوين الضاحكتين :

ـ نكمله فى حارة الحلوانى . .

ثم مضت مسرعة . وعندما اختفت انطلقت ضحكات الفتيات . وضح على وجه حمادة عدم المشاركة فى ضحكهن . توقفن . شعرت منال بأن شيئا قد انزاح عن صدرها . .

علقت فتاة :

ـ مغرورة . .

وقالت أخرى :

ـ بلدى . .

جلست منال مكان حبيبة وهى تقول :

ـ لا أدرى ماذا جرى لها ؟ ليست صديقتى التى أعرفها !

ثم التفتت ترى تأثير كلامها على وجه حمادة ، أبصرت حمادة لا يلتفت إليها . . يتطلع إلى السماء ، تبين أن السماء بلا قمر . جرت نظرته فى الاتجاه الذى ذهبت منه حبيبة . أبوها هزمه وجعله يقاطع أمه ، وحبيبة تلقى به تحت حوافر جوادها . شعرت منال باحساسها أن حبيبة أحدثت شيئا فى حمادة . اشتعل جنون الأنثى فى داخلها . لن تتركها تستولى على حمادة . تملك ألاعيب لا تقاوم . لن يفلت من قبضتها . لا تتيح له لحظة للتفكير فى حبيبة . تستولى على كل انتباهه . أسعفتها ذاكرتها بنكتة

جريئة . روتها بسرعة . ضحكت الفتيات كأنهن وجدن فرصة ليضحكن بصوت عال . نظر حمادة إلى منال كما كان ينظر إلى حبيبة وهو يبتسم . شعرت منال بأنها قادرة . أشعلت له سيجارة وناولتها له . وضعها بين شفتيه . كان يريد أن يرى شيئا يحترق بدلا من أعصابه . تملكتها ثقة لا تقاوم . لن تتركه الليلة حتى يسلم قلاعه . حبيبة بكل اقتحامها ليست سوى قطرة فى بحرها . اشتعل خمر الليل فى رأسها وهى تقول :

ـ نبدأ حفلنا . . !

●

[١٠]

دخلت حبيبة من الفتحة التى يستخدمها العمال فى دخولهم كباب . يستغرقون فى نومهم العميق . أجسادهم تتلاصق . بدت أجساد العمال لها كبحر . توشك أن تغرق فيه . أبصرت خميس منحنيا على كتاب . يقرأ على ضوء مسرجة . بدا لها كمحارة ألقى بها الموج على الشاطىء . تملكتها رغبة فى أن تفض سرها . تبينت أنه لم ينتبه الى دخولها . اقتربت منه . وقفت تتأمله . فى وجهه حزن خاص . أرادت أن تطول نظرتها إليه . سكنت فى وقفتها . تحركت من فرط حرصها على ألا تتحرك . أحس خميس بوجودها . رفع رأسه . أبصر حبيبة . بدت له على ضوء المسرجة كخيال . انشغل عن الوقوف باستيعاب أن ابنة المعلم تقف أمامه فى هذه الساعة من الليل . رفع يده بالمسرجة .

أبصر وجه حبيبة يبتسم . حانت منه التفاتة الى أبيه الراقد بجواره . أبصره يغط فى نومه . ارتاح لنومه . سمعها تقول برقتها :

ـ أزعجتك ؟ !

تنبه الى أنه يجلس وابنة المعلم تقف . تملكته سخريته وهو يقف ويقول بصوت خفيض :

ـ يا خبر . . ابن الأجير جالس . .

وأشار بيده إليها وكأنه يقول : الأجير جالس . .

ضحكت حبيبة . وجد خميس نفسه يضع أصبعه على فمه . يريد أن

تتوقف عن الضحك حتى لا يستيقظ أبوه . تنبهت إلى أنها لا ينبغى أن تضحك وتزعج النائمين . كفت عن الضحك . بدت ضحكتها لخميس كصوت الماء وهو يروى الأرض العطشانة . تمنى أن تعاود الضحك . شعر بحزن غامض وهو يقول :

ـ لو رآنى المعلم لقتلنى !

ارتفع شخير النائمين . شعرت حبيبة بالخجل من نفسها . تقتحم لحظات راحتهم من عناء النهار .

قالت :

ـ نخرج . .

فهم أنها لا تريد أن تقلق النائمين بحديثهما . استجاب لرغبتها . مشت . مشى فى أثرها وهو يمسك المسرجة بيده . بدا لنفسه كأنه كان ينتظر الفرصة ليحدثها ويعرف ماذا تريد منه ؟ شعر بنسمة هواء منعشة وهما يقتربان من الشجرة العتيقة التى تحتضن بفروعها هذا الجزء المهمل من الدار العتيقة . تذكر حبا قديما . خيل له أنها صبحة التى تمشى بجواره . توقفت خطوته . شعر بأنه يتجاسر على ابنة المعلم بخياله . . رغبت حبيبة فى أن تجلس تحت الشجرة وتتحدث مع خميس . .

قال خميس وقد شعر برغبة فى أن يتركها ويعود إلى قراءة كتابه :

ـ ماذا تريدين ؟!

ضحكت ، كأنها بضحكتها تقول : أريد أن أتحدث معك . .

صمت خميس ، وكأنه بصمته يقول : فى الصباح . .

قالت وهى تحتوى وجهه بنظراتها :

ـ تعودت ألا أؤجل ما أريده فى الليل الى الصباح !

أبصرت القمر هلالا من بين فروع الشجرة المتشابكة . نفخت فى المسرجة . اطفأت شعلتها . .

قالت له :

ـ اجلس . .

فوجىء باطفاء المسرجة . أراد أن يقول لها : لن أجلس . . ولكنه وجد نفسه يجلس تحت الشجرة . وحبيبة تجلس . تذكر عندما كان يجلس مع صبحة تحت شجرة الجميز فى قريتهما . .

قالت وهى تشير إلى الكتاب الذى كان يمسكه بيده :

ـ ماذا تقرأ ؟!

ـ أقرأ كتابا أخذته من أدهم . .

قفز إلى رأسها صوت حمادة المنصورى وهو يسألها : قرأت صبايا الليل ؟! أحست برغبة فى ألا يكف خميس عن الكلام . تريد أن تستحم فى صوته . تتخلص من عبارة حمادة . .

قال :

ـ أريد أن أعرف . .

كأن الظلام يضىء الليل . رآها على ضوء الليل تهز رأسها . بدا لنفسه كأنه ينتظر إشارة من رأسها ليتفجر حزنه . .

قال :

ـ هناك شىء لا أفهمه فى هذه الدنيا . .

ثم جلس . وضع المسرجة من يده . لوح بالكتاب الذى فقد غلافه . . وهو يقول :

ــ لابد أن يكون فى الكتب ما يجعلنى أفهم . .

أحست حبيبة كما لو كانت تسمعه للمرة الاولى . .

قال خميس :

ــ يجبرنى أبى . . يرفض أن يترك هذا المكان الذى لا يجد فيه مساحة لجسده فى الليل ليرتاح من شقاء النهار . ويعود معى الى بلدتنا . . اشتريت فدانا وعدة قراريط بمال ادخرته من زمن الحرب وزرعتها أشجار برتقال وبنيت بيتا صغيرا . .

دق قلبها كأنه سيقول : ولى زوجة . . ولكنه قال :

ــ أريد لأبى أن يرى أشجار البرتقال وهى تثمر . .

شعرت بالراحة رغم أنها لم تفكر لحظة فى الزواج منه . . اندهشت من نفسها . . ابتسمت وهى تسمعه يقول :

ــ لماذا يفضل عبد العال الهواء المخنوق ؟!

قالت ضاحكة :

ــ لكى تبقى فى حارة الحلوانى ونجلس تحت الشجرة نتحدث !

قال خميس بانفعاله :

ــ لو عاد أبى معى إلى بلدتنا . . سيتشجع كثيرون . . ويعودون إلى قراهم . .

فهمت لماذا ترتاح لحديثه ؟ . . يفكر مثلما تفكر . . تتمنى لو أن أباها استيقظ فى الصباح ولم يجد عاملا فى الوكالة . .

وكأن صوته يتوهج بالحلم وهو يقول :

ــ يزرعون أراضيهم . .

بدا لها خميس كطائر عبر الأميال وهبط أرضها .

قال خميس :

ــ لا أطلب شيئا عسيراً يا حبيبة . . أريد أن يشم أبى رائحة زهر البرتقال . .

وصمت . . مالت حبيبة بصدرها لترى الهلال فى السماء . هبت على أنف خميس رائحة زهر البرتقال . . بدت له حبيبة وهى تميل كشجرة تزهر بزهر البرتقال . .

●

[١١]

ثمل الحلوانى بحديث المهندس وهو يتجول معه فى أنحاء القصر . يرى اللمسات الأخيرة . بدا لنفسه فى لحظة كما لو كان طفلا يمشى بجوار أبيه . تطلع إلى المهندس منبهراً . بدا له كساحر أعاد الماضى للقصر . ونفث فى عروقه سحره فشعر كما لو كان أميرا يهبط من تاريخ المماليك . انتفخ بالخيلاء . يملك قصر أمير . تذكر سكان حارته . أحس أنه ليس من طينة هؤلاء الصعاليك الذين يملأون الحارة بأشيائهم الصغيرة . أغمض عينيه . يطرد وجوههم المغبرة بالتراب . ينبغى ألا يشوهوا لحظة استمتاعه بتسليم قصره . لم ير القصر مثلما يراه الآن . بدا له كامرأة وقع فى هواها دون أن يدرى سبباً وفجأة كشف له الخبير الذى يمشى بجواره أسرار هواه . يمشى فى حلمه . لا يريد أن يصحو . أمسك ذراع الرجل . لا يريد أن يتركه ويذهب . . ولكن المهندس ينبغى أن يذهب . سلم له القصر .

شعر الحلوانى بعد أن ذهب المهندس بخوف غامض . وكان يقف فى حجرة بدت له كسجن . . انقبض قلبه بنافذتها ذات القضبان الحديدية . يخرج منها مسرعاً . يذهب إلى قاعته الشرقية . يرتاح اليها . خيل له أن خطواته تضل الطريق إليها . أبصر باب القاعة . يعرفه بعلامة مميزة . دفعه . وجد مقعده . أبصر نرجيلته . مازالت عامرة بالدخان . اعتدل مزاجه . من خلال المزاج تهبط الأفكار البراقة . تذكر الحفلة التى سيقيمها لاثرياء الجمالية . آن وقت المعركة . تيقظت كل حواسه . يريد أن يمرغ أصحاب الملايين فى عظمة قصره ويعترفوا بأنه أصبح واحداً منهم رغم أنوفهم . يلقبونه بتاجر التراب .

سيثبت لهم أن تاجر التراب يجلس على عرش من ذهب . لمعت نرجيلته المطعمة بالذهب فى عينيه . تحسسها بكفيه كما يتحسس جوادا من جياده . تذكر الفيروزى أمير الصاغة . سيكون على رأس المدعوين . سيجلسه بجواره . وتبدأ الحفلة ويصفق ويبدأ الشراب . . ويصفق ويجىء الشواء . . ويصفق وينساب الغناء وترقص جاريته كروانة . ستكون ليلة عمره .

لا يذكر أن أقام حفلا عندما تزوج امرأته أنيسة ، لن يسمح لامرأته بحضور الحفل . تذكره بماضيه . يخبىء أحلامه عن عينيها . يريد أن يزوج حبيبة ابنته من الفيروزى . سترتدى حبيبة فى هذه الليلة ملابس أميرة ، وتخطف قلب الفيروزى ويطلب يدها منه . ويهدى لها هذا القصر فى ليلة عرسها . شعر أنه يطير . . أيريد ألا يراه أحد وهو يطير . صفق . يريد السقاء . أجابته كروانة بأنه قد خرج .

ارتفع صوته :

ــ لا يغيب أحد يريده الحلوانى !!

ارتبكت كروانة . لم تتعود على أن يصرخ فيها الحلوانى .

شعر الحلوانى بلذة أن يرفع صوته . خفض صوته كأنه يوشوشها :

ــ أين أدهم ؟!

بدا لها كأنه يقول لها : أين حبيبك ؟!

لم تنبس بكلمة . وضع عليها الخجل وهى تقول :

ــ لا أعرف !

كأن خجلها أغراه لأن يقول لها :

ـ تحبينه يا كروانة ؟!

غرقت فى خجلها . .

قال بنبرة لا تعرفها كروانة :

ـ لا تخجلى يا كروانة . .

دارت جدران القاعة بها :

ـ بماذا يهمس لك ؟!

شعر الحلوانى بعد أن ألقى سؤاله برغبته فى سماع حديث عن الحب . حياته صحراء لا تعرف همسة فى أذن حبيبة . تزوج امرأته أنيسة لأنه أبصرها تطل عليه من نافذة بيتها بين غضب رجال حى الحسينية ، فانتزعها من بين الفتوات وأخذها على فرسه وعاد إلى بيته .

قال :

ـ حدثينى عن الحب يا كروانتى !

أحست كروانة بأن الجدران تتساقط على رأسها . لم تجد شيئا تفعله سوى أن تجرى من القاعة .

قهقه الحلوانى : شعر بلذة أن يتجاوز بحديثه الحدود وتخجل جاريته وتجرى ، أخذ جرعة من دخانه . طافت برأسه عبارة أدهم التى يرددها فى الحارة : الحلوانى رجل لذائذى ، ضحك . . يعرفه أدهم جيدا . أحس أن ضحكته قد توحشت .

يريد أن يعب كل لذائذ الدنيا . لا يترك لحظة من عمره دون أن يستمتع .الله أعطاه بلا حدود فمن يحاسبه . تطلع إلى السقف . توهج الزجاج الملون بأشعة الشمس . تمنى والتراب يملأ حلقه ان يصبح مالكا

لهذا القصر ، ظل فترة بعد أن اشترى هذا القصر غير مصدق أنه أصبح يملك القصر . كان ينام فى كثير من الليالى ويتصور أن المهندس سيوقظه من نومه ويقول له : ليس قصرك يا حلوانى . . إنه مجرد حلم . ولكن المهندس سلمه القصر وذهب . وقف . وكأنه كان من الضرورى أن يضرب جدار القاعة بقبضة يده ليتأكد من أنه أصبح يملك القصر ، رن فى رأسه صوت حمص صانع الخيام وهو يقول : يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى . بدا له كأنه صدى ضربة قبضته . فار الدم فى رأسه . تذكر أدهم . أدهم المسئول . يحرض حمص . فشل فى سحق كبرياء هذا الولد . توهم أنه لن يرفع رأسه عندما يعرف أن كروانة حبيبة قلبه رقصت له ليجعله يستمر فى إكمال تعليمه . أبصره بالأمس يضحك.سيسحق ضحكته كما سحق الحمامة بعربته أمام الحارة . ارتاح لقراره . ابتلع دخانه . هدأت نفسه . تعلقت عيناه بآية قرآنية منقوشة على جدار القاعة . تصور ابنته حبيبة عروسة بالطرحة البيضاء تمشى بجوار الفيروزى فى حارة الحلوانى على ضوء الشموع . . والدفوف والزغاريد والغناء تملأ الحارة . والبدرة الذهبية تتساقط . وتنحنى الحارة تحت قدمى ابنته تجمعها . تبين تفاهة أن يشغل نفسه بأدهم . يخطىء عندما يتعرض له بنفسه . سيتركه لعشرى . عشرى يحقد عليه . يشعل هذا الحقد بماله . ويتفرج . وعندما يوشك أن يقضى عليه . يتدخل وينقذه من مخالب عشرى . يريد أدهم . لا يأتمن أحداً على قصره وماله سواه . ويكسب حب الحارة . تذكر كلمات ابنته له : أريد أن تترك لى حيا فى قلوب الناس . ويحقق لابنته ما تريد . تنفس . يحس فى كثير من الأحيان أنه يتنفس من أجل حبيبة ، الناس فى حارته طيبون . ترضيهم كلمة . تذكر الحزن الذى رآه فى عيونهم وهو يدوس الحمامة بعربته . لن يرتكب هذه الحماقة مرة أخرى ، ينادى عشرى . تردد لا يريد أن يسمع صوت عشرى الذى ينفر منه فى هذه اللحظة . جاءه صوت خميس . يحب

فى خميس عفويته . تذكر الألم الذى كسا وجهه وهو يقول له عن عشرى أنه مرابى غشاش يخدر العمال المساكين ويسرقهم . صفق . بعد أن صفق تبين أنه يريد عشرى لأنه يخدّر العمال المساكين . جاء عشرى . شعر عشرى بالخوف وهو يدخل القاعة الذهبية . وشى به خميس . أخبره بأنه يحرض العمال عليه . استعد لمعركة عمره . لن يقتلعه ابن الأجير من الوكالة . احتوى وجه المعلم بنظرة فاحصة . تبين أنه رائق المزاج . شعر ببعض الطمأنينة .

قال المعلم :

ــ اجلس :

اطمأن إلى أنه ليس غاضبا عليه . ينبغى إضحاكه

قال عشرى بحركة بهلوانية :

ــ من أنــا حتى أجلس أمــام معلمى . . أنــا صعلوك . . ابن صعلوك . . وجدودى صعاليك الأرض . .

ضحك المعلم . تأكد عشرى أن الفرصة قد حانت . يسدد ضربته لأدهم . يود أن تبتلعه الأرض . يذكره بفشله فى الحياة .

تفوق عليه فى المدرسة الابتدائية . وتركه لمدرسة الصنايع ودخل الجامعة . ويريد أن يخطف حبيبة منه . . رهانه الأخير فى الحياة

رمقه الحلوانى بدخانه . يريد منه أن يكف عن بهلوانيته . ويفهم لماذا طلبه ، ويجنبه الحديث الصريح .

فهم عشرى من نظرة الحلوانى أن يكف عن حركاته البهلوانية .

قال بنبرة حادة :

ــ اسمح لى يا معلم . . .

لم ينظر إليه الحلوانى .

قال عشرى :

ــ أتحدث بصراحة . .

أخرج المعلم مبسم النرجيلة الذهبى من فمه .

قال عشرى :

ــ أدهم . .

ارتاحت ملامح الحلوانى . فبدا أنه يبتسم . انطلقت كلمات عشرى كطلقات رصاص .

ــ يرفع صوته فى الحارة . يتصور نفسه فتوة . يحرض حمص ويتجاسر هذا المخرف على سيد الحارة ويردد . .

اهتزت النرجيلة فى يد المعلم .

توقفت عبارة « يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى » على لسان عشرى . فطن الى أنه كان سيخطىء وينطق بها .

قال عشرى بسرعة :

ــ هذا المخرف ينبغى اقتلاعه .

عاد الدخان إلى فم المعلم . تأكد عشرى أن الثمرة قد سقطت فى فمه .

ــ أعطنى الأمر لأؤدبه . . وأجعله أضحوكة فى حارة الحلوانى .

ثقل صوت عشرى على صدره . هز رأسه يريد من عشرى أن ينصرف دون أن يطلب منه الانصراف .

خاف عشرى أن يكون المعلم قد فهم أنه سيؤدب حمص . يريد أن يكون واضحا للمعلم أنه سيؤدب أدهم . لا يصدق أن المعلم يوافق بهذا اليسر على تأديبه . يعرف أنه يحمل له معزة خاصة .

قال :

ــ أدهم جاوز حدوده يا معلمى ، وإذا لم توقفه فستنتقل عدوى حمص إلى العمال . .

سعل المعلم . اقترب عشرى وهو يقول :

ــ سلامتك يا معلمى .

كف المعلم عن سعاله . تذكر أنه يريد أن يذهب إلى الفيروزى فى الصاغة . يدعوه للحفلة . وقف . أخرج من محفظته بعض الأوراق المالية . أراد أن يضعها على المنضدة التى أمامه كعادته عندما يعطى أحدا من رجاله بعض المال ولكن وجد نفسه يلقى بالأوراق بطريقة تجعل بعضها يسقط على أرضية القاعة .

قال عشرى دون أن يتحرك من مكانه ليلتقط الأوراق المالية :

ــ المال يذهب . . ولكن الحب يبقى . . أريد حبك يا معلمى !

كره الحلوانى عشرى فى هذه اللحظة . ضربه على ظهره . وخرج .

تملكت عشرى شراهته . . يريد أن يجمع الأوراق المالية المتناثرة . ويجلس على مقعد المعلم ويتحسس النرجيلة المطعمة بالذهب ويعب من دخانها فى وقت واحد . سمع وقع خطوات . خاف أن تدخل كروانة بالقهوة

وترى الأوراق المالية وتذهب إلى أدهم تخبره بأن المعلم قد اشتراه بالمال . لا تهمه الحارة . . المهم أن يبقى فى عينى أدهم شريفاً مثله لا يشترى . . أسرع وجمع المال بسرعة وأخفاه فى جيوبه . ترقب دخول كروانة . . لم تدخل كروانة . اطمأن . . أسرع وجلس على مقعد المعلم الوثير . قلد المعلم فى جلسته . أمسك النرجيلة وتحسسها كما يتحسس جسد عشيقته فطومة . تلذذ بنفس عميق . تخيل فطومة ترقص له ، فى هذه القاعة الذهبية ، لن تكون فطومة واحدة . يصبح سلطانا . . شعر بالجوع فجأة . صفق يريد طعاما . تنبه إلى حماقة ما يفعل . ينبغى أن يتحكم فى رغباته . يكبتها حتى يسيطر على الحارة ويتزوج حبيبة ويملك القصر . ترك المقعد . لم يترك النرجيلة من يده رغم أن نارها أوشكت أن تخمد . لا يريد أن يترك آخر أنفاسها . أبصر كروانة تقف أمامه تحمل صينية القهوة . ترك النرجيلة من يده وهو يقول فى شىء من الارتباك :

ــ كنت . .

لم تتح كروانة له فرصة إكمال عبارته وهى تقول :

ــ الطعام سيكون جاهزا بعد قليل !

قال وكأنه يرجوها ألا تخبر المعلم بأنها قد رأته يمسك النرجيلة :

ــ أطعمنى المعلم بحبه !

قالت كروانة بنبرة بدت له آمرة :

ــ المعلم أمر باعداد الطعام .

ثم أعطته ظهرها وهو يقول :

ــ ما دام المعلم قد أمر . .

تضايق عشرى . جارية المعلم تعطيه ظهرها وهو يتكلم والمعلم يستدعيه للقاعة الشرقية ويطلب منه أن يجلس معه . فار الدم فى رأسه . أوشك أن يصرخ فيها . . ولكنها كانت قد خرجت وأغلقت باب القاعة خلفها . فكر فى أن يخرج من القاعة الشرقية . ويبحث عنها فى أنحاء القصر . وعندما لا يجدها يطرق عليها باب حجرتها .

المعلم أعطاه هذا الحق . اختاره ليكون رجله . اتجه إلى باب القاعة . طاف فى عينيه صدر كروانة وهى تنحنى وتضع القهوة على المنضدة . . انتابته رغبة فى أن يعتصر هذا الصدر الذى ينبض بحب أدهم . فتح الباب . قفزت أمام وجهه نظرة خميس التى يخافها . أغلق الباب . كأنه سيجد خميس واقفا خارج القاعة . تحسس المال فى جيوبه . تضايق من نفسه لأنه يخاف نظرة ابن الأجير . ينبغى أن يتخلص من خميس . عندما يقتلع شجرة أدهم من الوكالة سيسقط ظله . . خميس . يريد أن تعرف حارة الحلوانى أنه أصبح يد المعلم اليمنى دون أن يصرح بهذا علانية حتى لا يغضب المعلم منه . عندما يؤدب أدهم ويبارك المعلم تصرفه ستعرف الحارة أنه أصبح رجل المعلم . . ولكن تأديب أدهم فى حاجة إلى تفكير طويل . يريد شيئا مفرقعا الليلة . يتعجل جنى الثمار . يدفع أحد الأجراء إلى أن يتطاول على خميس . . ولكن فتوة خميس قادرة على أن تنهى الأمر لحسابه . تذكر حمص الرجل العجوز . المعلم يكرهه . يذهب إليه ويطلب منه أن يضع لسانه فى فمه ولا ينطق بعبارة : يا رب يا متجلى أهلك العشمانلى . . فيتبجح الرجل كعادته ويتطاول على المعلم . . ويغضب لكرامة معلمه . ويصفعه . ويثور العجوز ويرفع صوته فى الحارة ، ويهدده بالطرد إذا لم يصمت . . ولا يصمت العجوز . . فيطلب من بعض الأجراء إسكاته باخراجه من الحارة . . ويطرد حمص من الحارة فى الليل . . ويباغت أدهم بالأمر . . . ويطلب من خميس ألا يفقد أعصابه . . ينبغى

إخبار المعلم أولا . . ولا يصل صوت أحد إلى المعلم فى قصره . . فالبوابة الحديدية تغلق بعد العشاء مباشرة . . وتنام حارة الحلوانى على بطشه . ويعرف المعلم ما فعله فى الصباح ويبارك عمله فهو يكره حمص ويريد أن يتخلص منه . . ويقربه منه أكثر وتعرف حارة الحلوانى أنه أصبح قبضة يد المعلم الحديدية التى لا ترحم . .

●

[١٢]

توتر الليل فجأة فى حارة الحلوانى . طرد عشرى عم حمص من دكانه بعد أن أهانه . . وغلظ صوته وهو يقول لأهل الحارة الذاهلين لن ينام فى الحارة الليلة عقابا له على تطاوله على المعلم . اندفع أدهم نحو خميس يمنعه من أن يصطدم بعشرى . يجذ رأى أبيه . ينبغى ألا يتعرض أحد لعشرى . عشرى قد جن الليلة . . ننتظر عودة المعلم . الحلوانى رغم قسوته لا يرضى بأن يمضى رجل عجوز كعم حمص ليلته على الرصيف . أخبرته كروانة أن المعلم لن يتأخر خارج الدار كثيراً . أرسل جابر صبى الوكالة يبحث عن المعلم فى كل مكان يتصور أنه قد ذهب إليه .

نظر خميس إلى نافذة حجرة عشرى التى صعد إليها بعد أن طرد عم حمص . بدا لأدهم ونظرة خميس تعود إلى أشياء عم حمص المبعثرة أمام دكانه أنه سيندفع ويصعد إلى عشرى فى حجرته ويلقى به خارج الحارة . أمسكه من يده . . تمردت يد خميس .

علا صوت أدهم :

ـ خميس . .

هدأ خميس . . بدا خميس لأدهم ـ فى هذه اللحظة ـ كطفل . يشعر بالخوف عليه . يرى فيه جموح نفسه . علمته حارة الحلوانى أن يجعل هذا الذى يسميه بالتعقل يكبر فى داخله . ويسيطر على تصرفاته . . أصبح يصمت عندما ينبغى أن يصرخ . . نظر فى عينى خميس . . شعر أنه يحميه من شر عشرى . أمسكه من يده ودفعه إلى داخل الوكالة . امتثل خميس لرغبته وجلس تحت الشجرة . .

قال أدهم :

ـ ننتظر . .

قفز خميس من جلسته :

ـ عم حمص . .

امتلأت عينا أدهم بوجه عم حمص . اعتصره الألم .

قال خميس بعفويته وهو يعود للجلوس :

ـ عشرى طرد عم حمص لأنه أقوى منه وأنا أقوى من عشرى . أستطيع أن أعيده إلى دكانه .

شعر أدهم بالعدل . تذكر أباه السقاء وهو يقول له : العدل لا يأتى ببساطة فى هذه الحارة . لابد من التضحية . . وأنا لا أستطيع أن أضحى بك !!

قال خميس :

ـ عشرى يخافنى . . يعرف أننى سأطحن عظامه لو اعترضنى .

طافت فى عينى أدهم دمعة حزن . يدعوه أبوه إلى أن يغض البصر عما يدور فى حارة الحلوانى حتى يكمل تعليمه . ويطيع أباه.ويفترى عشرى ويطرد عم حمص وتتمزق الحارة بالإهانة ويقف صامتا ويمنع خميس من التصدى لعشرى .

فتح عينيه على اتساعهما فى خوف . يذهب ليواجه عشرى . . ولكنه أبصره جالسا تحت الشجرة . بدا له كأنه ابنه . . رغم أنه لا يكبره إلا بقليل .

أبصر خميس الخوف فى عينى أدهم . فقال :

ــ لا تخف على يا أدهم !

ثم ابتسم . . وكأن ابتسامته ضرورية عندما يتحدث عن الحرب على ضفاف القنال . . قال

ــ الحــرب . .

أحس أدهم بشىء من الراحة . . يعرف أنه عندما يحكى عن أيامه فى القنال يبدو كعاشق لا يمل حديثه عن عشقه . . لن يكف عن الحديث الآن وينسى الزمن ويعود المعلم ويعرف ما فعله عشرى وينتهى الأمر .

قال خميس :

ــ فى الخندق . . كنا لا نعرف بعضنا البعض إلا بنظرات عيوننا . . كنا نترقب اللحظة لننقض . . ونطحن عظامهم . .

والتمعت عيناه :

ــ آه . . لو رأيت موت الأصدقاء يا أدهم ؟

بدا له أنه سيبكى ولكن خميس قال فى صوت هادىء :

ــ زحفت فى قلب النيران . . أقاتل الموت حتى لا يقترب من رجال ينتزعون الأرض رملة رملة . !!

ثم انتهب صوته فجأة :

ــ الوفاء للأصدقاء علمنى ألا أصبر على ظلم إنسان !

وتطلع إلى السماء . كان القمر يقاوم سحابة . . تذكر قمره الذى أضاء لياليه فى سيناء بعد أن عبر القناة .

قال دون أن ينظر إلى أدهم :

ــ ينام عم حمص فى برد الليل على الرصيف .

وكأنه يحدث القمر :

ــ العجوز ينبغى أن يعود . .

لسعت كلمات خميس أدهم . أحس كما لو كان المسئول عن نوم الرجل العجوز فى البرد على الرصيف فقال كأنه يدافع عن نفسه :

ــ المسألة ليست بهذه البساطة . .

ضحك خميس ضحكة قصيرة . . كأنه يقول بضحكته : أبسط مما تتصور يا عم أدهم !

ود أدهم فى هذه اللحظة لو قام خميس وذهب وأعاد عم حمص إلى دكانه فلن يعترضه . . ولكن خميس لم يتحرك . أبصره يتطلع إلى السماء . كأنه يحدث القمر وهو يقول :

ــ هذا حقى . .

ثم صمت وكأنه قال للقمر : هذا حقى فى ألا أصبر على ظلم أحد بعد أن شاهدتنى أنتزع مع الرجال الأرض رملة رملة . .

ابتسم أدهم . .

أمسك خميس القمر بنظرته . لا يريد أن يختفى قمره . . شاهده على ما فعله فى رمال سيناء . . وراء سحابة . . غرق فى لحظة مغموسة بضوء القمر . . أحس أنها ستسلمه للحظة أخرى . سيقف فيها ولن يعترضه أدهم . . ويذهب إلى عم حمص ويعيده إلى دكانه . ويزول حزن حارة الحلوانى . .

●

كان عبد العال يروح ويجيء فى الوكالة . . يأكله القلق رغم أنه رأى أدهم يبعد ابنه خميس عن طريق عشرى ويجلسان معا تحت الشجرة . . قلبه يحدثه بأن ابنه سيصطدم بعشرى . . لا يطيق الظلم منذ خاض الحرب ، وعشرى بلا قلب . فكر فى أن يحمل صرته ويذهب إليه ويعودا معا إلى قريتهما . رفض فى الليلة الماضية أن يستجيب لرغبته ويعود معه . يعرف أنه يشفق عليه فى شيخوخته . ويريد منه أن يمضى ما تبقى من عمره دون عمل وهو يحب العمل . يريد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وفأسه فى يده . انقبض قلبه وصوت طهاوى يصله . توقع أن يسمعه يقول : ابنك يتشاجر مع عشرى ، ولكنه قال له وهو يضحك :

— اطمئن يا عم عبد العال . . خميس يناجى القمر تحت الشجرة . .

ثقلت ضحكة طهاوى على صدره . . أراد أن يقول : ابعد عن ابنى يا نحس . . ولكنه صمت . . وأشاح بوجهه عنه ، وكأن الذين يفترشون الإسطبل بحزنهم العاجز كانوا ينتظرون ضحكة أحد ليضحكوا . . وبعد قليل بدت لهم ضحكاتهم كأنها العقاب الوحيد المتاح لهم لينزلوه بالطهاوى جزاء ما فعله بعم حمص . . فاستمروا فى ضحكهم . . لم تكن ضحكاتهم من القلب . . كان القلب قد ركبه الهم وهم يرون عم حمص . . صدرهم الحنون فى الحارة يهان ويطرد . . فوجئوا بصوت عشرى يرعد فى الحارة ويندفع طهاوى كالبرق يضرب الرجل العجوز ويحطم دكانه ويطرده من الحارة . توقعوا أن يصلهم صوت المعلم آتيا من قصره يرفع الظلم عن عم حمص . . ولكن الوقت مضى ولم يسمعوا صوت المعلم . . أصيبوا بخيبة أمل . أرادوا أن يفعلوا شيئا .

لم يجدوا شيئا يفعلونه سوى أن يملأوا الحارة بوجودهم . . تزاحموا . . تضايق عشرى من تزاحمهم . زعق فيهم . فروا من أمامه مسرعين . .

دخلوا الوكالة والتفوا حول عبد العال . . انفجروا بالضحك على طهاوى . فطن — بعد قليل — إلى أنهم يضحكون عليه . أراد أن يقول لهم : تضحكون على يا حثالة البشر . . ولكنه تنبه إلى أن أفضل طريقة ليغيظهم هى أن يضحك معهم . علت ضحكته . هز جسده كغازية ترقص . . توقفت ضحكاتهم . كأنهم قد تبينوا أن الطهاوى لم يعد واحدا منهم ليضحكوا على حركاته . . أصبح ذراع عشرى التى تبطش . . انكمشوا . توقعوا أن تمتد ذراعه إليهم وتطردهم خارج الوكالة . تغربوا بحثا عن المال . يسترون به أيامهم . وهذه الوكالة هى طريقهم الوحيد إلى المال . لاذوا بالصمت . قطع رجل مسن الصمت وهو يقول :

— اللهم اجعله خيرا . .

كأن عبارة الرجل قد ذكرتهم بأن الحزن هو خبز لياليهم المعتاد والضحك يلد الشر . . فطفا الحزن على وجوههم ولكن واحدا منهم كان المزاج قد بلغ مداه معه فقال :

— اضحكوا . . قبل أن يجيء عشرى الحلوانى . . ويخرجكم من الجنة !

وكأن ذكر عشرى مقرونا بالحلوانى كان كافيا بأن يجعل العمال يتجمدون فى أماكنهم . . ضحك طهاوى . . بدت ضحكته فى هذه اللحظة أنها الثمن الذى ناله جزاء طرد عم حمص . . لم يخف مثلهم من ذكر عشرى مقرونا باسم الحلوانى . .

قال طهاوى كأنه يزهو بعدم خوفه :

— لا تخافوا . .

ثم ضحك وهو يقول :

— عشرى ينام فى العسل . .

فهقه الرجل الذى بلغ المزاج مداه معه وقال :

— تقصد فطومة . .

وكأن ذكر فطومة قد لسع طهاوى . . أحس أنه قد تورط . أراد أن يجرى ولكنه جلس . . انفرجت أسارير الأجراء . التفوا بنظراتهم حول الرجل يريدون منه ألا يكف عن الحديث .

قال الرجل :

— لمحتها وهى تدخل الحارة . . قلت لنفسى لو رأتك يا محروس ستخبر عشرى بأنك رأيتها . . تظاهرت بأنى لا أراها . . وزيادة فى الحيطة أغمضت عينى ، واطمأنت ودخلت ، ولكنى رأيتها ، ذقتها بنظرتى . . طعمها حلو . . مهلبية يا أولاد ! لم أضحك . .

ضج الأجراء بالضحك . .

تنبه طهاوى إلى أنه يضيع وقته مع بلهاء . . يصعد إلى عشرى فى حجرته ويخبره بأن خميس يناجى القمر تحت الشجرة . فيعرف أنه ساهر يراقب الحارةويتأكد من أنه أصبح رجله . بدا لمحروس أن الطهاوى سيجرى . أمسكه من ساقه وهو يقول :

— لن أتركك تذهب وتخبر عشرى بأنى قد ذقت المهلبية فيطردنى من الجنة !

أوشك عبد العال أن يصرخ فيهم : كفوا عن هذا الهزل ، ولكنه ابتلع صراخه وصمت .

قال طهاوى بهزله :

— عيب بغلة . . ولد طهاوى ليس بفتان !

ترك محروس ساقه وقد ركبه الهم فجأة . . أراد طهاوى أن يقول : ولد الطهاوى . . شجاع . . أبو زيد الهلالى . . ولكن محروس أسرع يقول وهو يهز رأسه :

— رأيتك تفترى على العجوز ! !

طافت برأسه لحظة خجل من نفسه لأنه لم يضربه . . أراد أن يطردها طهاوى بضحكته الممطوطة . . سمع عبد العال يقول :

— وتضحك ؟ !

اتجه نحوه بنظرته.أبصر الغضب يملأ عينيه . ارتعش داخله . يخاف تأثيره على الأجراء . يعرف أنه يبغضه . . حاول أن يتقرب منه ولكن دون جدوى . . فانصرف إلى السقاء ولكنه لم يجد منه فائدة . . فسعى إلى ابنه أدهم ولم يجد فيه ضالته . . أبصر فى عشرى الرجل الذى يريده . يسرق أموال الأجراء كما يسرق الكحل من العيون . . يريد بعضا مما يأخذ . أعطاه القليل ثمنا لنقل أخبار الوكالة إليه . . لا يكفيه ما يأخذ . يريد أن يصبح يده اليمنى ويغدق عليه الكثير . أبصر فرصته الليلة عندما سمع عشرى يصرخ فى وجه حمص . . سيلقى بنفسه فى معركة الليلة ويصبح فارسها . . وخاصة أنه لا يحب حمص لأنه لا يعطيه الكثير من الشاى والحلوى . . ولكنه تردد بعض الوقت . . يخشى أن يظهر المعلم ولا يرضى عما يفعله عشرى ويفقد كل شىء . . وعندما مضت فترة ولم يظهر المعلم وتوحش صوت عشرى وجرى الأجراء مذعورين وتأكد أن عشرى قد انتصر . ألقى بنفسه فى ساحة المعركة وراح يحطم أشياء عم حمص . . وعندما اقترب منه ليضربه شعر بالخوف . . توقفت يده عن

ضربه . وخشى أن يتصور عشرى أنه جبان لا يصلح لأن يكون رجله فأمسك الرجل العجوز من خناقه ودفعه إلى خارج الحارة . شعر أنه قد نال إعجاب عشرى وهو يقول : سأصعد إلى حجرتى . . وابق أنت فى الحارة . . تملكه الزهو وهو ينظر إلى الأجراء الذين يفترشون الأرض حوله . . صار رجل عشرى وعلى الأجراء أن يخافوه . . خطف السيجارة من فم أجير وأخذ نفسا منها . . أراد أن يستمتع بنظرة من وجه الأجير الخائف . . فأبصر الغضب يتجمع فى عيون الأجراء . . تصور أنهم سيقومون ويتجمعون عليه ويعجز عن مقاومتهم وينهزم وعشرى لا يريد رجلا مهزوما . . أسرع وأعاد السيجارة إلى الأجير وهو يقول ضاحكا :

ـ كنت أضحك معك !

ألقى الأجير السيجارة على الأرض بعد أن تناولها من يده . فطن طهاوى إلى أنه ينبغى أن يسترضى عبد العال بأية صورة حتى يتقى شر الأجراء الذى يتجمع فى عيونهم . . قال وهو يقترب منه :

ـ معلمى . . ولدك طهاوى . . يريدك أن تسامحه . .

ثم ألقى بنفسه على عبد العال يريد أن يقبل يده . . لم يستطع الرجل الجالس أن يقاوم جسد طهاوى الضخم . . استسلم للمفاجأة . . وعندما تركه طهاوى بصق على الأرض .

وكأن الفرصة قد لاحت لطهاوى فقال :

ـ أرأيتم ؟ !

قال عبد العال :

ـ اخـــرس . .

شعر طهاوى أنه إذا تركه يتكلم . . فإنه سيخسر معركته فى هذه اللحظة فراح يتكلم بسرعة :

ـ أعرف أن عم عبد العال غاضب منى . . وهو معذور لا يعرف ما دار فى الحارة . . كان فى داخل الوكالة . . سأحكى . .

سمع صوتا يقول : لا نريد أن نسمع شيئا . .

وكأنه لم يسمع ما قاله الصوت فقال :

ـ انتم أهـــلى . .

توقع أن يسمع صوت عبد العال يقول : اخرس . . ولكنه لم يسمع شيئا . . قال :

ـ طهاوى . . ليس بجبان يضرب عجوزايصنع له الشاى بيديه ويعطيه الكثير من الحلوى ؟

رفع أحد الأجراء رأسه عن الورق الذى كان يلعب به . بدا لطهاوى أنه قد نفد صبره فوجد نفسه يقول :

ـ لم أضربه . . عندما امتدت يدى لتضربه . . شعرت بالخوف . .

قال محروس :

ـ أنت تخاف من حمص ؟ !

ـ صـــدقونى . .

شعر كأن العيون تحاصره فقال :

ـ كل ما فعلته أننى دفعته أمامى إلى خارج الحارة حتى أبعده عن عشرى الذى كان يمتلىء بالشر ـ فى هذه اللحظة ـ حتى يعود المعلم من

الخارج ويعيده إلى دكانه . . أنا لا يمكن أن أخون العشرة . .

عاد الأجير الذى كان يلعب الورق إلى أوراقه . . قال أحدهم :

ــ العشرة تهون على الكافر . .

تنبه طماوى إلى أنه قد أخطأ لأنه اعترف بخوفه ولم يصدقوه . . ينبغى أن يلجأ إلى طريقته التى يكسب بها دائما وهى خلط الجد بالهزل فقال :

ــ أنا لست كافرا . . الكافر من يجلس فوق . .

ثم أشار بيده فى اتجاه حجرة عشرى . .

قال أحدهم :

ــ تقصد عشرى . . ؟

قال طماوى وهو يضع يده على فمه :

ــ لا ترفع صوتك حتى لا يسمع . . يأكل المهلبية .

ثم اتجه إلى محروس وقال :

ــ أليس كذلك يا عم محروس ؟ ! وأنا المسكين . . أنظف الحارة كل يوم . . بينما كنت أنظف الحارة قال لى : اطرد عم حمص فطردته .

قال محروس وقد استبد به الغضب :

ــ لا تفرق بين تنظيف الحارة وطرد حمص .

ضحك طماوى ضحكة مفرقعة وهو يقول :

ــ كله تنظيف ! !

توقع أن يضحك بعض الأجراء . . ما توقعه قد حدث . .

سمع ضحكة فقال بسرعة وقد مد كرشه إلى الأمام :

ــ العمـــدة . .

قال محروس :

ــ أى عمدة ؟ . . نحن فى حارة الحلوانى .

وكأن محروس لم يقل شيئا . . قال طماوى :

ــ العمدة أمر . . وشيخ الغفر نفذ .

قال محروس :

ــ وأنت شيخ غفر حارة الحلوانى ؟

قال طماوى وهو يهز كرشه :

ــ أنا غلبان . .

صاح عبد العال :

ــ غبى . .

قال محروس :

ــ نحن الأغبياء لأننا نسمع له !

قال طماوى :

ــ أمى ولدتنى غبيا . . فماذا أفعل ؟ أموت ؟ !

توقف الأجير الذى كان يلعب الورق عن لعبه واتجه بحديثه لعبد العال :

ــ لو كنت فى الحارة وطلب منك عشرى . .

قاطعه عبد العال فى حدة :

ــ لا يجرؤ !

قال الأجير :

ــ لأنه يخاف ابنك خميس .

شعر طماوى بأنه قد كسب المعركة فقال :

ــ أنصف ولد الطماوى الغلبان يا رجل يا طيب !

بدا على بعض الوجوه التعاطف مع طماوى . . تضايق محروس . . قال :

ــ سأخرج من الوكالة . . أريد أن أتنفس هواء نقيا !

شعر طماوى بأنه قد هزم عبد العال ــ لأول مرة ــ وكأنه أراد أن يستمتع بانتصاره فقال :

ــ ماذا كان يفعل ولد الطماوى يا عبد العال ؟ فعل ما كان سيفعله أى واحد من الأجراء أوقعه حظه العاثر فى الحارة فى هذه اللحظة . .

وكأنه قد سمع صوتا يقول : كلنا ولد الطماوى . . فقال : حظنا العاثر . .

ارتفع صوت رجل غلبه النعاس .

ــ دعونا ننام . . فى الصباح لن يرحمونا . . وعم حمص ليس من أهلنا . . ولا شأن لنا بحارة الحلوانى . .

صاح الأجير الذى كان يلعب الورق :

ــ تنتهز الفرصة وتغشنى . .

اتجهت العيون نحو الذى يغش . . تجسدت لطماوى قدرته على أن يفرق بينهم . . يستطيع أن يشعل نار العصبية بينهم . وتتبارى العصى وتحطم رأس عبد العال ويتخلص من نظرته التى تذكره بوضاعته . لن يفعل هذا دون موافقة معلمه عشرى . . يصعد إليه . يريد أن يرى فطومة . داس على طرف أجير . توقع أن يصرخ الأجير . يريد أن يسمع صراخ أحد يؤكد له انتصاره . لم يصرخ الأجير . تبين أنه قد داس على صرة ملابس أحدهم !

تنبه عبد العال إلى أن طماوى يشغله عن خميس . يود لو أن روحه قد انفصلت عن جسده وذهبت لتحرس ابنه خميس الجالس تحت الشجرة من شر عشرى . وقف . يريد أن يستأنف قلقه على خميس . ارتفع صوت الأجير الذى اتهم بالغش . يدافع عن نفسه . أشعل طماوى نصف سيجارة كانت فى جيبه . تخيل أن عشرى قد وافق على إشعال النيران بين الأجراء واشعل جنون بحراوى وصعيدى ، وتطاير الغضب وتبارت العصى وسالت دماء عبد العال . . فضحك ضحكته الممطوطة وهو يقول :

ــ حقك على يا عم عبد العال . .

لم يسمع عبد العال عبارة طماوى . . كان كالذاهل . استأنف قلقه على ابنه وخوفه من صدامه بعشرى !

●

عب عشرى دخان جوزته . عمّرها بصنف جيد يكافىء نفسه . بعث الرعب فى حارة الحلوانى . . أطار النوم من عيونها.وفطومة تجلس تحت قدميه أرخى جفنيه شعر أنه يطير مع دخانه . تصور نفسه فارسا . يمتطى جواد المعلم الأبيض ويدوس الحارة به . ويتدافع الاجراء أمامه مذعورين

ويسقط بعضهم . شعر بنشوة النصر . لم تبق غير هذه المرأة الجالسة أمامه تهزمه دائما بجسدها المكتنز . يريد أن يدوسها . .

تطلعت فطومة إلى عشرى . يضع على كتفيه عباءة سوداء موشاة بخيوط الذهب . ويجلس على مقعد وثير . بدا لها كسلطان . . احتوته بنظرة عاشقة تحب أن تكون جارية له . تمضى بقية عمرها جالسة تحت قدميه . تشعل فحمه . وتطعمه بما طاب .

امتدت يد عشرى إلى صدرها . امتلأ رأسها بالضحكة التى سمعتها وهى تسرع الخطو وتدخل بيت عشرى بعد أن فوجئت بعم حمص يجلس أمام دكانه . شعرت بالمهانة وهى تصعد السلالم المتآكلة . لا تتصور أن فطومة ابنة بولاق تتسلل فى الليل . تريد أن تدخل حارة الحلوانى فى النهار زوجة لعشرى . أمسكت يد عشرى وأبعدتها عن صدرها .

قهقه عشرى . قفز أمام عينيه وجه طاوى وهو يخبره بأن الحارة لن تنام قبل أن يجىء المعلم لتخبره بما فعل . قال :

ـ سينتظرون صياح الديك . المعلم لن يأتى قبل الفجر . . وسيمضى العجوز الليلة فى البرد . .

ثم قلد صياح الديك .

شعرت فطومة بالغيظ . لا يشعر بالمهانة التى أحست بها وهى تنظر خلفها تخشى أن يلمحها أحد وهى تصعد إليه . أرادت أن تقول له : لن أجىء هنا مرة أخرى . . ولكن نظرتها وقعت على الطعام الذى أحضرته معها فقالت :

ـ سى عشرى . . الحمام . .

امتعض . قالت بسرعة :

ـ حشوته بالفريك . .

ـ لا تذكرينى . .

ثم صمت وكأنه قال : لا تذكرينى بالحمام . أكرهه لأن أدهم يحبه !!

وجذب نفسا عميقا وراح يدندن بأغنية : الحلوة قامت تعجن فى الفجرية . .

تفرسته بدهشتها . لا تفهمه أحيانا . اقتربت أصابعها من الفحم المشتعل . أرادت أن تذكره بأنه هو الذى طلب منها أن تحضر معها حماما بالفريك . ولكنها صمتت . خشيت أن يغضب ويتعكر مزاجه . توقف فجأة عن الغناء وقال وقد انتابته فرحة طفولية :

ـ أنا عشرى الحلوانى . . أنا عشرى الحلوانى !

قفز أمام عينيه فجأة وجه الحلوانى . ارتعد . . سيغضب وينكل به لو سمع ما ردد . جرت نظرته إلى النافذة التى تطل على قصر الحلوانى . أبصرها مغلقة . ارتاح . لم تخرج كلماته من النافذة . ولم يسمعها أحد فى الحارة . الحارة تكرهه . رأى الكراهية الليلة فى عيونها بعد طرد حمص . ابتلع جرعة من دخانه . يعيد إلى رأسه ما أطاره الذعر . تطلع إلى وجه فطومة . يريد أن يرى فى عينيها بهجته لأن اسمه أصبح يقرن بالحلوانى . كانت فطومة مشغولة عنه بالتفكير فى كيفية إطعامه حمامة دون أن يغضب . . لم تنتبه إلى ما ردد . ترك مقعده . جلس بجوارها على الكليم . تضايقت فطومة من تركه لمقعده .

قال وهو يقترب برأسه منها :

ـ الأجراء فى الوكالة يطلقون علىّ : عشرى الحلوانى . .

ثم تنبه إلى أنه لم يخفض صوته كما ينبغى حتى لا يسمعه من يتصادف صعوده على السلم فقال هامسا :

ـ يعتبروننى ابن المعلم يا فطومة !

أبصر ضيقا فى وجهها . ألقى بالعباءة من على كتفيه ، أمسكت فطومة العبـاءة . تضعهـا على المقعـد . قبض على يدها . يمنعها من أن تضع العباءة على المقعد . ينبغى ألا تنشغل عنه . وتحس بفرحته . قرب فمه من أذنها ، كأنه يوشوشها :

ـ الولد الذى طرق باب الحجرة منذ قليل أخبرنى بأن أحد الأجراء قال فى الوكالة : اضحكوا قبل أن يجىء عشرى الحلوانى ويصرخ فيكم . . الدور عليكم .

وأضاف :

ـ أولاد ملاعين . .

تفتحت فطومـة للحـظة حب . احتضنت يده بكفيهـا . قالت وإحساسها يتفتح كزهرة للربيع .

ـ تحبنى ؟؟

قال غاضبا :

ـ ماذا تريدين أكثـر مما فعلت فى الحـارة ؟ . . أدبت الحـارة لأن ضحكة انطلقت وراءك وأنت تدخلين بيتى !!

لم تعد تشعر بيده رغم أنها مازالت بين كفيها . أحست بالحزن . يحب جسدها ولا يحس بروحها الظمأنة لكلمة حب . تطاير شرار الفحم المشتعل

حوله . شعر بنيران جسدها . يريد أن يحترق . يتوهج فى نيرانها . مد ذراعيه .

قال بصوت ناعم . يسترضيها ، لتسمح له بأن يحترق بنارها :

ـ الذى يرش فطومتى بالماء أرشه بالدم . .

شعرت بجسده الضئيل . أحست بالاختناق فجأة . انفلتت من بين ذراعيه وقامت إلى النافذة وفتحتها . وتنفست نسمة الحارة الباردة . أبصرتها مهجورة . وأشياء عم حمص مبعثرة أمام دكانه .

قالت مستنكرة :

ـ تضرب رجلا كأبيك !

لم يكن يصغى إليها وهى تترك النافذة وتتجه إليه . بدت له كفرس جامحة وشعرها يتطاير حولها . ينبغى أن يروضها . اشتعلت دماؤه . الليلة ليلة قتل الجموح . .

قال وهو يطير مع دخانه :

ـ سأقتله !!

قالت :

ـ حرام . .

حلّق مع نشوته . تذكر الليلة . انتهز فرصة ذهاب المعلم للفيروزى ليؤدب الحارة . اتجه إلى حمص ليضربه . وجده يضع براد الشاى على النار . أراد أن يشرب كوبا من الشاى قبل أن يضربه . جلس يحتسى الشاى . تذكر فجأة موعد مجىء فطومة . خاف أن تجده جالسا مع حمص وتحدثه وتراهـا الحـارة معا . احتسى كوب الشاى بسرعة وصعد إلى حجرته .

وجاءت فطومة وأخبرته بأنها قد سمعت ضحكة وهى تدخل من باب البيت . عرف أن أحدا من الحارة قد أبصرها وهى تصعد إليه . لا يحبونه فى الحارة . سينتهزون الفرصة ويخبرون الحلوانى ويطرده من الحجرة . ينبغى إغراق الحارة فى شىء ينسيها مجىء فطومة فى الليل . نزل إلى الحارة ورفع صوته . كان ينوى أن يكتفى برفع صوته كعادته فى الفترة الأخيرة وخاصة أن حضور فطومة جعله يؤجل طرد حمص إلى ليلة أخرى ولكنه أبصر فى عينى حمص نظرة استهزاء ووجد الدم يفور فى رأسه ويصفعه . . كان سيكتفى بهذا وخاصة أن الرجل لم يبد أية مقاومة . . ولكنه فوجىء باندفاع طحاوى . ارتاح لظهوره . وقف يرقبه وهو يؤدب الرجل ويمسك بخناقه ويطرده خارج الحارة . .

شعر ببطولته وفطومة تقول له :

ــ ليس عشرى حبيبى الذى يفعل هذا ؟ !

كركر بجوزته . حطت نظرته على سريره محمولة على دخانه . . كأنه سيجد فطومة راقدة وقد خلعت ملابسها . . ولكن فطومة كانت تقف فوق رأسه مرتدية جلبابها . شعرت فطومة بالضيق من شعرها الطويل الذى ينسدل على كتفيها قالت :

ــ أنا متأكدة أن عم حمص لم يرنى . لا يستطيع أن يعرفنى فى الليل وأنا بالملاءة اللف !

أمسك شعرها وهو يقول :

ــ فطومتى . . حبيبتى . . قادمة لتزورنى . . فلماذا يجلس فى الحارة ؟ !

لمت شعرها فى منديل رأسها الوردى وهى تقول :

ــ لم تكن ضحكة عم حمص التى سمعتها !!

تجمد له فى هذه اللحظة انتصاره . . حمص طرد من الحارة . . وأدهم وخميس يجلسان تحت الشجرة . . والحارة غارقة فى خوفها تردد اسمه مقروناً بالحلوانى وفطومة معه فى حجرته . أحس بزهوه . . قال ودخانه يتطاير حوله :

ــ عشرى لا يرحم . .

نظرت إليه فى استنكار . . قال :

ــ لا يرحم من يرى فطومتى وهى قادمة إلى !!

شعر بالجوع فجأة . امتدت يده إلى الطعام . تناول حمامة وراح يلتهمها بعظامها وهو يقول :

ــ ما ألذ الحمام بالفريك !

شعرت بجلبابها يلتصق بجسدها . نظرت إلى الملاءة اللف التى كانت ملقاة على السرير . أحست برغبة فى أن ترقد على فراشه وتنام . . قالت :

ــ لم ترحم كبره !

تذكر عشرى جاره الفخرانى . . لابد أن خبر مجىء فطومة له فى حجرته قد وصله ويشتعل الآن غيظا . قهقه وهو يقول :

ــ يموت الرجل العجوز الآن بردا !

●

تلتمع عينا حمص فى الظلام . لا يشعر بنسمة الليل الباردة . يرتدى جلبابا خفيفا . دفأت جسده الكلمات التى كانت تتزاحم بين شفتيه . يلعن

العدل الذى يجىء دائما متأخرا فى حارة الحلوانى والجبناء الذين يتجنبونه عندما يسمعونه يردد عبارة : يارب يا متجلى أهلك العثمانلى . والخوف الذى جعل المعلم جبروتا . .

التف الناس حول صوت حمص الذى يشرخ الليل .

تملكتهم الراحة لأن أحدا منهم قد انفلت من مدار التعقل ويردد بصوت جهير ما يرددونه خفية . نسمة الليل تروح وتجىء فى شارع الغورية على مقربة من حارة الحلوانى . كأنها تعبر عن قلق بدأ يسرى بينهم . وقع ظلم على حمص . طرده عشرى من الحارة . ينبغى أن يتقدم واحد منهم ويرفع الظلم عنه . ينظرون فى وجوه بعضهم بعضا يبحثون عن هذا الذى سيعيد العدل . يقتربون . يبتعدون . يسبون عشرى كأنهم يسبون عجزهم فى العثور على هذا الذى سيعيد الرجل الطيب إلى فرشته . وعندما تجىء سيرة المعلم يغرقون فى مخاوفهم الداخلية فيصمتون . يتلفت البعض حوله كأنه يخاف من نسمة الهواء . . أن تذهب الى قصر المعلم وتشى به .

أراد الفخرانى أن ينفى عن نفسه تهمة الصمت عندما تجىء سيرة المعلم فقال :

ــ المعلم مظلوم . . لا يمكن أن يعرف ما فعله عشرى !

علا صوت حمص :

ــ عشرى جبان . . لا يفعل ما فعله معى دون علم الحلوانى . .

تذكر الفخرانى أن فطومة فى حجرة عشرى وأنه حاول فى مرات سابقة أن يحدثها ولكنها صدته . . فقال للواقفين حوله :

ــ انتهز عشرى فرصة خروج المعلم واستقبل امرأة فى حجرته . . وعندما عرف أن الحارة قد رأته وافتضح أمره . . اختار عم حمص الرجل

الطيب ليصرخ فيه . . يريد أن يلقى الرعب فى قلوبنا حتى لا نخبر المعلم . .

انفعل حمص عندما أبصر بعض الواقفين ينصرفون عن قضية ظلمه إلى الحديث عن المرأة التى دخلت بيت عشرى فى الظلام ، وقال وكأنه يذكرهم بأن قضيتهم الآن هى قضية الظلم الذى وقع عليه :

ــ الحلوانى أمر بطردى . . وخرج . . وغدا يطردكم . . الدور عليكم . . لا يستطيع أن يتحمل كلمة تعارضه .

شعر الفخرانى بخطر أن يكون واقفا ويسمع مثل هذا الكلام ، فقال يدفع عن نفسه هذا الخطر :

ــ ولكن معلمنا . . طيب !

ابتسم حمص وهو يقول :

ــ كان فى الماضى . . أعرفه منذ كان يحمل التراب على كتفه . . أفسدته الحارة الآن بصمتها على تصرفاته . . وأيقظ الثراء المفاجىء أسوأ ما فيه . . فأصبح يظلم ونتغنى بمآثره !

قال الفخرانى وهو ينظر إلى من حوله ، كأنه يريد أن يشهدهم على أنه اعترض بصوت عال عندما هاجم حمص المعلم فقال :

ــ لا تقل هذا يا عم حمص !

أراد أحدهم أن يقول : لسنا السبب . . فى داخل الحلوانى فرعون كان ينتظر الفرصة ليظهر من تلقاء نفسه . . ولكنه صمت عندما سمع حمص يقول للفخرانى :

ــ وأمثالك السبب . .

قال الفخرانى بسرعة :

ـ عشرى السبب . .

ضحك حمص :

ـ أراهن على أنك تحقد على عشرى لأن امرأة ذهبت إليه ولم تذهب إليك !

قال الفخرانى وقد شعر كما لو كان عاريا :

ـ أنا ؟ ! نساء كثيرات يجرين ورائى وأنا أرفضهن . . لا أحب أن أغضب الله . .

ثم أشار إلى الواقفين حوله وهو يقول :

ـ اسألهم يا عم حمص . .

ضحك الواقفون . . أحس الفخرانى كما لو كان يغرق فى ضحكاتهم . يريد أن يهرب من ضحكاتهم وفطومة فى حجرة عشرى والمعلم خارج الحارة والفرصة بيده . يحرض الناس على الأثم الذى يتجاسر على تقاليد الحارة ، وتنفعل الحارة وينضم إليها أجراء الوكالة الذين يكرهونه ويندفعون ويصعدون إلى حجرة عشرى . ويطرقون بابه ولا يفتح لهم فيحطمونه وتخرج فطومة . . ربما بقميص نومها . . وتقع عينه فى عينها وهم يرجمونها بغضبهم ويتقدم لإنقاذها من أيديهم فى الوقت المناسب . وتعرف أنه ليس من الرجال الذين يقبلون أن تصدهم امرأة !

ويصبح فى غمضة عين بطل حارة الحلوانى ويطرد المعلم عشرى ويرث نفوذه فى الوكالة فأسرع يقول لعم حمص :

ـ سأثبت لك أننى لست السبب . !

واندفع عائدا إلى الحارة . .

وكأن ذهاب الفخرانى رد للذين يلتفون حول عم حمص حريتهم فانفعلوا وبان التأثر على وجوههم وتذكروا أن كثيرا من الأجراء يعيشون فى ظروف لا إنسانية . . فقال أحدهم :

ـ ليس من العدل أن يمتص الحلوانى دماء الغلابة . !

وحرك آخر حبات مسبحته وهو يقول :

ـ ارحم عبيدك يارب . .

لوح حمص بقبضته فى وجوههم وكأنه يهددهم :

ـ الله لا يرحم من يرضى بالذل . .

ظهر جابر صبى الوكالة . يحمل فى صدره طعاما . ارتفعت نبرة صوت حمص وهو يشير إلى السماء :

ـ لا يغير إلا إذا غيرتم . .

نظر حمص خلفه ، كأنه يتوقع أن يجىء عشرى فى إثر جابر . لن يتركه يقترب منه هذه المرة . أبصر نظرة إشفاق فى بعض العيون فقال :

ـ لست خائفا !

قال أحد الواقفين :

ـ ربنا على المفترى !

وكأنهم تنبهوا بعد أن سمعوا هذه العبارة أن جابر صبى الوكالة يقف بينهم . سيخبر المعلم بالتفافهم حول حمص . ينبغى أن ينصرفوا . عز على أحدهم أن يترك حمص ينام على الرصيف فى برد الليل فقال :

— تعال لتنام عندى الليلة

علا صوت حمص :

— لن أنام إلا فى فرشتى . .

ناوله أحدهم شاله وهو يقول :

— ضعه على كتفيك يحميك من البرد . .

وانصرف الرجل وانصرفوا فى إثره . فتح حمص صدره لنسمة الهواء المنعشة . . لا يشعر بالقوة مثلما يشعر بها الآن . . كأن شباب عمره قد استيقظ فى عروقه فجأة . يستطيع أن يواجه ظلم الدنيا وكأن دماء جده الذى قتل برصاص الإنجليز فى ثورة ١٩ على باب دكانه فى حى الجمالية قد تفجرت فى شرايينه . رن فى رأسه سؤال : ما هو الفرق بين العسكرى الإنجليزى الذى قتل جده والمعلم الحلوانى الذى يمتص دماء الغلابة ؟ !

تنبه حمص بعد قليل إلى أن جابر لم ينصرف مع المنصرفين . يمتلىء وجهه بالدهشة . . لا يصدق أن عم حمص يحتمل قسوة عشرى ويقف مصلوب العود فى برد الليل.قال بدهشته :

— عم حمص ؟ !

وجد حمص نفسه يقول فى شىء من التحدى :

— قوى يا جابر . .

اختنق صوت جابر بالتأثر فقال :

— المعلم سيعود ولن يرضى . .

قاطعه بضحكته . . بدا كأنه يسخر مما يقوله جابر . . وكأن جابر يهرب من سخرية عم حمص بقوله :

— أدهم وخيس . .

وقبل أن يكمل عبارته قال حمص :

— قل لأدهم . . لا تجعل خيس يقترب من عشرى . . إنى أعرف كيف أواجه الشر وحدى ؟ . . خيس الزمن أمامه . . ليصنع الكثير . .

تنبه جابر إلى أن الطعام الذى أعدته فلة لعم حمص مازال فى صدره . . بدا لنفسه كأنه يريد أن يبقيه فى حضنه . . صنعته فلة بيديها . .

قال له عم حمص بشىء من الدهشة :

— تحمل لى طعاما ؟ !

— لا يمكن أن نتركك تجلس ـ هكذا ـ فى برد الليل دون أن تأكل . .

فتح حمص عينيه على اتساعهما ، كأنه يكتشف جابر فى هذه اللحظة . . فقال بنبرة رقيقة كأنه يعتذر له عن سوء الظن به :

— لا تخف على !

وجد جابر نفسه يقول :

— أنت شمعة الحارة يا عم حمص .

ضحك عم حمص من قلبه :

— ولن أنطفىء قبل أن أشهد نهايته :

شعر جابر بالحزن.يتحدث عن معلمه الحلوانى الذى يعيش على خيره . ويحس فى داخله بشىء غامض لا يفهمه . . هل يستطيع عشرى أن يفعل هذا الذى فعله دون أن يتأكد من أن المعلم يوافق عليه ؟ . . رأى

هذا الشيء الذى حيره فى عينى فلة وهى تناوله الطعام . . اختنق بهذا الشيء . . سمع عم حمص يقول :

ـ فلة التى صنعت لى هذا الطعام . . أعرفها طيبة !

وكأن ذكر اسم فلة كان يكفى لأن تنساب الدموع من عينيه . .

قال له عم حمص :

ـ لا تبك يا جابر . . الرجال لا يبكون . .

غالب جابر دموعه وهو يقول :

ـ كل يا عم حمص حتى لا أبكى !

ابتسم عم حمص ومد يده للطعام وقد تملكته رغبة فى أن يأكل ، كأن الأكل سيمد فى عمره ويجعله يعيش ليشهد انتصار الحارة على ظلم الحلوانى . .

●

لم يصدق الحلوانى نفسه . استقبله الفيروزى مرحبا . أدخله حجرة الاستقبال . دارت نظرته فى الحجرة . لا يصدق أنها حجرة استقبال الفيروزى أمير الصاغة . . حجرة بسيطة . تذكر القاعة الشرقية بقصره . انتفخت أوداجه . تأكد أن حلمه سيتحقق .

ستتزوج ابنته حبيبة من الفيروزى . شعر بأنه أصبح أميرا وهو يجلسه فى صدر المائدة ليتعشى معه . سيأمر باعداد مائدة أفخر منها . ينبغى أن يتفوق عليه بطعامه أيضا . تمهل فى دعوته لحفله . . يخاف أن يرفض . ينتظر فرصة سانحة . ضحك الفيروزى من قلبه على إثر نكتة رواها له . . فدعاه للحفلة . سأله الفيروزى :

ـ متى ؟ !

ـ ليلة الجمعة . .

ـ يشرفنى أن أحضر حفلتك يا حلوانى . .

طار الحلوانى بالفرحة . أراد أن يسمع عبارته مرة أخرى ليتأكد من أنه مازال طائرا فقال :

ـ ستحضر حفلتى فى قصرى ؟ !

قال الفيروزى ضاحكا :

ـ يحكون عن قصرك الأعاجيب ؟ !

فرصته . . يحدثه عن قصره الذى كان مملوكا لأمير من أمراء المماليك . وسيهديه لابنته حبيبة فى عيد زواجها . ولكنه وجد نفسه يغرق فى الصمت يبتلعه الشعور بعدم التصديق بأن الفيروزى قد قبل دعوته لحضور الحفل بهذه البساطة . تناول سيجارا من علبة أمامه . أشعله . أكل دخانه . سعل . دقت ساعة فى رأسه . انتصف الليل . ينبغى ألا يجرى الزمن أكثر من ذلك . يريد وقتا ليتحدث عن قصر الأمير . يتذكر كلمات المهندس الفنان الذى بعث الحياة فى القصر القديم . سحرته هذه الكلمات عندما سمعها . يريد أن يدير رأس هذا الرجل الذى يجلس على تل من الذهب فيسقط خاتما فى يد ابنته حبيبة . سمع ضحكة الفيروزى . سقط فى خوفه . خشى أن يكون وجهه قد وشى بما فى داخله . . تطلع إليه . أبصره مبتسما وهو يقول :

ـ ضحكت على العفاريب يا حلوانى ؟ !

وجد نفسه يقول :

ـ العفاريت هى التى ضحكت على . .

توقف الفيروزى عن الحديث . قدم له الحلوى الدمياطى . تبين وهو يمد يده ويتناول قطعة الحلوى أنه نطق بعبارة سخيفة لا معنى لها . لام نفسه . لا يجيد حديث الأثرياء . كان ينبغى أن ينتهز الفرصة ويحدثه عن الحكايات التى تروى عن قصره ، وما يردده العامة من أن العفاريت تسكنه وتحيء سيرة ابنته . راح يمضغ الحلوى فى بطء وكأن الإسراع فى مضغ الحلوى لن يعطيه الحق فى الجلوس فى حجرة استقبال الفيروزى أكثر من ذلك والتحدث عن قصره وابنته ، امتدت يده وتناول قطعة من الحلوى قبل أن يفرغ من مضغ القطعة التى فى فمه . ينبغى أن يستحضر عبارات المهندس الساحرة حتى يسحر الفيروزى . . ولكن ذاكرته لا تحفظ مثل هذه الكلمات . . تعى جيدا التراب وأنواع الحجارة وعدد الأجولة التى يملؤها بالمال . . ينبغى أن يلوى عنق ذاكرته لتتذكر الكلمات الساحرة . . هذه الكلمات ستقفز به إلى قمة جبل الذهب الذى يقف فوقه الفيروزى ويعترف به أثرياء الجمالية . . يهرس الحلوى بأسنانه وكأنه يهرس ذاكرته لتتذكر . . ينبغى أن تتذكر . . لا شىء فى هذه الدنيا يعانده . . ينبغى أن يجد الوقت ليرغمها على التذكر . . ولذا عندما سمع الفيروزى يدعوه لشرب فنجان شاى استجاب له وراح يمتدح الشاى الذى شربه فى أول الليل . يريد أن يبقى جالسا حتى تلين ذاكرته . سيطلب فنجان قهوة اذا لم تستجب له أثناء الشاى . لن يجعل فرصة عمره تفلت من يده من أجل عناد ذاكرة لا تريد أن تتذكر بضع كلمات . .

●

سقطت نظرة عشرى على بقية الحمام الذى أحضرته فطومة . جرت نظرته على جسدها وهى تمسك الملاءة اللف بيدها . تملكته رغبة وهو يسبح

فى دخانه أن يأكلها كالحمامة . مازالت بقية عظام الحمامة فى فمه .

قال وقد طار برغبته وهو يشير إلى مكان الحمامة الخالى :

ـ كانت هنا حمامة !

امتلأ بجسدها وهو يقول :

ـ أكلتها بعظامها !!

التفت فطومة بالملاءة اللف . بلغت شهوته جنونها وهو يراها بالملاءة السوداء .

قالت دون تفكير مسبق فى الذهاب :

ـ تأخرت . .

زحف بدخانه نحوها .

قالت فطومة :

ـ تصبح على خير . .

فتحت الباب . . تخيلها قادمة نحوه . . جذبها بجنونه . . ألقى بها على الكليم . . لم يبال بالفحم المشتعل الذى تناثر . . سقطت فى قاع جنونه . . سمع صوت سعاره !

قالت فطومة :

ـ افتح النافذة . .

كانت لا تريد . فى هذه اللحظة . سوى نسمة هواء !

●

شعر خميس وهو يخطو فى حارة الحلوانى بأن القمر يتبعه . يريد أن يشهد لحظة عودة عم حمص إلى دفء فرشته . تركه أدهم يذهب ليعيد الرجل الطيب إلى الحارة . لم ينتبه للوجوه التى كانت تنظر إلى نافذة عشرى المفتوحة فى خوف . كان يحس أنه يتجه ليحرر موقعا من قبضة الظلم . يسترد شيئا فقده فى أول الليل . أبصر عم حمص يقف وحيدا فى شارع الغورية . لم يجد شيئا يقوله سوى أن يترك جسده يذوب فى جسد الرجل الذى أنضجه الزمن . شعر أن حدود الجسدين قد تلاشت . . اتحد الجسدان . هذا الاتحاد جعل الخوف والبطش وعشرى أشياء لا معنى لها . الشىء الوحيد الذى كان له معنى . . أن يدخل عم حمص حارة الحلوانى مبتسما . ويعود إلى دكانه ويجمع الناس الذين تصادف وجودهم فى الحارة أشياء عم حمص المبعثرة ويعيدون ترتيبها . وتنطلق زغرودة فلة فى الحارة . .

●

رنت زغرودة فلة فى رأس عشرى كأنها انفجار . الحارة تنهار على رأسه . تلاشى للحظة . ضحك وهو يرى الناس يلتفون حول حمص وخميس . عرف أن الحارة لم تسقط فوق رأسه . وصله صوت فطومة من النافذة المفتوحة مع أنها كانت لاتزال راقدة على الكليم وهى تقول :

ــ تضحك ؟ . . ماذا حدث فى الحارة ؟ !

أحس بجسدها وراء ظهره . تريد أن ترى ما يجرى فى الحارة . تجسد له فى هذه اللحظة أنها لو رأت حمص فى الحارة فإن جسدها سيهزمه . ينبغى أن يمنعها من أن ترى حمص . الحارة تلتف حوله . دفعها بعنف بعيدا عن النافذة وهو يقول :

ــ يرونك يا مجنونة . . وأنت عارية !

لم تكن فطومة عارية . شعر بالخوف وهو يدفعها لتسقط على الكليم . تصور أن خميس سيقود الناس ويصعدون اليه ، ويخرجون فطومة بملابس النوم . وتصبح فضيحة وينهار القصر على رأسه . لقد أخبره طماوى منذ قليل أن الفخرانى أراد أن يحرض الحارة على الصعود إليه ولكن طماوى أفهمه أن المعلم سيغضب لأن عشرى رجله ، فخاف الفخرانى . لن يستطيع الطماوى أن يمنع خميس ، قال لها وقد خيل له أن أقداما تتدافع على درجات السلم الخشبى :

ــ ارتدى ملابسك بسرعة !

قال وهو يناولها الملاءة السوداء :

ــ لست خائفا . أخاف من صعاليك . سيدفعون ثمن عصيان الحلوانى . طردت حمص لأنه يتطاول على المعلم . ثمن خميس . . عصا تسقط على رأسه فى شجار وينتهى !

تجمدت فطومة فى جلستها على الكليم وهى تنظر إليه . ليس حبيبها الذى يتكلم . .

أسرع عشرى يغلق باب الحجرة بالمفتاح . .

●

احتسى الحلوانى فنجان القهوة الثانى . ولم تتذكر ذاكرته حديث المهندس الساحر . تهزمه ذاكرته لأنه يعاملها بقسوة . ينبغى أن يدللها . ربت بيده على رأسه . كأنه يدلل فرسا من جياده لم تستجب له . أبصر النوم فى عينى الفيروزى . ينبغى أن تنتهى الزيارة . اغتاظ . احتسى بقية فنجان القهوة دفعة واحدة . شعر بمرارة القهوة فى فمه . .

●

لا يعرف أحد من الأجراء متى جلس خميس تحت الشجرة ؟ سمعوا مزماره . لم يصدقوا أسماعهم . لم يسمعوا مزمار خميس منذ فترة طويلة . جرى أحدهم يخبرهم . . عم حمص يجلس تحت الشجرة . . وخميس يزمر وأدهم تمتلىء عيناه بالدموع . . ترك الراقدون رقدتهم والجالسون جلستهم . . واندفعوا . . لم يجدوا دموع أدهم . أبصروا شيئا من ضوء القمر فى عينيه . تطايرت بهجة المزمار فى الحارة . الخلاء الذى كانت تطل عليه الشجرة كان لا يتسع للمجتمعين ولكن فى لحظة مثل هذه اللحظات التى تتحول فيها النفوس إلى نغمات فى مزمار خميس يتسع المكان . وعندما تتلاحم أجساد الرجال يبدو أنه لا حاجة إلى مكان فسيح . أصبحوا نغمة واحدة فى مزمار خميس . لم يظهر عشرى . أبصر بعضهم فطومة تتسلل فى الظلام خارجة من بيت عشرى . توقع البعض أن يفتح عشرى نافذته ويصرخ . مضى الوقت . لم تفتح النافذة . لم يرتفع صوت عشرى . ارتفع صوت المزمار . بدا لهم القمر يتمايل فى سماه . والأجساد اتحدت فى جسد واحد . تفرقت بعض الأجساد . تفسح لحبيبة مكانا بجوار خميس وعم حمص وأدهم . وجهها شعاع من البهجة . يحبون البهجة فى الليلة التى يكون فيها القمر بدرا . والأحزان تتسلل من أرواحهم . يسكرون بالفرحة . امتلأت حبيبة بالنشوة . لم تكن فى حاجة إلى أن تسأل . عرفت الحكاية . وجه خميس يضىء بضوء القمر . ارتجف شىء فى داخلها . عرفت أن هذا الشىء له علاقة بعازف المزمار ، كأنه يجىء لها فى حلم . لم تفارقه لمحة عينيها . كأنها تخاف أن تغفو . ويطير الحلم . . تمايل عبد العال . ابنه يذكره بشبابه . . عندما كان يجلس على القناية ويلتفون حوله ويملأ الليل شجنا . قام طواوى يرقص . صفقوا له . نسوا أنه هو الذى طرد عم حمص . شاركه الفخرانى فى الرقص . ضجوا بالسعادة . دمعت عينا عم حمص . .

[١٣]

ظلت حبيبة ساهرة ، كأنها تخاف أن تغفو فيختفى ربيعها . التقت بربيع عمرها فى الليلة الماضية على نغمات مزمار خميس . بدت لها قلوب الناس حولها كالشموع . والقمر شاهدها . تركت فراشها . تريد أن تغتسل بندى الصباح الباكر . خرجت إلى الحديقة . مشت بين الزهور . أبصرت خميس يسقى أشجار حديقة القصر . جرت نظراتها تحتضنه . تريد أن تضع أيامها على صدره وتستريح . بوغت خميس بحبيبة تخرج من بين الأشجار . أوشك أن يصيبها برشاش الماء . أبعده عنها . اندفعت نحو الماء . شعر خميس بشىء يرف فى قلبه . . ربما الخوف من انه قد أصاب ابنة المعلم برشاش الماء . ضحكت حبيبة . قال لها وهو يخفض عينيه عن جلبابها المبتل :

ــ معذرة . .

تطلعت إليه . كأنها بنظرتها تقول له : لا معذرة فى الحب . .

اندفعت وأمسكت خرطوم الماء من يده . وأغرقته بالماء ، تريد أن يرفع رأسه وترى عينيه فى هذه اللحظة . نظر إليها . ضحكت . ضحك . شعرت أن ضحكته تعانق ضحكتها . لم يعد يشبعها هذا . تريد أن يمشى بجوارها . يجلس تحت الشجرة وتجلس أمامه . وتحدثه ويحدثها .

قالت له :

ــ أحك لى ؟ !

لم تقل له تعال لنجلس تحت الشجرة وتحدثنى كيف أعدت عم حمص

إلى الحارة ؟ أبصرته يمشى بجوارها . ويتجه إلى الشجرة . ويجلس تحت فروعها المتشابكة . وتجلس أمامه . ويتكلم . وتصغى إليه . بدا لها وهى تسمع زقزقة عصفور كأنها تصغى إلى حلمها . .

●

[١٤]

اندفعت كروانة خارجة من قصر الحلوانى ، تبحث عن أدهم . لم تنم الليل . حفل الحلوانى الليلة . وسترقص لأثرياء الجمالية فى زى جارية . كانت ترقص للحلوانى فى بعض الليالى امتنانا له . انتشلها من الموت جوعا فى الطريق عندما تهدمت الدار على رأس أسرتها . الدم يشتعل فى عروقها غضبا . لا تريد أن تلتهمها عيون التجار . ليست جارية . تجسد لها أدهم . فى رأسه دائما شىء ينقذها . طالما أخذها لعالمه الساحر . يحدثها عن قدرة الإنسان على مقاومة الطوفان إذا استطاع أن يعثر على نفسه . وبداية العثور على النفس المعرفة . يعرف من هو ؟ وهى لا تعرف اسمها ، حاولت أن تعرف . عجزت بمفردها . انتظرت مجىء المغنى الضرير الذى يعرف حكايتها . لم يأت منذ ذهب فى هذا الصباح . لو عرفت من هى ستدخل هذا العالم الساحر الذى يراه أدهم فى كتبه الكثيرة ، بدا لها وعيناها تدوران فى حارة الحلوانى أن أدهم ألقى بها فى بحر هائج وتركها تصارع الموج وحيدة . تشعر فى خطواتها أن الموج سيجرفها . . الليلة . . لن تستطيع أن تغالبه . البحر سيأخذها . ستغرق الليلة فى عيون التجار . لن تغرق . سمعت صوت أدهم يحدث العطار . اندفعت إلى شاطىء النجاة . دخلت دكان العطار . لهفة الغريق إلى نسمة هواء جعلتها تضحك بكل براءتها عندما التقت عيناها بعينى أدهم . قالت له بكل لهفتها :

ـ الحلوانى . .

كان يعرف أنه سيقيم حفلته الليلة . وأن زبيدة أعدت لها رداء جارية . . وأنها سترقص للتجار . . أراد أن يقول لها :

– لن أعرفك بعد الليلة !

ولكنه قال لها يعيرها :

– رقصتى له من قبل . .

أرادت أن تقول له : رقصت له من أجل أن يجعلك تتم تعليمك فى الجامعة . .

ولكنها قالت :

– رقصت له لأنه فى منزلة أبى . .

قال بكل غضبه :

– تخدعين نفسك . .

شعرت كروانة أنها تسقط فى جب . لم تسمع عبارته « الحلوانى ليس أباك » . حبيبها أدهم القادمة إليه لينقذها من الغرق . . يدفعها إلى قاع جب . كأنها أرادت ألا يراها وهى تغوص فى القاع . اندفعت خارجة من دكان العطار . لم تكن تعرف إلى أين تحملها خطواتها . . ولكن خطواتها كانت تحملها إلى قصر الحلوانى . . !

●

[١٥]

نهق حمار عربة تقف أمام دكان الحلوانى . سقط جوال الفول من يدى العطار . لعن العطار الحمار . أرجع توتر أعصابه هذا الصباح لسماع صوت الحمار . استولت عليه فكرة إعادة ترتيب دكانه عندما أبصر دار الحلوانى تتزين . أهمل دكانه منذ فترة . يريد أن يفرغ من ترتيب دكانه بسرعة ويتفرغ لمتابعة الحركة التى امتلأت بها الحارة هذا الصباح . لا يريد لشىء أن يضيع من نظره . حفل الحلوانى الليلة . انتظر أن يدعوه ولكن الحلوانى تجاهل دعوته . تودد إليه فى الأيام الماضية . لم ينجح تودده فى أن يجعل المعلم يرسل له دعوة مطبوعة بماء الذهب كالتى أرسلها لأثرياء الجمالية . بدت له هذه الدعوة وهو يدفع جوال الفول المائل ليعتدل مسألة مصيرية . أخبرته فلة بأن الحلوانى قال : لن يدعو فقيرا لحفلته . يعتبره من فقراء الجمالية لأنه يقف فى دكانه يبيع العطارة بنفسه . أبوه أوصاه ألا يترك دكانه . قال له : الثروة طائر غريب لو غفل عنه لحظة طار من بين يديه . دفع جوال الفول بقدمه . تذكر عندما أكله القلق فى الليل . وقام إلى صندوقه وأخرج أوراقه القديمة . وأحصى قراريطه . تبين أنه يملك كثيرا . أصبح غنيا . طار النوم من عينيه . . ذهب إلى فلة فى الصباح الباكر . طلب منها أن تذهب إلى امرأة الحلوانى ولا تتركها الا إذا أقنعت زوجها بدعوته . يعرف تأثير امرأة المعلم عليه . أبصر النمل يدخل دكانه . تهلل وجهه بالفرحة . يتفاءل بالنمل . ستنجح فلة فى مهمتها . وصله صوت موال يحبه . ردده بصوت خفيض ما لبث أن ارتفع . أشعل بخورا . استنشق رائحته . شعر بقوة تسرى فى بدنه . حمل جوالا أكبر من الجوال الذى سقط من بين يديه . وضعه فى عتبة الدكان .

أبصر دار الحلوانى قد تزينت بالأنوار . تملكه الغضب . يكرهها . هذه الدار سبب تكبر الحلوانى عليه . يريد أن يغمض عينيه ويفتحها ولا يرى هذه الدار . . ولكن الدار مازالت قائمة وتزدان . تملكته فكرته . . يغافل الحلوانى ويأخذ الدار منه . ينتهز إسرافه ويدخر . يضع الجنيه فوق الجنيه . ويترقب غدر الزمن بالحلوانى . فالقدر يعطى ليأخذ . . هذا ما علمته له الأيام . ويمتلك القصر ويتزوج أخت الفيروزى أمير الصاغة . أفرغ ما تبقى فى قارورة عطر على يديه . مسح وجهه . شعر بالانتعاش . أضيئت الدار بالأنوار المبهجة . هللت الصبية . تهلل كصبى . هذه الدار التى تهلل لها الصبية ستصبح فى يوم قريب قصره . انطفأت الأنوار فجأة . سقطت عيناه على امرأة تعبر الحارة . يتشاءم من رؤية وجهها . دخل دكانه مسرعا .. أبصر الدرج الذى يضع فيه حصيلة بيع يومه مفتوحا . أمسك الجنيهات بقبضة يده . أبصر المرأة تقف على عتبة الدكان . ألقى بالجنيهات فى الدرج وأغلقه بسرعة . وأشاح بوجهه عنها . عادت الأنوار إلى دار الحلوانى . ابتسم . . سمع المرأة تقول بفرحتها : حميدة ابنتى ستتزوج ليلة الجمعة . .

تذكر حميدة . قالت المرأة :

— أوصتنى أن أشترى شمع زفافها من عندك . .

توقفت الكلمات التى كانت على طرف لسانه : لن أبيع هذا الصباح . .

خيل له أنه يسمع صوت حميدة والمرأة تقول حميدة تدعوك لعرسها . امتلأت عيناه بوجه حميدة الصبوح . يرتاح لرؤية عينيها السوداوين . .

أشارت المرأة إلى الشمع المعلق فوق رأسه وهى تقول : تريد حميدة من هذا الشمع يا معلم . .

بدا له أنه لو مد يده إلى الشمع القريب من يده وأعطاه لها فلن يعطى الحلوانى فلة بطاقة الدعوة الذهبية . . ولن يحصل على اعتراف أثرياء الجمالية بأنه قد خرج من طائفة المعلمين . .

أراد أن يقول لها : اذهبى وسأرسل لحميدة شمع زفافها ، ولكنه فطن إلى أنه ما دام سيتحدث ويناولها الشمع فسيرى وجهها ولن يذهب إلى حفل الحلوانى . ابتلع كلماته . سقطت نظرته على باب المخزن . يسرع إلى المخزن ولا يخرج منه إلا إذا غادرت هذه المرأة النحس دكانه . . ولكنه ظل واقفا فى مكانه . . سعلت المرأة . . وكأن سعالها دفعه ليسرع الخطو إلى داخل المخزن . . أحس بالراحة وهو يقف داخل مخزنه رغم عدم ترتيبه . ستجىء فلة بعد قليل ببطاقة الدعوة . يملأ الدكان بخورا ويطرد العين الشريرة . بحث عن البخور فى المخزن . لم يجده . تذكر أنه لم يعد فى المخزن بخور . تضايق . جلس على صندوق . نظر فى ساعته . الزمن يجرى . لم يبع كثيرا هذا الصباح . تعجل خروج المرأة . زعق . وصله صوت المرأة . سأعود فى المساء . سمع صوت خطواتها وهى تغادر الدكان . خرج من المخزن . شعر كأن شيئا قد انزاح من على صدره ضحك . لن يكون فى دكانه فى المساء . سيكون فى بيته يغتسل ليذهب إلى حفل الحلوانى . رش الدكان . تذكر أنه كان متجهما منذ فتح دكانه فى الصباح الباكر . ابتسامته هى التى تجىء بزبائنه . يشعر فى بعض الأحيان أنه لا يبيع العطارة ولكنه يبيع ابتسامته . ابتسم وهو يتحسس حافظة نقوده المتضخمة . سمع ضحكة طلقة . قال ونظرته تقع على وجه جميل : صباح السعد . .

قالت الفتاة بجرأة : صباح الفل .

رمقها بنظرة . بدا له من نظرته أنه قد نسيها قالت :

— لا تعرفنى يا معلم ؟ !

صاح بدهشته :

— مشمشة ابنة حسنية !

مالت بصدرها الممتلىء .

قال :

— كبرت يا ملعونة !

— وأنت لم تكبر . .

شعر بالسعادة . . قالت :

— أمى تريد التحويجة . .

ثم ضحكت . ضحك العطار . يجيد صناعة ما تطلبه النساء . أوشك أن يقول لها : اجلسى حتى أعد لك ما تطلبه أمك . . ولكنها جلست على المقعد قبل أن يطلب منها ذلك . شعر برغبة فى أن تبقى طويلا . ارتاح لشقاوتها . قال لها :

— تشربين حلبة ؟

قالت :

— قهوة . .

قال ضاحكا :

— نسيت أن البنت الصغيرة قد كبرت !

امتدت يده إلى صندوق القهوة . دخلت صبية فى إثر أخرى . . وما لبث أن اكتظ دكانه بالصبايا . . تضاحكن حوله . شعر بإقبال الدنيا

حوله . تذكر فلة . ستحمل له دعوة الحلوانى بعد قليل . يقرؤها بصوت عال . وينتشر الخبر فى حارة الحلوانى . ويصبح حديث البيوت . تطلع ببصره فى اتجاه حارة الحلوانى . . يريد أن يرى فلة وهى مقبلة عليه . فارت القهوة . وخرج إلى عتبة الدكان . أبصر فلة تخرج من باب الوكالة . أوشك أن يندفع نحوها ليأخذ الدعوة . ولكنه توقف . . من الأفضل أن ينتظرها فى دكانه حتى تجىء وتعطيه الدعوة أمام الصبايا . أبصرته فلة يقف على عتبة الدكان . ينتظرها كما توقعت . شعرت بحرارة جسدها . أرادت أن تطيل فترة انتظاره . أبصرت أم حميدة تطل من نافذتها فى الدور الأرضى . اتجهت إليها تسألها عن أخبار زفاف حميدة . شكت لها العطار . لم يعطها شمع الزفاف وتركها واقفة ونزل المخزن . طيبت خاطرها . لا تريد أن يغضب أحد من حبيبها . ينبغى ألا يتوقف حديثها . تحكى لها ما رأته فى قصر الحلوانى من استعدادات الليلة الساهرة . توقعت أن ينادى عليها بصوت عال . وتسمعه الحارة وتعرف أنه لا يطيق أن تبتعد عنه . استمرت تحكى . تبالغ كعادتها . وجدت فيما رأته فى قصر الحلوانى هذا الصباح فرصتها لتشبع رغبتها فى المبالغة . بالغت كثيرا . ولم يصلها صياح العطار عليها . التفتت نحوه . لم تجده واقفا على باب الدكان كما أبصرته عندما خرجت من قصر الحلوانى . تضايقت . أخفت ضيقها فى ابتسامتها وهى تقول لأم حميدة : تضايق لأنى تركته على باب الدكان وتحدثت معك . تنبهت وهى تلم الملاءة حول جسدها فى عصبية إلى أنه لا ينبغى أن تراها الفتيات اللائى يزدحم بهن دكانه غاضبة . تكره الصغيرات . يشعرنها بثقل الزمن عندما يمر على امرأة وحيدة . تمالكت عصبيتها . علمتها الأيام أن تبتلع آلامها . أبصرت أدهم . استوقفته . ارتبك . كأن عصبيتها المكتومة انطلقت فى ضحكة رنانة . داهمها الخوف . تعرف أن العطار يكره ضحكتها الرنانة فى الحارة . ما لبثت أن تمنت أن يخرج غاضبا . مشى

أدهم . كان متعجلا . لم يخرج العطار غاضبا . وصلها صوت ضحكات الفتيات من الدكان . اضطربت خطواتها . دخلت الدكان . أبصرت مشمشة تجلس على المقعد الذى لا تحب أن يجلس عليه غيرها . امتلأ صوتها بالغضب وهى تقول :

ـ المعلم رفض . .

مد العطار يده كأنه لم يسمع شيئا ، ليتناول الدعوة . اتجهت فلة بنظرتها إلى مشمشة ، توقعت أن تجدها مرتبكة ، أبصرتها ضاحكة . شعرت بالغيظ . قالت للعطار كما لو كان هو المسئول عن غيظها :

ـ الحلوانى رفض أن يدعوك . .

تصور العطار أنها تغيظه لأنه قدم فنجان قهوة لمشمشة . . أراد أن يقول لفلة . لا تغضبى . . سأصب لك فنجان قهوة . . ولكنه وجد نفسه يتوجه لمشمشة بالحديث ويقول لها :

ـ سلمى على أمك . . وأخبريها بأنى سأعد لها ما طلبت . .

فهمت مشمشة أنه يريدها أن تنصرف لتهدأ فلة فضحكت فى شقاوة وهى تنصرف . لم تستطع بعض الصبايا اللائى ما زلن يقفن فى انتظار أن يعطيهن ما طلبن أن يكتمن ضحكاتهن . تجاهل العطار ضحكات الصبايا . صب فنجان قهوة لفلة . مد يده به إليها . أرادت ألا تتناوله منه . . ولكن عندما وقعت عيناها فى عينيه الكحيلتين . وجدت يدها تمتد إليه وتتناول فنجان القهوة . تمنت فى هذه اللحظة لو أن الحلوانى قد وافق على دعوته . سمعته يضحك ساخرا وهو يقول لزوجته : أدعو صعلوكا مع الملوك . تجسدت لها الإهانة والعطار يقول لها بنعومته : فنجان قهوة من يد العطار . .

شعرت بأنها قد ذابت فى عبارته . كأنها لم تجد شيئا تعبر به عن هذه اللحظة سوى أن تدس يدها فى صدرها . توقع العطار أن تخرج الدعوة من صدرها . تحتفظ بالأشياء العزيزة دائما فى صدرها . ولكنها أخرجت منديلا . تأكد العطار من أن الحلوانى قد رفض دعوته . وجد نفسه يصرخ :

ـ قلت لك لا تذهبى ؟ !

كأنها أخرجت منديلها لتمسح دمعة ستفر من عينيها . خيل له أنها ستبكى . اشتعل غضبه :

ـ أرفض دعوة نخاس . .

أحست بالخوف عليه . . ارتفع صوته :

ـ لا أخاف الحلوانى !

شعرت بأنها قد تسببت فى غضبه . امتلأ وجهها بالحنان . تريد أن تبتلع غضبه . تخاف عليه من بطش الحلوانى . الحلوانى لا يحبه . وجدران الحارة لها آذان . والحلوانى يسمع همس الجدران . .

انصرفت صبية مسرعة . تصورت للحظة أنها ذهبت لتخبر أباها الذى يعمل عند الحلوانى ويخبر الرجل المعلم . أرادت أن تخبره بما تصورت . . ولكن بعض الزبائن دخلوا .

صاح فى انفعال وهو يشير إلى قصر الحلوانى :

ـ تاجر التراب لا يخيفنى !

أصيبت بالارتباك . . لم تعد تعرف ماذا تفعل لتجعله يهدأ ؟! كفت عن الحركة اندفع العطار فى عصبية إلى خزينته التى فى صدر الدكان وفتحها . ظهرت أوراقه المالية المكدسة . قال فى شىء من التحدى :

— لست فقيرا يا فلة كما تعتقدين . .

كان يريد أن يقول : كما يعتقد الحلوانى . لم يصحح عبارته . لاذت فلة بصمتها . تعرف أنه أخطأ التعبير . راقبت نظرات الواقفين فى الدكان . تخاف على أمواله من عيونهم . .

قالت صبية :

— كيلو مغات يا معلم . .

ضحك العطار . كأنها انتهزت فرصة ضحكة العطار ودفعت باب الخزينة . لم تغلقه تماما .

قال العطار بصوت بدا فيه أنه ارتاح لحركة فلة :

— كنت أريد أن يرسل لى الدعوة ولا أذهب . . أريد أن يعرف ان العطار لا يذهب إلى حفل يؤكل فيه لحم الفقراء !

كأن لحم الفقـراء لحمهـا . تحسست صدرهـا الـذى ما زال يحتفظ بجماله . أحست بآثار قبضات زوجها شندى سائق العربة الحنطور عليه . طالما اعتصر صدرها . كان يجىء فى الليل مخدرا . ويلتهم لحمها على ضوء المصبـاح الغـازى . سمعت العطار يقول : سأقيم حفلا : قفزت زوجة الحلوانى إلى عينيهـا . ستصبح زوجة . ويقيم زوجها حفلا . أحكمت إغـلاق باب الخـزينـة . شعـرت بالسعـادة . حلقت مع حلم حياتها . لم تسمـع عبـارتـه : سأدعو كل الجالية ولن أدعو الحلوانى . . ذابت فى حلمهـا بروحهـا . ستكون زوجة للمعلم العطار . لن تذهب إلى حفل الحلوانى لتخدم الليلة . زوجة المعلم لا تخدم .

قالت فى نبرة تشى برغبتها فى أن تودع أيام الخدمة :

— لن أذهب . .

فهم العطار أن امرأة الحلوانى قد دعتها لحضور الحفل . قال ضاحكا :

— يريدون خدماتك . .

نظرت إليه تريد أن تعاتبه . أبصرته قد انصرف عنها بنظراته إلى دار الحلوانى التى كانت مضاءة فى هذه اللحظة . قال العطار لنفسه : يهزمنى الليلة ولـكنى سأهزمه فى الأيام القادمة . . ينبغى ألا تنام عينى عنه . . أعرف كل شىء فى حفلته . .

اتجه إلى فلة وهو يحمل قرطاس المغات بيده وقال لها بلهجة آمرة :

— اذهبى . .

— لن أذهب . .

ضحك العطار . كأن ضحكته ردتها للواقع . تعرف أن ثمن اهتمامه بها هو ثمن تجسسهـا على بيوت الجالية وخاصة قصر الحلوانى . شعرت برغبة فى التمرد . . أرادت أن تقول له لن أتجسس لك بعد الآن !!

ولـكن عينيهـا وقعتـا على صدر الفتـاة النـافـر التى تناولت قرطاس المغات . فطنت إلى أن الزمن يجرى من بين أصابعها . صحيح أنها ما زالت تحتفظ ببعض جمالها . تستعين بالوصفات البلدية . تحاول أن تجمع بقايا أنوثتها التى اهتصرها شندى . تحرص على أن تدفن هذه الليالى فى سرداب عمرها . . وقعت عيناها على المرآة التى يضعها العطار أمامه . إنخطف قلبهـا وضع عليها الـكبر . لم تخف الزمن هذا الصباح فى زينة وجهها . استجـابت لرغبـة العـطار . وذهبت مسرعـة إلى قصر الحلوانى دون أن تتزين . أشاحت بوجهها عن العطار . لا ينبغى أن يرى وجهها شاحبا .

أرادت أن تقول : ما دامت هذه رغبتك سأذهب . . ولكنها قالت :

ـ حاضر . .

شعرت بالهزيمة .

لم يكن ينظر إليها . كان ينظر إلى قصر الحلوانى وهو يقول :

ـ أريد أن أعرف كل شىء عن حفل هذا النخاس . .

انطفأت أنوار قصر الحلوانى التى كانت تتوهج منذ قليل فضحك . . شعرت برغبة فى البكاء وهو يقول :

ـ كل شىء يا فلة . . . يا حبيبتى !!

●

[١٦]

تحول الليل إلى نهار فى حارة الحلوانى يحتفل المعلم الحلوانى بافتتاح قصره . ليلة عمره . ارتدى الكشمير . وضع عباءة موشاة بالذهب على كتفيه . وقف على باب قصره . تنسم نسمة حملت رائحة فل حديقته . دغدغته نشوة النصر . سيستقبل أثرياء حى الجمالية بعد قليل . يلبون دعوته . بدا لنفسه كأنه يحلم . صار واحدا منهم . أمضى عمره ينتظر هذه اللحظة . أطبق أصابع يده كأنه يمسك اللحظة بقبضة يده الخشنة . أبصر العطار واقفا فى دكانه . يأكله بحسده . شعر بالسعادة . حدق قصره الغارق فى أنواره بنظرة رضاء . شعر بدفء الكشمير فى ليل القاهرة البارد . تحسس مسبحته . كل شىء جرى كما أراد . غرس أدهم كل حديقته زهورا . وعشرى يجرى تحت قدميه . تجاهل أنه استقبل امرأة فى حجرته . ليس الآن وقت الحساب . المهندس الذى بعث الحياة فى جدران القصر المهجور ينتظر ضيوفه فى البهو بحكاياته . أنيسة زوجته اقتنعت بالجلوس فى حجرتها . وكروانة التى أحسنت زبيدة إعدادها سترقص لضيوفه حتى الصباح . سيعيشون ليلة من ألف ليلة . يحلم بليالى بغداد . . عندما كانت الجوارى تباع فى الأسواق . لو استطاع أن يختار لحظة ميلاده لاختار أن يولد فى عصر الجوارى . الآن أصبح غنيا . بالمال يشترى الماضى . وصله أذان العشاء قادما من مسجد الحسين . أدارت أصابعه حبات المسبحة . يحمد الله على نعمته . سمع ضحكة العطار . أحس بأن الوقت يجرى . لم يأت أحد . توقفت حبات المسبحة بين أصابعه . نظر فى اتجاه دكان العطار . خالجه الشعور للحظة بأن ضيوفه اتفقوا على عدم تلبية دعوته وأن العطار يعرف أنهم لا يعترفون به ندا لهم .

يسخرون من تجارته . يطلقون عليه بائع التراب . ضغط على حبات المسبحة . ماذا سيكون موقفه فى حارته لو مضت الليلة دون أن يلبى أحد دعوته ؟ ! سيجعله العطار سخرية فى الأفواه . أحس بغلطته لأنه لم يستجب لرغبة زوجته فى دعوة العطار لحضور حفلته ، لا يريد أن يراه أحد من حارته وهو عار . سيخلع كل أثوابه الليلة ويلقى بنفسه فى بحر اللذة ويرتوى ويعوض أياما لم يذق فيها سوى طعم التراب . لا يريد لعيون الفقراء أن تفسد عليه ليلته . . وجوه الفقراء تذكره بفقره وخاصة وجه العطار . اشتعل قصره المضاء فى عينيه . من يملك هذا القصر لا ينبغى أن يشعر بأنه قد أخطأ . لم يعد يخطىء . نظر فى وجه عشرى . توقع عشرى أن يسمع لوما لأنه استقبل فطومة فى حجرته . شعر بالخوف . أبصر الحلوانى الخوف فى عينى عشرى . ارتدت نظراته إلى القصر الذى يتلألأ . لم يعد يخاف مثل هذا الصعلوك . سمع ضحكة العطار عالية . سقطت المسبحة من بين أصابعه . انحنى عشرى بسرعة والتقطها من على الأرض ومسحها بملابسه . تناولها المعلم منه بسرعة . حرك حباتها فى عصبية كأنه يريد أن ينسى أن يده قد ارتعشت . أحس أن وقفته قد طالت . الفيروزى وعده بأن يأتى مبكرا . لم يأت بعد . سيصبح أضحوكة فى أفواه الحارة التى لا تحبه . يكرهون أن يملك قصرا ولا يصنعون شيئا ليتركوا حجراتهم المظلمة . لا يغتنون ولا يريدون لأحد أن يغتنى . شعر بالحذاء الإيطالى الجديد يضغط على أصابع قدميه . سمع صوتا يردد : يا رب يامتجلى أهلك العثمانلى . دارت نظراته تبحث عن صاحب الصوت . لم يجد أحدا . شعر بكراهية عميقة للبيوت القديمة . يريد أن يهدم هذه البيوت فوق رؤوس أصحابها . تخيل أن هذه البيوت قد هدمت وتحولت إلى بستان يزرعه أدهم زهورا . فكر فى أن يخطو عدة خطوات نحو دكان العطار . ويعاتبه لأنه يتركه واقفا وحده يستقبل ضيوف الحارة . ويقول له : لست

غريبا لتنتظر دعوة منى ، ويفتح قصره لأهل الحارة . ويبدو بطلا فى عينى أدهم . شعر بالغم . يكره أن يكون بطلا بين الصعاليك . يريد أن يكون ثريا بين الأثرياء . فوجىء بعربة الفيروزى تدخل الحارة . ارتبك . وقفت العربة أمام البوابة . أسرع عشرى وفتح باب العربة السوداء . لم يصدق الحلوانى عينيه . الفيروزى ينزل من عربته . أسرع وفتح ذراعيه . يريد أن يحتضنه كصديق حميم . تنبه إلى أنه لم يتقدم نحوه . اندفع . قال له بصوت بدا فيه ارتباكه وهو يحتضنه :

ــ عرفت أننى أملك الآن قصرا !

ضحك الفيروزى من القلب . احتوى الفيروزى القصر بنظرة إعجاب وقال له ببشاشته :

ــ فرح فى حارة الحلوانى ؟ !

قال الحلوانى :

ــ لأن الفيروزى قد زارنا !

ضحك الفيروزى . كان الحلوانى يريد أن تطول وقفة الفيروزى أمير الصاغة أمام باب قصره وتتجمع الحارة وترى أمير الصاغة وهو يضحك معه أمام قصره . . ولكن الفيروزى أسرع ودخل قبل أن تتجمع كل الحارة . ودخل الحلوانى فى إثره . فاته أن ينظر فى إتجاه دكان العطار ليرى انفعالات وجهه فى هذه اللحظة . شعر الحلوانى والفيروزى يمشى بجواره فى حديقة قصره بأنه لا يمشى على الأرض . يطير . أمسك ذراع الفيروزى ، كأنه يريد أن يتأكد من أن أمير الصاغة يمشى إلى جواره . طفرت ابنته حبيبة إلى عينيه . يريد أن يراها الآن لترى أمير الصاغة وهو يتباسط مع أبيها . دقق فى المشربية التى أبصر حبيبة تنظر منها مرة . خيل له للحظة أنها تنظر إليهما . هرول عشرى إليه يعلن قدوم الضيوف . الأثرياء يتوافدون على

قصره . بدا لنفسه كعريس وأثرياء الجمالية جاءوا ليزفوه للثراء . يريد أن يجلس على قمة الثراء . يعوض سنوات الحرمان وسنوات الحرمان طويلة . يمد يده . أصحاب الملايين يتسابقون إلى مصافحته . طافت نظرته فى الحديقة كأنه سيبصر حبيبة تخرج من وراء شجرة . لا يريد الآن سوى أن يرى ابنته . يطلب من عشرى أن يبحث عن حبيبة . سيتمهل فى إدخالهم القصر حتى تجىء حبيبة . لا يمكن أن تتركه فى هذه اللحظة . فوجىء بالفيروزى يدخل القصر . والمهندس يتكلم ، تضايق من المهندس . نبرته فاترة . الدم يجرى فى عروقه حارا ، شعر بآخر . فكر فى أن يخلع العباءة . ارتفع صوت المهندس يروى تاريخ القصر . أحس بوقع نظرته عليه . كأنه أصبح التاريخ ، والتاريخ له مذاق الخمر المعتقة . رؤوس الأثرياء تدور حوله . دار رأسه كأنه اكتشف فى هذه اللحظة أن له جدا تركيا . أورثه هذا القصر . لاح فى رأسه الباشا محمد على الذى دعا أمراء المماليك إلى العشاء وذبحهم . طافت نظرته فى وجوه الأثرياء . سيذبحهم الليلة بطريقته وليس بطريقة جده الأكبر . علمه التراب الكثير . أصبح ينطق بالحكمة . عندما وصل إلى نهاية درجات السلم الرخامى شعر بالحكمة تجرى على شفتيه . لم يستطع أن يوقف حديث الحكمة . تكلم . . . أصحاب الملايين يصمتون . لم يصمت المهندس . علا صوته كأنه يزجر المهندس على حديثه . صمت المهندس . تكلم الحلوانى بصوت خفيض . الصوت الخفيض يزيد الحكمة مهابة . توقفوا عن الهمس . لن يدخلهم القاعة الشرقية ليجلسوا . . . ينبغى أن يقفوا هكذا طويلا . يتحدث ويسمعونه . يدفعون ثمن رفضهم لأن يدخل فى زمرتهم . عذبوه كثيرا . دارت نظرته فى وجوههم . بدا له كما لو كان يستعرض جيشا جاء ليستسلم . أبصر شبانة تاجر الفضة يرتدى الملابس البيضاء . يعرف أنه يكرهه . وجد نفسه يقول له :

ـ ترفع العلم الأبيض ؟ !

ارتج على شبانة . ضحك الفيروزى . فضحك الواقفون

قال الفيروزى وهو يمسك الحلوانى من ذراعه :

ـ لا أذكر أنى قد حسدت أحدا فى حياتى ولكنك تجبرنى يا حلوانى على أن أحسدك !!

وجد الحلوانى نفسه يقول :

ـ الذهب يا فيروزى يحسد التراب ؟ !

قال شبانة ضاحكا :

ـ نحن فى عصر التراب ؟ !

ضجوا بالضحك . خيل للحلوانى أن جدران قصره قد شاركتهم الضحك . شعر بفرحة غامرة . يعترفون بأنهم يعيشون فى عصر الحلوانى . . تقدمهم . . أصبح من حقه أن يتقدمهم . دفع باب القاعة الذهبى . تنبه وهم يدخلون أن حمادة العصفورى لم يأت بعد . وقفوا يتفحصون القاعة الذهبية . أبصر الحلوانى الدهشة فى عيونهم ذهولا . . قال ضاحكا :

ـ أتعبكم المهندس بحديثه ؟ !

رغم أن المهندس كان قد صمت منذ أن بدأ الحلوانى حديثه . قال الفيروزى مجاملا :

ـ حديث قصر الحلوانى لا يتعب !!

قال الحلوانى :

— تفضلوا بالجلوس . .

جلسوا ولكن عيونهم لم تجلس . ظلت تروح وتجىء فى القاعة الذهبية . . قال أحد تجار خان الخليلى :

— لم نكن نعرف أنك ناصح هكذا يا حلوانى . . هذا القصر ظل مهجورا لسنوات طويلة والناس تخاف الاقتراب منه لان الأرواح الشريرة تسكنه . .

قال شبانه :

— تقصد الحلوانى وعياله ؟ !

قال الحلوانى وهو يشير إليه :

— لا تنس صاحبى العزيز من فضلك . .

ارتبك شبانة للحظة . انفجر الجالسون بالضحك .

قال المهندس بجدية :

— الروح الشريرة . .

لم يدعه شبانة يكمل عبارته وقال :

— كم أعطاك الحلوانى لتدافع عنه ؟ !

أرتج على المهندس . تضايق الحلوانى وشبانة يقول ضاحكا :

— أعطاك حفنة من التراب ؟ !

وتألق الضحك فى القاعة الذهبية ذات الضوء الخافت .

قال الفيروزى فى سعادة :

— أين أقداحك يا حلوانى ؟ !

شعر الأجراء الذين يفترشون أرض الوكالة بأن شيئا فى القصر غير عادى . أبصروا القصر قد اشتعل بالأنوار والباب الذى يؤدى إلى قصر المعلم — من ناحيتهم — قد أغلق . أغلقه عشرى قبل موعده المعتاد بكثير .

قال أحدهم :

— لابد أن ابنة المعلم ستتزوج . .

فرح البعض . يحبون حبيبة . كثيرا ما تأتى للوكالة وتتحدث معهم وتسأل عن أحوالهم وتجلس مع خميس عبد العال تحت الشجرة . . ولكن الذين هبطوا الوكالة فى الصباح لا يعرفون حبيبة . . فاكتفوا بهز الرءوس . . لا يريدون أن يشغلهم شىء عن التفكير فى الرحيل إلى بلاد البترول . يتعجلون السفر وشراء المسجلات والعودة إلى أولادهم بالمال . ازدادت الحركة حولهم فى الوكالة . شعر البعض بالتوجس . دارت عيونهم تبحث عن الشاب الأسمر . ارتاحوا إليه عندما رأوه فى الصباح . يريدون أن يسألوا عنه . . سمعوا أحدهم يناديه بأدهم . . ولكنهم لم يتعودوا على السؤال . لاذوا بصمتهم ، قال أحدهم وهو يلف سيجارته :

— الليلة مولد . .

ثم انكمش مع أبناء بلدته الذين يلتفون حوله . رفع رأسه فى حذر ليرى القادم نحوه . بدا له كبهلوان وهو يقول :

— أنا ولد الطهاوى . . خولى . .

ابتلع طهاوى عبارة « وكالة الحلوانى » مع ريقه . خاف أن يسمعها أحد من الوجوه الغريبة التى لا يعرفها وينقلها إلى عشرى فيبطش به ويطرده كما طرد عم حمص ولا يجد من يعيده للوكالة فهز كرشه ، كأنه بهذه الهزة يخفى خوفه .

ضحك بعض الأجراء الذين اعتدلوا فى جلستهم . . يريدون أن يستمتعوا بحركات الرجل المضحكة . .

تحسس طهاوى بيده المخدر المغشوش فى جيبه يريد أن ينتهز فرصة مولد الليلة ويبيعه للذين هبطوا الوكالة هذا الصباح . لابد أن يتفوق على معلمه عشرى . فقال وقد كسا وجهه بالغضب :

ـ ممنوع الضحك . .

تجمدت الضحكات على شفاههم . . ولكنه سمع ضحكة يعرفها . دقق بنظره الضعيف . أبصر خميس جالسا . كان هو صاحب الضحكة . اغتاظ من نفسه لأنه لم ير خميس رغم أن نظراته قد دارت أكثر من مرة ليتأكد أنه ليس موجودا بين الأجراء . فقد كان يرحب بهم منذ قليل . ضحك نصف ضحكة كأنه بها يتيح لنفسه فرصة للتفكير . . كيف يتخلص من خميس حتى لا تفلت من يده فرصة الليلة ؟!

قـال :

ـ البطل هنا . .

ثم قال بصوت خفيض :

ـ المعلم يريدك . .

وكأنه سمع صوت خميس يقول بنبرة قاطعة :

ـ لن أذهب . .

فقال بصوت عال :

ـ فى ليلة كهذه لابد أن يكون خميس بين المدعوين فى قاعة المعلم الذهبية . . مكانك ليس بين .

وأشار إلى الأجراء بشىء من الاحتقار . .

وقف خميس . وضح لطهاوى أنه سيضربه . قال بذعره :

ـ كنت أضحك يا سى خميس . . هؤلاء أهلى . . وأنا واحد منهم . .

سمع ضحكة . التفت إلى الأجراء . حرك حاجبيه وهو يقول :

ـ ممنوع الضحك . . انت وهو . . بأمر السلطان . .

خيل لطهاوى أن خميس قد ضحك فقال :

ـ السلطان يستقبل فى قصره الأمراء . . ولا يريد صوتا يزعجه . .

ثم هز كرشـه . ثقلت حركـات طهاوى على نفسـه.لم يعـد يحبـه . استخدمه عشرى فى طرد عم حمص من الحارة . وجد نفسه يدفعه بيده دفعة قوية فيسـقط على بعض الأجـراء . حاول طهاوى أن ينهض ولكنـه لم يستطع . . عاونه بعض الأجراء . . وقف طهاوى . . أسرع يبتعد عن خميس وهو يقول :

ـ الله يسامحك .

شعر طهاوى بأن فرصة الليلة قد ضاعت عليه الآن . . فقال :

ـ لابد أنى أنا المدعو للحفل . . تأخرت على المعلم . .

وخرج مسرعا . . ارتاح الجالسون . . ابتسم البعض ، أفسحوا مكانا لخميس بينهم . بدا أن كل واحد منهم يريد من خميس أن يجلس بجواره . أدار أحدهم مسجلا ، كأنه يريد أن يكافىء خميس بسماع موال . انطلق موال يبعث الشجن فى النفس . حلق خميس مع الموال الحزين . هبت على أنفه رائحة زهر شجر البرتقال الذى زرعه فى أرضه . حاول أن يتذكر وجه

صبحة القديم فى القرية ولكنه وجد وجه حبيبة يملأ عينيه . شعر بالحزن يمسك بقلبه . . لاح فى رأسه سؤال : هل الحزن هو الحب ؟ !

●

كان المغنى الأسمر يغنى موشحا أندلسيا . والوجوه حوله فى القاعة الذهبية قد بدأت رحلة عشق الليل . . فى النهار عرفوا كيف ينسجون من أشعة الشمس ذهبا . . تمتلىء به خزائنهم . . وفى الليل يعبون من خمره . . بدوا كأنهم عشاق يتحرقون بالشوق للنهار القادم . . يظلون ساهرين حتى يمسكوا طلوع الشمس بأيديهم . . ويطمئنوا إلى أنها قد طلعت لتتدفق الأموال على خزائنهم . . ألقى أمير الصاغة الفيروزى ببعض الأوراق المالية للمغنى كأنه يلقى ببعض الوقود فى نار . توهج المغنى . اشتعلت نار عشاق النهار القادم . تطايرت التأوهات . طلبوا من المغنى الإعادة . دخل حمادة المنصورى . هب الحلوانى واقفا . أشار المعلم للمغنى ليتوقف . . توقف الغناء . . قدم لهم الكاتب الكبير . . المرة الأولى التى يدخل فيها حارة الحلوانى بعد أن سطع نجمه فى دنيا الأدب . رحب الفيروزى به ترحيبا حارا ، عادوا إلى الأرض مسرعين . . كأنهم لا يريدون للحظة من لحظات ليلتهم الا تنتشى بنشوة الغناء . التواشيح توجع القلب . . وكأنهم يريدون إيجاع قلب الليل بذكرى أيام عز كانت لهم فى ليالى الأندلس . جلس حمادة المنصورى بجوار الفيروزى رغم أن الحلوانى كان يريد أن يجلسه بجواره . دخل عشرى القاعة الذهبية . كأنه غرق فى بحر من ذهب . يريد أن يعوم . فرصة عمره تهبط عليه مرة واحدة . حملق فى الوجوه . وجوه الأغنياء تشرق بالبهجة . يريد نصيبه من البهجة . وخمر الغناء قد لعبت برؤوس الأغنياء وعنده خبرة الليالى فى الفهلوة . شعر برغبة جارفة فى أن يحتضن الموج الذى حوله . الموج عال . دار رأسه . ينبغى أن يتمالك نفسه . يحدد

الهدف . استقر على هدفه فى أول الليل . أمير الصاغة إبراهيم الفيروزى . . يريد فرصة الحديث معه مرة واحدة . لن يتركه حتى يضعه فى جيبه . كأن المعلم يعرف . . لم يتح له هذه الفرصة عندما فتح له باب العربة فى أول الليل ، أبصر هدفه على ضوء القناديل الخافت . . احتواه بنظرة فاحصة . تبين للوهلة الأولى أنه لن يحتمل كثيرا فى يده . ابتسم الفيروزى لحمادة المنصورى . تنبه عشرى إلى أن المعلم ينظر إليه . ارتبك . مال بسرعة على المعلم . . ينبغى أن يقول له شيئا يبرر به هذه الوقفة . تذكر ما قاله له طهاوى منذ قليل من أن خميس قد ضربه فقال بسرعة :

ــ الأجراء غاضبون . .

لا يتصور المعلم أن يغضب الأجراء وخاصة فى هذه اللحظة التى يحتفل فيها بافتتاح قصره فقال فى دهشة :

ــ ماذا ؟ !

كأن دهشة المعلم شجعته على أن يقول :

ــ نعم يا معلمى . . الأجراء يتمردون . . وخميس يقود التمرد . . جاء طهاوى لى وأخبرنى . .

ابتسم المعلم . . يعرف أن عشرى يكره خميس فقال له لينصرف ويتركه لضيوفه :

ــ تصرف . .

كان عشرى ما زال واقفا . . والمعلم يجلس على الأرض تحت قدميه . شعر بالقوة . رمق الفيروزى بنظرة وهو يتحدث مع حمادة المنصورى فى انهماك . تحرك الصنف الممتاز الذى تناوله فى أول الليل فى داخله . نوى ألا ينصرف من مكانه حتى يلتفت إليه الفيروزى . فقال بصوت عال وكأنه يحدث الفيروزى :

— اتصرف يا معلمى ؟ !

التفت إليه الفيروزى . ابتسم عشرى . لم يبتسم الفيروزى . تضايق الحلوانى لأن عشرى مازال يقف فوق رأسه . . قال بصوت مرتفع قليلا :

— تصرف يا عشرى . .

قفزت إلى رأس عشرى فطومة وهى راقدة فى فراشه بملابس النوم وقد خيل له أن اقداما تتدافع على درجات السلم الخشبى وهى تقول له :

— ارتد ملابسك بسرعة !

ويقول لها وهو يناولها الملاءة السوداء :

— لست خائفا . . أخاف من صعاليك . . سيدفعون ثمن عصيانهم . .

جاءت الفرصة . ليدفعوا الثمن . تذكر عبارة يرددها المعلم دائما : جوع كلبك يتبعك : سيجوعهم . يؤخر وجبة الطعام بحجة أن ضيوف المعلم لم يفرغوا بعد من طعامهم . ويقف أدهم عاجزا . ويعرف الأجراء أنه أصبح فرعون الوكالة . ويستولى على كل أموالهم . ويصبح ثريا . . واحدا من هؤلاء الذين يتمايلون حوله فى القاعة الذهبية مع نغمات المغنى . تذكر نانى خميس والأجراء يلتفون حوله وهم يتأوهون . ابتسم . . لن يبقى خميس فى الوكالة طويلا . تجاسر وجلس مع حبيبة ابنة المعلم تحت الشجرة . عندما يعرف المعلم لن يقتلعه وحده بل سيقتلع الشجرة من جذورها أيضا . سيخبر المعلم فى الوقت المناسب . أغلق باب القاعة الذهبية . بدا لنفسه كما لو أنه يحبس المعلم مع ضيوفه . ضحك من فرط السعادة . . دارت نظرات حمادة المنصورى فى الجالسين حوله . . لم يبصر حبيبة . ضاق بدخان السجائر الذى تجمع فى القاعة المغلقة . لبى دعوة

الحلوانى ليرى حبيبة ، لم يرها منذ حدثته فى نادى الفروسية . يريد أن يراها ليرد لها هزيمتها . لا تهزمه امرأة . شعر بكراهية للتجار الذين يلتفون حوله . ضاق باعجاب الفيروزى بقصته الأخيرة . يعرف أنه ينافقه . لا يقرأ الفيروزى غير أرقام ملايينه . جرت نظرته فى القاعة الذهبية تبحث عن نسمة هواء . بدت له القاعة كسجن . تعمد ألا تقع نظرته فى نظرة الحلوانى حتى لا يضطر إلى أن يقول له شيئا لا يريد أن يقوله . . يريد أن يرى حبيبة . ماذا جرى له ؟ ! هل وقع فى هواها ؟ لم يعرف الحب منذ زمن الشباب . نغمات المغنى أشعرته بالحزن . يريد أن يهرب من حزنه . . يعتذر للحلوانى ويخرج من القاعة . ربما يراها فى ردهات القصر . وقف . أبصرها تقف أمامه . ترتدى الجينز والقميص الرجالى . بدا كأنه قد قام ليرحب بها . لم تنتبه حبيبة لوجوده . اتجهت لأبيها الذى تضايق لحضورها بهذه الملابس . اشترى لها فستانا خصيصا لهذه المناسبة . قال حمادة للمعلم بصوت عال :

— يا حلوانى . . هذا القاعة الذهبية تذكرنى بقصور الأندلس !

لم يرد الحلوانى على مجاملة حمادة التى كان ينتظر سماعها منه منذ جاء . انشغل الحلوانى فى التفكير ، كيف يلفت نظر حبيبة إلى أنها ترتدى ملابس لا تتناسب مع حفل افتتاح القصر دون أن يؤذى مشاعرها أمام الفيروزى ؟ !

تنبهت حبيبة إلى وجود حمادة فقالت صائحة :

— حمادة المنصورى ؟ !

شعر حمادة بالسعادة . قال وهو يشير إلى الحلوانى :

— أبوك ؟ !

– نجح أبى فيما فشلت فيه الأيام !!

قال ضاحكا :

– لا أكره حارة الحلوانى كما تتصورين !

أراد المعلم أن يقول لها : اذهبى وارتدى فستانك الجديد . . ولكنه وجد نفسه صامتا . .

أحست حبيبة بأن حمادة قد جاء ليراها . نظراته تنسج خيوطا حولها . اختنقت بدخان القاعة ، لا ترتاح لصوت المغنى . تذكرت خميس ، تريد أن تراه ، تذهب إليه فى الخلاء ، تجلس معه تحت الشجرة . جاءت لتخبر أباها برغبة كروانة فى ألا ترقص . عدلت عن إخباره . وقفت . حدق الفيروزى فى عودها الجميل . مال على الحلوانى وهو يقول :

– لك ابنة جميلة كقصرك !!

شعر الحلوانى بأنه يطير . . تحقق ما يريد . . أعجب بها أمير الصاغة . .

قال له :

– هذا القصر قصرها . .

قال الفيروزى ضاحكا :

– قصر حبيبة ؟

– سأسميه منذ اللحظة قصر حبيبة . .

ثم نظر الحلوانى إلى حبيبة . وجدها قد انصرفت . . تصور أنها قد فطنت إلى رغبته فى أن تذهب وترتدى فستانها الجديد . . قال للفيروزى :

– كانت قادمة بملابس النادى . . ذهبت لترتدى فستانها . ستشرب نخب قصر حبيبة بعد أن تعود . .

انكمش حمادة المنصورى فى مكانه . لقد عجز عن أن يستوقفها . شعر بانها قد أسرته . .

●

قالت زبيدة لكروانة وشىء من الحزن يسبح فى عينيها :

– تذكرينى بالليلة الأولى التى وقفت فيها على خشبة المسرح بروض الفرج . كنت سأموت من الخوف . بمجرد أن دخلت المسرح واستقبلنى التصفيق ردت لى الحياة ، كأنى ولدت من جديد . ميلادك الليلة . سترقصين لأصحاب الملايين . لم يتح لى هذا . كنت أرقص وأغنى للفقراء . أنت محظوظة . الأثرياء ينتظرونك . الخمر قد لعبت برءوسهم . والأنوار خافتة . سيرونك ساحرة وسيلقون بالذهب تحت قدميك . . من يدرى ربما تخطفين قلب أحدهم . . سيكون السعد تحت قدميك لو كان هو الفيروزى أمير الصاغة . .

وخفضت صوتها وهى تقول :

– المعلم يريد أن يزوج حبيبة للفيروزى . .

وصلها صوت حبيبة غاضبا :

– حبيبة لا تتزوج الفيروزى ولا غير الفيروزى . .

ضحكت زبيدة لتخفى المفاجأة :

– من التى هى أجدر منك بزواج أمير الصاغة . . شباب وجمال وأدب

ــ لا يستطيع أحد أن يرغمك على فعل شيء لا تريدينه . .

خيل لحبيبة أن زبيدة تبكى . اتجهت إليها بنظرتها وقالت دون أن تتأكد من أنها تبكى أم لا ! :

ــ بدلا من البكاء . . ادخلى إلى القاعة وواجهى ابنك . .

تجمدت الدموع فى عينى كروانة . كانت توشك أن تبكى . تذكرت وجه أدهم والحمام يتقافز حولها وهو يقول لها : لو رقصت للتجار فلن أكلمك . . الحلوانى يريدك جارية . . عصر الجوارى انتهى منذ زمن بعيد . . جدتى كانت ترعب الرجال . لماذا يخيفك الحلوانى ؟ !

أحست بأن شيئا يتفجر فى داخلها . ستصرخ فى وجه الحلوانى . أبصرت الحلوانى يطل عليها من الباب . شعرت بأنها تتلاشى . ضحك الحلوانى وهو يرى كروانة فى رداء جارية . أحست كروانة بأنها ريشة ابتلعتها عاصفة . .

قال الحلوانى لزبيدة :

ــ أحسنت اعداد كروانة . ستدخل بعد العشاء مباشرة . إنهم يتناولون الطعام فى الحديقة . . عندما أصفق تدخل .

ثم قال لكروانة :

ــ لك مكافأة سخية يا كروانتى . .

تنبه إلى أن حبيبة تقف خلفه . لا يتصور أن تكون حبيبة فى حجرة كروانة فى هذه اللحظة .

قال بدهشة :

ــ حبيبة . . كنت ذاهبا إلى حجرتك . . الفيروزى ينتظرك على العشاء . .

وكأن كروانة انتهزت الفرصة لتمر بيدها على زينة وجهها . أفسدت ما تعبت زبيدة فيه . تنبهت إلى أن زبيدة تنظر إليها بغضب . قالت كروانة بخوفها :

ــ لم أكن أقصد !

قالت حبيبة :

ــ ولماذا لا تقصدين ؟ . . هذا حقك . . لقد ذهبت إلى الحلوانى لاخبره بأنك لا ترغبين فى أن ترقصى لضيوفه . . لكنى تنبهت إلى أنه ليس من حقى أن أتحدث بالنيابة عنك . . هذه هى قضيتك وحدك . . ترقصين أو لا ترقصين . .

قالت زبيدة وقد خشيت أن تنجح حبيبة فى جعل كروانة تتمرد :

ــ لا فائدة يا كروانة . . سترقصين !

تضايقت حبيبة من زبيدة فقالت :

ــ ابنك موجود فى القاعة الشرقية . .

ولم تنتظر لترى تأثير الخبر على وجهها وهى تقول بقلب الأم : ابنى حمادة . . والتفتت إلى كروانة وقالت لها :

ــ أنت متعبة ؟ !

هزت كروانة رأسها . .

قالت حبيبة :

ــ اخلعى هذا الرداء واذهبى إلى حجرتك ونامى . .

واتجهت إلى المرآة ونظرت إلى نفسها وتذكرت محاولة حمادة المنصورى ليجعلها تجلس معه فى القاعة الشرقية . قالت :

قالت حبيبة :

ـ لن أتعشى . .

خرج الحلوانى مسرعا ، وكأن عبارة حبيبة لا تمنع من أنها ستذهب إلى حجرتها لتخلع ملابس النادى وترتدى الفستان الجديد وتجىء لتجلس على مائدة الفيروزى فى حديقة القصر . .

قالت حبيبة لكروانة بعد أن خرج الحلوانى :

ـ لماذا لم تتكلمى ؟ !

قالت زبيدة فى أسى وكأنها تحدث نفسها :

ـ وما جدوى الكلام يا حبيبة ؟ !

●

رغم أن الطهاوى أخبره بأنه قد أبصر خميس يخرج من الوكالة فى هذه الساعة المتأخرة من الليل على غير عادته إلا أن عشرى راح يمسح الأجراء بنظرته ليتأكد من أنه ليس موجودا بينهم . يخشى أن يكون جالسا بينهم ويهب واقفا ويفسد عليه خطته . سيؤدب الأجراء الليلة . سينتقم لما فعلوه فى ليلة طرد حمص . لم ينس أنهم التفوا حول خميس واستمعوا إلى النـاى يحتفلون بعودة الرجل الذى طرده . أعطاه المعلم الضوء الأخضر سينتهز الفرصة ويحرمهم من وجبة الطعام . انتشى . تصور أن قدمه قد غاصت فى جسد أحد العمال وهو يقول :

ـ لن تأكلوا الليلة !

بدا على وجـوه الأجـراء أن هذه العبـارة التى نطق بها عشرى لا تعنيهم . . فهم يعملون طوال النهار فى مشروعات المعلم من هدم وبناء . .

وفى الليل يفـترشـون أرض الـوكـالـة . . ويأكلون وجبـة طعـام عادة لا تشبعهم ، وفى الفجر يساقون إلى العمل الذى لا يتوقف . . يعيشون على الصبر . . ينتظرون يوما يسافرون فيه إلى بلاد سخية تعوضهم عن هذه الأيام الشحيحة التى يقضونها فى وكالة الحلوانى . يخافون دائما أن يبدر منهم شىء يضايق أحدا من رجال المعلم فيعاقبون وتطول أيامهم فى هذه السخرة . .

تصـور البعض أن عبـارة عشرى من باب الاستفـزاز اليومى الـذى يتعرضون له . فابتسموا . . استفزت ابتسامتهم عشرى فقال بصوت يشى بغيظه :

ـ لن تأكلوا !

انتهز الفخرانى ـ الذى يكره عشرى ـ الفرصة وقال كما كان يحرض الأجراء :

ـ ألم تسمعوا ما يقوله عشرى ؟ ! لن تأكلوا !!

قفـز إلى رأس عشرى ما أخـبره به طهاوى من أن الفخرانى أراد أن يحرض الحـارة عليه عنـدما كانت فطومة تزوره فى حجرته . . أوشك أن يصفعـه . . ولكنـه تمالك نفسه بسرعة . . معركته الآن مع الأجراء . . ينبغى أن يؤجل معركته مع الفخرانى إلى وقت مناسب . . ابتسم . .

قال أحد الأجراء بصوت خفيض :

ـ الليلة فرح . .

حملق عشرى فى الوجوه الشاخصة إليه ورغم أنه أبصر الذى نطق بهذه العبارة إلا أنه قال :

ـ من الذى نطق بهذه العبارة ؟ !

انكمش الأجراء فى صمتهم . .

قال عشرى :

ــ أريد أن أعرفه حتى أكافئه . .

اقترب عشرى من أحد الأجراء الذى لا يعجبه شكله وقال :

ــ أنت ؟ !

شحب وجه الأجير الذى لم ينطق بشىء . . قال عشرى :

ــ لا تخف . . عشرى لا يضرب ضعيفا مثلك . . كل ما أريد أن أقوله لك : هو أنه من أجل هذا الفرح انشغل الطباخون فى إطعام الضيوف وضيوف المعلم من الأثرياء . . وطعام الأثرياء ليس مثل طعام الفقراء أمثالكم . .

وأشعل سيجارة وقال وهو ينفث دخانها :

ــ طعام الأثرياء يستغرق ـ عادة ـ وقتا طويلا ربما يستمر حتى مطلع الفجر !

ثم قهقه كأنه قد سمع نكتة . .

قال الفخرانى وقد أصيب بخيبة أمل فقد جاء إلى الوكالة يريد أن ينتهز الفرصة ويأخذ نصيبا كبيرا من الطعام الذى سيقدم للأجراء فى هذه الليلة . . فلابد أنهم سيأكلون من طعام السادة . . فقال كالمحتج وهو يشير إلى الأجراء :

ــ ويموت هؤلاء المساكين من الجوع . .

وكأن الأجير الذى لا يعجبه شكله هو الذى احتج فصفعه عشرى على وجهه صفعة قوية . سال الدم من فمه . خاف الفخرانى أن يكون الطهاوى

قد أخبره بأنه كان يريد أن يحرض الحارة عليه فيضربه . صرخ كأنه يستغيث :

ــ الدم . .

ابتعد عشرى بنظراته عن الدم . لا يحب منظر الدم . تفرس وجوه الأجراء وقد ابتلع الدم الذى سال من فم الأجير أنفاسهم وقال بلهجة حازمة وهو ينظر إلى الفخرانى :

ــ ضربتك هذه المرة . . والمرة القادمة ستطرد . . والذى يطرد من الحارة لا يعود !

شحب الضوء حتى كاد يتلاشى وهو يقول :

ــ عاد حمص للحارة بمزاجى . . تركت خميس يعيده لدكانه . . ليس من المعقول أن نترك رجلا كبيرا كعم حمص ينام الليل فى البرد على الرصيف . . كنا نؤدبه حتى لا يتجاسر على معلمنا مرة أخرى !

وأوشك أن يقول : المعلم لن يغفر بعد الآن . . ولكنه قال :

ــ لن أغفر بعد الآن !!

ــ من أنت حتى لا تغفر ؟ !

التفت عشرى ناحية الصوت ليجد أدهم يقف فى مواجهته . كان الضوء الذى شحب منذ قليل قد عاد لبعض قوته . أبصر الأجراء أدهم يقف أمامهم . . أحسوا بالراحة . سيأكلون وجبتهم . خاف عشرى أن يفسد أدهم خطته . ينبغى أن يتخلص منه بسرعة فقال وقد غير لهجته :

ــ أنت تعرف أن المعلم يتناول العشاء مع ضيوفه فى حديقة القصر . .

أراد الفخرانى أن يقول لأدهم : لقد ضرب هذا الرجل الضعيف دون أن يفعل شيئا وجعل الدم يسيل من فمه ولكنه قال وهو يشير إلى الأجراء :

ــ يموتون من الجوع !

فطن أدهم إلى أنه ينتقم من الأجراء لأنهم التفوا حول خميس وهو يغنى مواويله . .

قال عشرى :

ــ لن يموت أحد عندما تتأخر وجبة الطعام قليلا . .

ونظر فى الوجوه التى استردت أنفاسها وقال مبتسما :

ــ ستأكلون بعد أن يفرغ الضيوف من طعامهم . . وهم يأكلون الآن فى الحديقة . .

قال الفخرانى وهو يحتمى بأدهم :

ــ لم تقل هذا من قبل !!

تضاحك عشرى :

ــ كنت أمزح معهم . . إنى أحبهم يا فخرانى ولا تنس أنك جارى . .

أشار الفخرانى إلى أثر الدم فى فم الرجل وقال :

ــ تضرب من تحبه وتجعل الدم يسيل من فمه !

تجاهل عشرى ما قاله الفخرانى واتجه بحديثه إلى أدهم :

ــ أنت تعرف أن المعلم لا يرضى بأن يجوع أحد . .

وبعد أن نطق عشرى بعبارته توقع أن يقتنع أدهم ويخرج من الوكالة

عائدا لبيته لينام ، ولكن أدهم قال للاجراء فى لهجة قاطعة :

ــ ستأكلون الآن !

ثم اندفع . . فهم عشرى أنه سيذهب ليخبر المعلم ، خاف من تأثير أدهم على المعلم . حاول أن يستوقفه وهو يقول :

ــ المعلم لا يريد إزعاجا يا أدهم وهو يتعشى مع ضيوفه . .

تجاهل أدهم عبارة عشرى وقال للفخرانى الذى بدا أنه سيذهب معه :

ــ ابق هنا . . سأذهب وحدى للمعلم . .

وجد عشرى نفسه يقول :

ــ ابق هنا يا فخرانى . . المعلم لن يغفر لمن يتحدى أوامره الليلة . .

●

امتلأ رأس حبيبة بصوت خميس وهو يقول لها : لا أطلب شيئا عسيرا يا حبيبة . بحثت فى الوكالة . لم تجده . اشترت له كتابا . تريد أن تهديه له . سيفرح به . سيجعله يعرف أشياء يريد أن يعرفها . .

قالت الأم لها :

ــ أبوك أرسل يستعجلك وأنت لم تخلعى ملابس النادى بعد !

أرادت حبيبة أن تخرج من القصر . . ستجد خميس فى الحارة يجلس مع بعض الأجراء . .

قالت لأمها :

ـ أين فلة ؟ !

ـ تنتقل من حجرة إلى أخرى . . هذه ليلتها !

ضاقت جدران الحجرة بها . . شعرت بأنها لو خرجت من حجرة أمها ستجد خميس . قالت :

ـ أريد أن أراها . .

تذكرت الأم أن الحلوانى أخبرها باهتمام الفيروزى بابنتها . ينتظرها على العشاء . جرت بخيالها . سيخطبها الليلة . لا تحلم بزوج لابنتها أفضل من الفيروزى . .

قالت الأم وقد تصورت أنها تبحث عن فلة . . لتزينها :

ـ سأزينك بنفسى . .

توقعت الأم أن تجد الفرحة فى عينى ابنتها . أبصرت الحزن يطل من عينيها . قالت لها لتفرحها :

ـ الفيروزى ينتظرك يا حبيبة !

شعرت حبيبة كأن كلمات أمها تلتف حول عنقها تخنقها . تريد نسمة هواء . ستجد النسمة فى الحارة . اندفعت تخرج من الحجرة . .

قالت الأم ـ تحاول أن تستوقفها ـ بشىء من الغضب :

ـ لا تغضبى المعلم !

قالت حبيبة دون أن تتوقف :

ـ لن يغضب . . سأجىء بفلة !

●

مشى أدهم فى حديقة القصر . اشتعلت الأشجار بالأضواء . شعر بالغربة . كأنه لا يمشى فى الحديقة التى زرعها بيديه . يمشى فى أمواج من دخان الشواء . وأثرياء الجمالية يغرقون فى لحم الخراف . دارت خطواته تبحث عن الحلوانى ، أبصره يجلس بجوار الفيروزى . تصور الحلوانى أن أدهم قادم ليخبره بأن حبيبة لن تتأخر أكثر من ذلك . أشار إليه ليجىء . اتجه أدهم بعبارته :

ـ عشرى يمنع وجبة الطعام عن الأجراء يامعلم !

ارتبك الحلوانى للحظة . . ما لبث أن تمالك نفسه عندما أبصر الانزعاج على وجه الفيروزى . ضحك بصوت عال كما لو كان يسمع نكتة وقال :

ـ خير الليلة كثير يا أدهم . . يطعم حى الجمالية كله ويزيد . .

وأشار بيده إلى الشواء الذى يحتل ركنا فى الحديقة :

ـ أنت ترى بعينيك . .

ثم نظر إلى وجه الفيروزى ليرى تأثير ما قاله لأدهم عليه . أبصره مبتسما . أحس برغبة فى ألا يكف عن الحديث فقال :

ـ هذه الحفلة ليست حفلتى . . إنها حفلة حى الجمالية . . أين أنت من أول الليل ؟ . . اخدم الضيوف . . بدلا من أن تقول هذا الكلام الفارغ . . لا أستطيع أن أفعل كل شىء وحدى !

ثم مرت على أنفه نسمة محملة بزهر الياسمين . شعر بالنشوة . وهو يتذكر أن الفيروزى قد أصغى إليه باهتمام وهو يحدثه عن ابنته حبيبة وخجلها من المجىء والجلوس مع الضيوف فى الحديقة أثناء العشاء رغم أنه أرسل فى طلبها أكثر من مرة . .

قال لأدهم وقد تصور أن الفيروزى قد أصبح زوجا لابنته :

ــ افتحوا الأبواب . . اطعموا الجميع . . فالليلة عيد . . لقد شرفنا الفيروزى !

وكأن أدهم كان ينتظر هذه الكلمات . اندفع خارجا من الحديقة . وانتظر فراغ الضيوف من طعامهم وعودتهم إلى القاعة الذهبية . وفتح الباب الذى يفصل الوكالة عن القصر الذى أغلقه عشرى وقال للأجراء بصوت عال :

ــ المعلم قال : . . اطعموا الجميع . .

لم ينتظر الجائعون سماع كلمة « ادخلوا » . . أبصروا باب الحديقة مفتوحا . . ورائحة الشواء قد أدارت رءوسهم . . اندفعوا ، يتقدمهم الفخرانى . هجموا على الخراف ، دفع الفخرانى البعض . . يريد أن يستأثر بخروف لم يمس . .

دخل عشرى الحديقة مذهولا . . صاح :

ــ أجننتم ؟ !

أبعد الفخرانى عن الخروف الذى استأثر به . استسلم الفخرانى .

قال أدهم لعشرى :

ــ دع الفخرانى . .

قال عشرى :

ــ من فتح الباب ؟ !

ــ أنا . .

ضحك عشرى . قال أدهم :

ــ أوامر المعلم . .

عندما سمع عشرى . عبارة « أوامر المعلم » . . توقف عن الضحك . . يعرف أن أدهم لا يكذب . استأنف الفخرانى مضغ قطع اللحم التى كانت فى فمه فى سعادة . اغتاظ عشرى وهو يرى الفخرانى يلتهم فخذة الخروف التى يمسكها بيديه . شعر بالجوع . . أراد أن يخطف الفخذة من بين يديه ولكنه لم يفعل . قال :

ــ صعاليك ؟ !

قال الفخرانى وهو يتلذذ باللحم الذى يملأ فمه :

ــ صعاليك . . صعاليك ولكننا نأكل الخراف !

كتم عشرى غيظه . قال أدهم وقد أحس بالسعادة وهو يرى الأجراء يلتهمون الخراف :

ــ كلوا . . هذا الحفل حفلكم :

لم يستطع عشرى أن يكتم عبارته وقال ساخرا وهو يشير إلى الأجراء :

ــ حفل هؤلاء الصعاليك . .

قال أدهم :

ــ المعلم قال : افتحوا الأبواب . . أطعموا الجميع . !

وكأن عشرى قد ابتلع نفسه . خاف أن تبدر منه حركة . ينقلها أحدهم للمعلم . يتصور أن أحدا من الأجراء يتجسس عليه . قال زيادة فى الحيطة بصوت عال :

ـ أوامر المعلم أنفذها على العين والرأس !

قهقه الفخرانى .

اغتاظ عشرى . قال عشرى كأنه يعاقب أدهم على ضحكة الفخرانى :

ـ كروانة سترقص لضيوف المعلم !

فار الغضب فى عروق أدهم . . قال وهو يقترب منه :

ـ كروانة لا ترقص للتجار . .

شعر عشرى بالخوف . يضربه أدهم . وينتهز الأجراء الفرصة ويشتركون فى ضربه . . ولا ينقذه أحد من أيديهم . . قد يقتلونه فى الحديقة . قال متراجعا :

ـ لا أظن أن كروانة سترقص . . كنت أضحك يا أدهم !

ضحك الفخرانى وهو يقول بضحكته :

ـ جبان . .

●

ـ رقصك يا مولانا ؟ !

قالها شبانة بنشوته . امتلأ بلذة الطعام . . ولم يعد صوت المغنى يكفى . . يريد الرقص . . صفق بيديه :

ـ الرقص يا حلوانى . .

كان الحلوانى مشغولا بالبحث عن حمادة المنصورى ، أمه زبيدة ستجىء بعد قليل لتراه ، تبين أنه قد غادر القصر بعد انتهاء حفل العشاء ، تضايق . . لم يخبره بانصرافه .

قال شبانه للحلوانى :

ـ أين جاريتك التى حكوا عنها الحواديت ؟ !

كان الحلوانى قد نوى ألا ترقص كروانة إلا بعد أن تجىء حبيبة وتجلس بجوار الفيروزى . قال وقد بدا الضيق فى نبرته :

ـ لا تتعجل على رزقك يا شبانة . .

قال الفيروزى :

ـ هكذا شبانة يتعجل نصيبه فى الحياة كما لو كان هناك من سيسرقه منه . .

ضحك شبانة وهو يقول :

ـ اللصوص كثيرون هذه الأيام . .

توقفت ضحكته عندما أبصر زبيدة تقف أمامه :

ـ أول مرة تهزمنى يا حلوانى . . هذه هى الأصول . . لا ينبغى أن يبدأ الرقص إلا بعد أن تحضر سيدة الرقص . .

لم يرتح الفيروزى لعبارة « سيدة الرقص » يعرف أن زبيدة تكره أن يذكرها أحد بماضيها . هب واقفا ورحب بها وأجلسها بجواره . تضايق شبانة . كان يريد أن تجلس بجواره . قال :

ـ أين حمادة . . يبدو أننا نسيناه فى الحديقة ؟ !

وضح على وجه الفيروزى الضيق بكلمات شبانة . اتجه بوده لزبيدة وهو يقول :

ـ حمادة لم يكن يعلم أنك قادمة . . تعرفين مشاغله الكثيرة . .

ابتلعت زبيدة حزنها بضحكتها . . كانت مترددة فى لقاء حمادة وعندما حزمت أمرها ودخلت لم تجده . . وجدت نفسها تقول :

ـ حمادة مر على قبل أن يجيء الى هنا . .

قال شبانة :

ـ أخيرا عرف أمه !

وجدت نفسها تنفعل وتقول :

ـ يعرف أمه قبل أن تولد يا شبانة .

ضحك شبانة . ارتبك الحلوانى . أسرع الفيروزى يقول :

ـ الرقص يا حلوانى . .

أسرع الحلوانى يصفق رغم أنه كان ينتظر عشرى فقد أرسله يبحث عن حبيبة . . دخلت كروانة . تطاير العطر فى القاعة الذهبية . . شعر الحلوانى بالزهو . . كأنها فراشة تطير فى ضوء الشموع . . فتح شبانة عينيه . . كأنها لؤلؤة تخرج من محارة ترقص للصائد . . سيكون صائدها الليلة . . ويغيظ زبيدة التى ترفض وده وتصده دائما عندما يتقرب إليها . . شعرت كروانة بوقع نظرات شبانة . . كأنها تعريها من ملابسها . . تذكرت أدهم . . مدت يديها وهى ترقص كأنها تنسج شيئا من حب أدهم . . يحميها من نظرات شبانة المقتحمة . . امتلأ رأسها بصوت أدهم وهو يقول لها : لو رقصت للتجار فلن أكلمك . . شعرت بالأرض تميد بها . . وشبانة يقول لها : لم أكن أعرف يا حلوانى أن جاريتك حلوة هكذا . . أرادت أن تتوقف عن الرقص ولكنها لم تستطع . .

أبصر شبانة زبيدة تميل على الفيروزى بصدرها فقال :

ـ أريد أن أشتريها . .

ضحكت زبيدة .

قال شبانة :

ـ أدفع ذهبا !

قال الفيروزى ضاحكا :

ـ من أين لتاجر الفضة بالذهب ؟ !

ـ اشترى الجمال بكل فضتى . .

قال الفيروزى :

ـ الجمال لا يباع يا شبانة !

أبصر شبانة التحدى فى عينى زبيدة . . ارتفع صوت الموسيقى . . كأن نظرة شبانة المقتحمة أصبحت نظرات التجار الملتفين حول كروانة . . الموسيقى فى أذنيها تحولت إلى لحن جنائزى . . أغمضت عينيها . . تريد أن تموت ولكن الموت لا يأتى رقصا . قفز شبانة من جلسته . . لعبت الخمر برأسه :

ـ نفتح المزاد !

رن فى رأس كروانة صوت أدهم وهو يقول لها : عصر الجوارى انتهى . .

أراد الحلوانى أن يقول لشبانة : لا تستطيع بكل فضتك أن تشتريها . . ولكنه أحس برغبته فى أن تتم اللعبة التى أرادها شبانة حتى نهايتها . . ويكتشف أثرياء الجمالية أنهم لا يستطيعون أن يأخذوا منه كروانة . .

توقعت كروانة أن يغضب الحلوانى ولكنها أبصرت السعادة على وجهه .. شعرت بالغثيان .. شىء يشتعل فى داخلها .. العيون تحاصرها .. يريدونها جارية .. لم تستطع نظرات زبيدة المشفقة عليها أن تطفىء الحريق الذى شب فى جوفها .. أرادت أن تجرى .. كأن شبانة يسد عليها الطريق يقترب منها .. سيمسكها .. لهيب معدتها يجرى فى فمها .. تمتد بيديها .. لم تستطع .. انفجر شىء من فمها فى وجه شبانة .. ضجت القاعة بالضحك .. تملكها الخوف .. اندفعت تجرى .. أسرعت زبيدة فى إثرها ..

وقال الفيروزى ضاحكا :

ـ رسا المزاد عليك يا شبانة ..

وتألقت البهجة فى القاعة الذهبية .. وبدا الذى حدث كأنه جزء من حفل الليلة . عادت زبيدة وهى تقول :

ـ مسكينة .. أصاب البرد معدتها .. فألقت بكل ما فى جوفها .. لا تستطيع أن تكمل رقصتها ..

تضايق الحلوانى ..

أوشكت زبيدة أن تقول له وهى تنظر إلى الفيروزى : سأرقص من أجل عينى ضيوفك .. ولكنها سمعت شبانة يقول :

ـ التعويض الوحيد الذى أرضى به هو أن ترقص زبيدة .

أوشكت أن تقول : لن أرقص .. ولكنها سمعت الفيروزى يقول :

سترقص زبيدة ..

التفتت إليه وقالت :

ـ أمرك يا فيروزى ..

صفق شبانة . مد يده بشاله . تجاهلت زبيدة شاله .. وتناولت شال الفيروزى الحريرى .. صفق البعض .. تضايق شبانة .. رقصت زبيدة .. تذكرت أياما ماضية .. عندما كانت تدفن حزنها فى رقصها .. وشعر الفيروزى بالنشوة .. وقف وهو يقول : لم أرقص منذ زمن !

جذب الحلوانى من يده .. واحتضنه .. ود الحلوانى أن تكون ابنته حبيبة فى القاعة لترى الفيروزى وهو يحتضن أباها .. دخل عشرى القاعة أبصر الحلوانى يحتضن الفيروزى .. اغتاظ .. كان يريد أن يحدث الفيروزى .. سيجعله يغتم .. سيخبره بأن ابنته حبيبة تجلس مع خميس فى مقهى الفيشاوى يحتسيان الشاى .. أبصر الحلوانى عشرى .. توقع أن يخبره بان حبيبة قادمة .. مال عليه ليسمعه .. فوجىء به يقول له : حبيبة مع خميس .. لم يجعله يكمل كلامه .. دفعه بعنف .. سقط عشرى على الأرض .. وعاد الحلوانى إلى رقصه .. وكأنه يريد أن يدوس بخطواته عشرى .. أسرع عشرى يقف .. كان بعض الجالسين فى القاعة ، قد قاموا للرقص .. لم ينتبه إليه سوى شبانة .. وقف يرقب زبيدة وهى ترقص .. مازالت قادرة على الرقص رغم تقدم السن .. عادت نظرته إلى شبانة .. وجده قد انصرف عنه .. اغتاظ .. ولكنه ابتسم وهو يحتوى الحلوانى بنظرته وهو يرقص .. فقد بدا له أنه يرقص مذبوحا من الألم .. لقد نجح فى أن يعكر عليه ليلة عمره !!

●

[١٧]

كان ينوى أن يدخل حجرة نومه ويوقظ زوجته إذا وجدها نائمة . يريد أن يحدثها . . يخبرها بأن التراب قد انتصر . . وخرج شبانة تاجر الفضة مهزوما من قصره . . واحتضنه الفيروزى أمير الصاغة ورقص معه . . شعر بأنه يطير بين جدران قصره . . الحا أصبح بين أصابعه . . تذكر اهتمام الفيروزى بابنته حبيبة . رنت فى رأسه عبارة عشرى : حبيبة مع خميس . وجد نفسه يقول : لا يمكن أن تترك أمير الصاغة وتذهب إلى خميس . لابد أنها كانت تساعد أدهم فى توزيع الطعام على الأجراء ، وحبيبة تعطف على الفقراء وخميس واحد منهم . اصطدمت يده بشىء حاد . شعر بالألم . غضب . كيف يتجاسر صعلوك مثل عشرى ويتقول على سيدته ؟ ماذا يحدث لو كان الفيروزى قد سمعه ؟ دفع باب الحجرة التى كانت أمامه بقدمه . وجد صعوبة فى العثور على مفتاح النور . كانت حجرة نوم أخرى غير حجرته . أبصر نفسه فى المرآة كأنه يبصر إنسانا آخر . ليس الحلوانى الذى حمل التراب على كتفيه . أصبح ملكا بين ملوك المال فى الجمالية . تحسس جلبابه الكشمير بأصابعه . كأنه يتحسس شاهده الوحيد على أنه أمير الصاغة ، احتضنه . انفتح طريق الثراء أمامه . وقعت نظرته على السرير . . بدا له كما لو كان سرير محمد على باشا الكبير . ترفض زوجته أن تنام عليه . ضحك ، تذكر أنه صرع مماليك الجمالية الليلة . وفى الأيام القادمة سيمشى فى جنازتهم . . ويصبح أميرهم الوحيد . يريد أن يرى حبيبة الآن . يوصيها بأن تحول قصره إلى متحف عندما يموت . دفع باب حجرة مجاورة . ظنها حجرة حبيبة . أضاء النور . أبصر كروانة جالسة على

الفراش . توقعت أن يلومها لأنها لم تكمل رقصتها . فبان الخوف على وجهها . .

قال الحلوانى :

ــ لم تنامى بعد . . ؟ !

تجمدت الكلمات على شفتيها . .

تذكر ما فعلته بشبانة فقال ضاحكا :

ــ أحسنت . .

لم تفهم كروانة ما يعنى المعلم بكلمته . انكمشت فى جلستها . . قال :

ــ جئت أطمئن عليك . .

جذب الغطاء عليها وهو يقول :

ــ نامى . . أنت فى حاجة إلى الراحة . .

وخرج من الحجرة . دخل حجرة حبيبة . وجدها مضاءة . توقع أن يراها مستيقظة . أبصرها نائمة . أراد أن يوقظها ويسمع اسمه . يحب سماع اسمه من بين شفتيها . . سيدعو الفيروزى إلى حفل عشاء . ولن تتركه هذه المرة . . نظر فى وجهها البرىء . بدت له كملاك . لا يمكن أن تتركه وتذهب . لابد من تأديب عشرى على تجاسره على سيدته . أسرعت خطواته . يرى عشرى الآن . اتجه إلى القاعة الذهبية كما لو كان يتوقع أن يجده هناك . . . يشرف على تنظيف القاعة الذهبية بعد انتهاء الحفل . . أبصر القاعة مظلمة ، ممتلئة بالدخان . لم تنظف بعد . غضب . كيف تركها عشرى هكذا وذهب ؟ صفق . نادى على عشرى . لم يجىء

عشرى . دارت نظرته فى القاعة . لا يطيق بقايا الأشياء . كح . الدخان يخنقه . يريد نسمة هواء . يذهب إلى الحديقة . لا يريد أن ينام . كأن النوم سيسرق منه الليلة التى توج فيها ملكا . وجد خطواته تتجه به إلى الحارة . ونسمة الصباح تطل عليه . . يريد أن يرى الحارة فى صباح تتويجه . وقعت عينه على دكان العطار . . تمنى لو كان قد دعاه ليرى بعينيه مادار فى الحفل ؟ . . لابد أن فلة قد أخبرته . . يريد أن يراه . . ليرى الحقد يجحظ من عينيه . . كأنه سمع عبارة : يارب يا متجلى أهلك العشمانلى . . التفت إلى دكان حمص . . وجده مغلقا . . ضحك . . لم يستغيظ العجوز بعد . . لابد أن سهر الليلة الماضية قد أرهقه . . أبصر نافذة عشرى مفتوحة . فكر فى أن يدخل الوكالة من باب الأجراء . . يفاجىء عماله فى صباح انتصاره . . ويتباسط معهم . . ويخبرهم بأنه عندما عرف بأن عشرى منع عنهم وجبة العشاء . . أمر أدهم بأن يوزع الخراف عليهم . . ولكن عندما اقترب من باب الوكالة . . وجد نفسه يتفحص واجهة البيت الذى شهد خطواته الأولى فى حى الجمالية . . تبين أنه بلا رقم . . حاول أن يتذكر رقمه . . لم يستطع . أبصر فلة تقف أمامه وهى تقول :

ـ المعلم ؟ !

شعر كما لو أنها قد ضبطته فى موقف لا يليق به . . قالت وقد تصورت أنه ذاهب إلى زبيدة :

ـ زبيدة مازالت نائمة !

قال :

ـ أريد عشرى . .

قالت :

ـ أنادى عليه . .

ـ سأصعد إليه . .

وصعد درجات السلم المتآكلة . . استيقظت فى داخله أيامه الماضية التى كانت تعرف فيها خطواته السلم فى الظلام . . تملكته رغبة فى أن يرى الحجرة التى شهدت جدرانها أيامه الأولى فى هذه الحارة . . صعد . . شعر كما لو كان يسقط فى جب . . يكره الماضى . . طرق الباب . . فى الماضى لم يكن فى حاجة إلى أن يطرق بابه . . كان فى كثير من الأحيان لا يغلق الباب . . لم يكن يملك شيئا يخاف عليه . . سمع عشرى طرقات على بابه . ينتظر فطومة . . مر عليها فى الليل وطلب منها أن تجىء فى الصباح الباكر قبل أن تستيقظ الحارة وتراها وهى قادمة إليه . . فالحارة لن تفيق من النوم مبكرا كعادتها كل صباح . فقد سهرت مع حفل الحلوانى . أصاخ السمع . ليست طرقاتها . خاف أن يفتح الباب ويجد أحدا لا يستطيع أن يتخلص منه . ويفسد عليه متعة نهاره . يريد أن يحتفل بهزيمته للمعلم . أسقطه من قمة سعادته عندما قال له أن حبيبة مع خميس . كأنه يسمع صوت المعلم . ارتبك . لا يمكن أن يكون المعلم على بابه . وصله صوت المعلم حاد النبرة :

ـ أفتح يا عشرى . .

عرف أن فطومة قادمة فى الصباح الباكر وجاء ليضبطها فى حجرته . فرصته ليثبت أنه مظلوم . . فتح الباب بسرعة وهو يصطنع الفرحة :

ـ معلمى ؟ !

دارت نظرة المعلم فى الحجرة . ليست حجرته التى كان ينام فيها . تغيرت .

قال عشرى :

— تزور صبيك فى حجرته المتواضعة . . ؟ !

كره لهجته . وقعت عيناه على مقعد عشرى الذى يشبه مقعده . . والعباءة الموشاة بخيوط الذهب التى كانت ملقاة على المقعد . . فقال وهو يتفحصهما بنظراته :

— ما شاء الله . .

قال عشرى :

— فضلة خيرك يا معلم . .

ثقلت عبارته على صدر الحلوانى . . أوشك أن يقول له : كيف تتجاسر على سيدتك حبيبة ؟ ! ولكن نظرته سقطت على قصره من النافذة . . تقدم إلى النافذة المفتوحة . . تذكر عندما كان يمضى ساعات ينظر إلى القصر المهجور . . ويحلم بشراء هذا القصر . . تحقق الحلم . . وحفل افتتاح قصره كان الليلة الماضية . . تذكر أنه قال للفيروزى بأنه قصر حبيبة . . التفت إلى عشرى وقال له بغضبه :

— ماذا قلت ؟ !

فطن عشرى إلى أنه يسأله عن علاقة حبيبة بخميس . . وقبل أن يتفوه عشرى بشىء قال الحلوانى :

— تستقبل امرأة فى حجرتك ؟ !

قال عشرى وهو يشير بيديه إلى الحجرة الخالية :

— الحجرة أمامك . .

— وتكذب . . ؟

وقبل أن يقول عشرى : أنا ضحية وشاية . . كانت صفعة الحلوانى تنزل على وجهه . .

ابتلع عشرى المفاجأة وقال :

— شرف أن يصفع المعلم صبيه . .

هاجم التعب المعلم فجأة . لم ينم منذ يومين . وقعت نظرته على الحديقة . يعود إلى حديقة قصره ويجلس تحت تكعيبة العنب وينتظر حبيبة حتى تستقيظ ويحتسيان الشاى معا . . ثم يذهب لينام

قال المعلم دون أن ينظر إلى عشرى :

— اترك هذه الحجرة . .

وقبل أن تترك نظرته الحديقة قال عشرى :

— أعرف أنك غاضب منى لأنى لم أخبرك لماذا لم تكمل كروانة رقصتها فى الحفل ؟

نظر إليه باهتمام :

— لماذا ؟

— ستغضب ؟

— تكلم . .

— أدهم . .

ضغط المعلم على شفته السفلى . . قال عشرى :

— طلب منها ألا ترقص . . لا يريدها جارية للمعلم !

قال المعلم وهو يخرج من الحجرة مسرعا :

— لا أريد أن أرى وجهك فى الحارة مرة أخرى . .

فوجىء به يخرج مسرعا . أسرع فى إثره وهو يقول :

— القهوة يا معلمى . . لا يجوز أن تزورنى فى حجرتى ولا تشرب قهوتى . . شرفت صبيك يا معلمى . .

انتظر حتى تلاشت خطوات المعلم تماما . . وضحك . . لقد هزم المعلم مرة أخرى . . أطارت كلماته عن حبيبة النوم من عينيه . . وجاء إليه فى الصباح الباكر . . يستفسر عن حكاية حبيبة وخميس . . لم يقو على سماع حديثه . . وهرب إلى سؤاله عن المرأة التى تزوره . . ستجىء فطومة الآن . . وترقص فرحته بهزيمة المعلم على صدرها . . سقط الحلوانى فى قبضته . . عجز - هذه المرة - عن سماع حديثه . . فى المرة القادمة سيضطر إلى سماعه . . ويتجرع حديثه . . لن يترك الحجرة ، وسيرى وجهه كثيرا . . عنده - دائما - ما يقوله له . أحلام المعلم فى الثراء لا نهاية لها . . سيصعد على كتفى الفيروزى لإمارة الجمالية . . وزواج الفيروزى من حبيبة قضية عمره . . وحبيبة فرس جامحة وعليه أن يتبعها أينما جمحت . . لا تغفل عينه عنها لحظة . . أسرع ينظر إلى الحارة من النافذة . . أبصر الأجراء يخرجون من باب الوكالة . . شعر بأن الفرصة قد لاحت . . ينفذ مشروعه المؤجل . . لن يكتفى ببيع المزاج المغشوش لهم . . سيبيع السفر إلى بلاد البترول . . الذى يدفع أكثر يقع عليه الدور بسرعة ويسافر . . سيدفعون كثيرا . . نهر المال يجرى أمام عينيه . . سيشرب ولن يرتوى . . ظمآن . . يريد أن يصبح واحدا من هؤلاء الذين دعاهم المعلم إلى قاعته الذهبية . . تحسس خده الذى ضربه المعلم عليه . . سيدفع هؤلاء الأجراء الثمن . . يستغل زيارة المعلم له فى حجرته . . يشيعها الطهاوى بين الأجراء ويقول : لقد شرب المعلم قهوة الصباح معه وحدثه عن ضيقه

بتصرفات الأجراء فى الحفلة . . تجاسروا على القصر واقتحموا الحديقة وأكلوا الخراف . . لابد من الخوف ليأخذ المال . . لمح طهاوى . أشار إليه ليصعد . . لم ينتبه إلى إشارته . . ينبغى أن ينزل إليه بسرعة . . لن يترك لحظة تمر دون عمل . . الأيام القادمة أيامه . . فتح الباب بسرعة . . أبصر فطومة تقف أمامه قال لها :

— ماذا أتى بك !

●

[١٨]

خفضت كروانة نظرتها . . لم تستطع أن تنظر فى عينى الحلوانى وهو يسألها : أدهم قال لك أنت لست جارية للحلوانى !

أرادت أن تكذب . تصرخ : هذا افتراء . . ولكن شيئا أمسك لسانها . لم تتنفس . ملأها غضب الحلوانى وهو يقول :

ــ من أجل هذا أفسدت حفلتى . . لا أريد أن أرى وجهك . .

تذكرت هذا وهى راقدة فى فراشها . قامت . أغلقت نافذة الحجرة . لا تريد أن ترى أشعة الشمس . عادت إلى سريرها . تمددت . حبست أنفاسها . تريد أن تموت . انتظرت وقتا . . ولكن الموت لا يأتى فى الحجرة المظلمة . شعرت بألم فى جسدها . امتدت يدها تتحسس جسدها . تراجعت يدها . لا تريد أن تلمس جسدا خان حبيبها وارتدى ملابس جارية ورقص للتجار . قال لها أدهم : لا ترقصى للتجار . والحب ألا يعصى الحبيب حبيبه تذكرت غضب الحلوانى . أطبقت جفنيها كأنها تخفى أدهم فى عينيها . تذكرت ما قالته فلة فى الصباح : أدهم ينتظر نجاحه فى كلية الزراعة . . وسيسافر إلى بلاد بعيدة . . عرفت الآن أن ألم جسدها هو ألم الحزن . . سيتركها وحيدة فى هذا القصر الذى تكرهه . . ولكنها تخاف على أدهم من وكالة الحلوانى . . الوكالة غابة . . وأدهم عصفور . . يسافر . . وتتحول إلى فرط الرمان . . حمامة تطير . . تتبع سفينته . . فتحت عينيها لتجد زبيدة تقف فوق رأسها وهى تقول :

ــ تحبسين نفسك فى الظلام . . والشمس تملأ الدنيا ؟ !

وفتحت النافذة وغمرت الشمس الحجرة وهى تقول :

ــ قومى . . السعد جاء لك . . وأنت نائمة !

ثم جلست على حافة السرير وكروانة تعتدل ، خفضت زبيدة صوتها وهى تقول :

ــ ما قلته لك فى ليلة الحفلة قد حدث . . كروانة خطفت الأمير . . جاءنى الفيروزى فى الصباح ، ما زارنى من قبل فى مثل هذه الساعة المبكرة . . أخبرنى بانه سيقيم حفلة يدعو إليها كبراء القوم وطلب منى أن أدعوك لترقصى . .

شعرت كروانة بأن قلبها يخرج من صدرها . تجمدت فى جلستها . .

قالت زبيدة :

ــ فرصتك ياكروانتى . . تعرفين أن الحلوانى يريد أن يزوجه من حبيبة . . ولكن القلب وما يعشق . . أنت أجمل وأصغر من حبيبة . . وأنا عرف هذا النوع من الرجال . . يملك كل شىء . . المال والجاه . . يبحث عن جميلة . . تكون زينة قصره . . لا يهمه من تكون ؟ . . لهم . .

أبصرت زبيدة الرفض فى عينى كروانة فقالت وقد خافت من الهزيمة :

ــ لا تكونى غبية . . الحلوانى يريدك جارية كما يقول لك أدهم . . أما الفيروزى فيريدك أميرة . . إنى واثقة من هذا . . لم يقل لى صراحة . . ولكنى فهمت من اهتمامه بحضورك حفله . . إنى امرأة صاحبة خبرة . . وأعرف الرجال جيدا . .

ثم أمسكت ذراع كروانة وهزته :

ـ الفرصة تجيء للانسان مرة واحدة . . واذا لم يلتقطها تضيع ويمضى العمر نادما ؟

شعرت كروانة بأن دمعة ستفر من عينيها . . مدت يدها كأنها ستمسك دمعتها . .

قالت زبيدة . .

ـ أعرف أن الحلوانى قال لك : لا أريد أن أرى وجهك . . ولكن عندما يعرف أن الفيروزى يريدك سيجيء بنفسه ويرجوك أن تذهبى . .

أرادت كروانة أن تقول :

ـ لست جارية ! .

ولكن دموعها جرت على خديها . . ابتلعت عبارتها . . قالت زبيدة :

ـ تبكين بدلا من أن تضحكى . . ؟ !

●

[١٩]

أبصرت خميس حزينا . شعرت حبيبة بأن قلبها ينزف . ضحكت رغم تعاستها . فقد أخبرتها أمها ـ منذ قليل ـ بأن أباها اختار لها الفيروزى زوجا . . تود أن تتحول إلى ضحكة تجرى على شفتى خميس فقالت وهى تصطنع المرح :

ـ يتصورنى الحلوانى ست الحسن . . يريد أن يزفنى للأمير . . كأنى أعيش فى أيام ألف ليلة وليلة . . يضعنى فى هودج . . ويحملنى العبيد . .

وألقت شعرها إلى الخلف وقالت وهى تنظر إليه :

ـ ويختبىء الشاطر حسن فى الطريق . . ويهجم عليهم . ويعمل سيفه فيهم تقتيلا . . ويأخذنى على جواده الأبيض . . ويحملنى إلى بلاد بعيدة . . ليس فيها أنس ولا جن . .

وكادت أناملها تلامس أنامله وهى تقول :

ـ ونتزوج ونخلف بنات وصبيان . .

ثم أغمضت عينيها وهى تضحك . . توقعت أن تعانق ضحكتها ضحكة خميس . . ولكن خميس لم يضحك . الحزن أكل ضحكته . لقد أبصر أحد الأجراء يناول طهاوى صرة ماله . وعندما تدخل ليمنع طهاوى من أن يسرق ماله . غضب الأجير وقال له : مالى وأنا حر فيه . . ما شأنك بى يا ابن عبد العال ؟ !

حاول أن يقنعه بأنه سيسافر دون حاجة إلى رشوة عشرى ولكن الأجير أعرض عنه . . شعر بالهزيمة . . ذهب الى أدهم يشكو إليه . . أبصره مشغولا بنجاحه والسفر إلى الخارج . . ناوله كوب شربات . . لم يزل شربات أدهم مرارة فمه . . استغرب نفسه . . كيف لا يفرحه نجاح أقرب الناس إليه فى هذه الوكالة ؟! . . وعندما طلب منه بعض الأجراء الذين جاءوا ليشاركوا أدهم فرحته أن يغنى مواويله . . وجدها قد اختنقت فى حلقه . .

شعرت حبيبة بأن حزنه أعمق من أن يذهبه ضحكها فقالت بجديتها :

— ماذا جرى ؟ !

لم يكن يريد أن يتكلم ولكنه وجد نفسه يقول :

— عشرى يا حبيبة ؟ !

تضاحكت وهى تقول :

— ألاعيب جديدة غير بيع المزاج المغشوش للأجراء . .

— يبيع لهم السفر إلى بلاد البترول . .

— ماذا تقول ؟ !

— يروج طماوى بين الأجراء بأنهم لن يسافروا إلا إذا دفعوا لعشرى . .

— ويصدقون ؟ !

— ويسرق شقا عمرهم . . بعضهم يا حبيبة باع فدادينه التى أخذها من الاصلاح الزراعى . .

— سأخبر أبى . .

نظر إليها وكأنه يقول بنظرته : لن يفعل شيئا . .

وكأنها تتحدى :

— سيمنع عشرى من سرقتهم . .

— المعلم لم يفعل شيئا عندما عرف أن عشرى حرم الأجراء من وجبة الطعام فى ليلة الحفلة . . بل ذهب إليه فى الصباح . . صعد إلى حجرته يشرب معه القهوة . . كأنه يكافئه . .

— الحلوانى ليس سيئا كما تعتقد يا خميس . . كان أجيرا كهؤلاء الأجراء . .

— ولكنه يملك قصرا الآن !

— ويحبك .

— وعشرى ساعده الأيمن .

— ولكنه لا يحترمه . .

— ليست هذه هى القضية الآن . . القضية أن عشرى يسرق أموال الأجراء المساكين تحت سمعى وبصرى وأنا أقف عاجزاً .

فتحت عينيها على اتساعهما . . كانت تريد أن تراه جيداً فى هذه اللحظة . .

أمسك ورقة جافة سقطت من الشجرة العتيقة التى يجلسان تحتها وهو يقول :

— هذه الوكالة تسرق منى الأمل الذى يمتلىء به صدرى . .

انخطف قلبها ، كأن عبارته ستسرق منها الأمل الذى وجدته فيه .

قال خميس :

ــ كأنى أسقط فى دوامة من الرمال المتحركة .. تبتلعنى شيئا فشيئا ..

وجدت نفسها تقول : أنت فارسى ..

نظر إليها ، وكأنه يقول بنظرته : نحن نعيش فى عصر الفارس المهزوم ..

ثم ضحك ضحكة قصيرة ..

ــ كنت فوق رمال سيناء .. لا يبتلعنى هذا الشىء .

وصمت .. تطلع إلى الشجرة العتيقة ، كأنه اكتشف اللحظة أن الخريف اغتال أوراقها .. وضح الأسى على وجهه وهو يقول :

ــ فى كل صباح .. أستيقظ لأجد شيئا فى داخلى يحترق ..

ضحكت ، كأنها بضحكتها تريد أن تقول له أنها المعاناة التى تحبها فيه .. فكرت فى أن تزيل الحزن عنه .. تحكى له عن نادى الفروسية .. وحمادة المنصورى الذى يشكو لفتيات النادى إهمالها له فى حفل أبيها ..

وكأن ضحكتها أشعلته فقال :

ــ أشعر بأن كل واحد فى هذه الحارة يتحدث لغة لا يفهمها الآخر ..

أطفأت حديثها فى صدرها وأصغت ..

ــ أبوك الحلوانى يريد أن يعيد الزمن الذى ذهب .. يتصور أن فى

قدرة ماله أن يعيد الماضى .. ويصبح هارون الرشيد .. يصفق مترقص له جارية .. وأدهم يرفض أن تكون حبيبته كروانة جارية .. ولا يمد لها يده .. وتقاوم كروانة رغبة المعلم ولا تجد غير غثيان معدتها تلقيه على وجه تاجر الفضة .. وهؤلاء الأجراء المساكين الذين تركوا أراضيهم .. وجاءوا وراء حلم الثروة ليسقطوا فى شراهة عشرى .. وعندما أحذر أحدهم يغضب ويؤيده الأجراء بالصمت .. وأنت ..

وكأنها ذابت فى حروفه وهو يقول :

ــ لا أفهمك .. تتركين القصر وذهب الفيروزى .. وتعذبين كاتبا مرموقا كحمادة المنصورى .. وتجيئين إلىّ ..

لم تشعر بأنها أحبته مثلما تحبه اللحظة وهو يقول :

ــ وأنا فلاح لا يملك سوى أوهامه ..

تمايلت ، وكأنها ثملت ، امتلأت بصدقه .. تنبه خميس إلى أنه قد فرك ورقة الشجر الجافة بيده فقال فى أسى :

ــ تصورت وأنا آكل النيران فوق رمال سيناء بأسنانى .. أننى قد عثرت على نفسى ..

أبصرت طماوى يتحدث مع أحد الأجراء وهو يقول :

ــ ولكنى اكتشفت فى هذه الوكالة أننى لم أعد أعرف من أنا ؟ !

ثم لاذ بصمته . وكأنه بصمته يقول : ضعت يا حبيبة !

بدا لها كطفل .. قالت كأم :

ــ خميس

تطلع إليها ، قالت :

ـ سأسافر معك إلى قريتك لنطمئن على أشجارك .

شعر بأن الدموع ستطفر من عينيه وهو يتذكر أشجار برتقاله .

قال حبيبة :

ـ خميس . . تحبنى ؟ !

كأنه سمع صوت المياه وهى تروى أرضه . مد يده ، أمسك يدها ، كأنه يمسك تربة فدادينه وقد ارتوت . أحس أن الدنيا عصفورة تزقزق . أبصر الطماوى . جاء ليتصنت على حديثهما . . ترك يد حبيبة . أشار إلى طماوى بيده وقال بصوت عال :

ـ تعال يا طماوى . . اجلس معنا . . لا نتحدث بشىء يؤذى أحدا . .

وعندما نظرت حبيبة فى اتجاه نظرة خميس . . كان طماوى قد اختفى . . أبصرت شيئا من الخوف فى عينى خميس . . أمسكت يده بقوة . .

أشار بيده إلى الباب المغلق الذى يفصل الوكالة عن القصر وقال :

ـ مادام هذا الباب مغلقاً . . فلابد من أحد ينقل للمعلم ما يدور وراء الباب المغلق . .

ـ سأفتحه . .

ـ لا يكفى . .

ـ ماذا يكفيك ؟ !

ـ أن يفتح المعلم قلبه للأجراء . .

ـ ساعدنى . . هذا حلمى . .

ـ والحلم يتلاشى بمجرد أن تلمس عيوننا الصباح . .

غمرها الخريف . . تطايرت الأوراق الجافة حولها . .

قال وهو يشير للورق الذى يتطاير :

ـ يسبح ضد تيار الموت !

ارتجفت من ذكر الموت فى هذه اللحظة :

ـ وإرادة الحياة التى تحدثنى عنها دائمًا .

ابتسم وهو يقول :

ـ لا تكفى لهزيمة الموت . .

قالت فى تحد :

ـ سأخبر أبى . . بأننا سنتزوج . .

وقال بصمته : ويقتلنى ؟ !

قالت بفرحة غامرة :

ـ ونسافر إلى قريتك . . أرعى فدادينك وأروى شجرك . .

وقال بأسى :

ـ وأبى عبد العال نتركه هنا . .

قالت :

ـ نأخذه معنا . . أحبه كأبى !

اشتدت رياح الخريف حولها ، وقف خميس يريد أن يحميها بجسده

من هبة الخريف المترية .

قالت حبيبة :

ـ أريد أن أبقى .

جذبها من يدها . استسلمت . لم تقاوم . دخلت الوكالة فى يده وضحكتها حولها . . ودهشة الأجراء الذين تصادف وجودهم تملأ وجوههم . .

●

[٢٠]

لمح عشرى فرصته ، قبل الفيروزى دعوة الحلوانى لحفل عشاء يقيمه فى قصره . والنـاس فى الحـارة يتحـدثـون عن قراءة فاتحة حبيبـة على الفيروزى . وطماوى أخبره بأن حبيبة قد وقعت فى هوى خميس وأن خميس قد تجاسر وأمسك يدها أمام الأجراء . لن يترك فرصته تفلت من يده . . جذب حقيبة فارغة من فوق الدولاب . .

فطن الطماوى إلى ما سيفعله عشرى فقال مدعيا الغباء وهو يشير إلى الحقيبة التى يجمع فيها ملابسه :

ـ معلمى . . ما هذا الذى تفعله ؟ !

قال عشرى متخابثاً :

ـ سأترك الحجرة . . الحلوانى أمرنى . . وسأنفذ أمره . .

ـ وصبيك طماوى ؟ !

توقفت يده عن وضع ملابسه فى الحقيبة وقال وهو يرمقه بنظرته :

ـ ستحزن لو تركت الحارة ؟ !

اصطنع طماوى التأثر وهو يقول :

ـ أنا سمكة . . لو تركنى بحرى أموت .

ضربه عشرى بقبضة يده على صدره وهو يقول :

ـ من علمك هذا الكلام الحلو ؟ !

ـ معلمى يا معلم !

ضحك عشرى ثم توقف عن الضحك وهو يقول :

ـ أراهن أنك سترقص فى الحارة لو تركت حجرتى ، وذهبت .

ـ ما هذا الكلام الذى تقوله يا معلمى ؟ . . العشرة تهون على أولاد الحرام . .

أراد عشرى أن يسخر منه ويقول له : وأنت لست منهم . . ولكنه قال وهو يلقى بما فى يده من ملابس فى الحقيبة . .

ـ لن أترك وكالة الحلوانى حتى أمتص آخر قطرة فيها !

وامتلأت نظرته بالتحدى وهو ينظر فى اتجاه القصر :

ـ لن أترك حارة الحلوانى إلا جثة !

قال طهاوى وهو يتصنع عدم الفهم :

ـ إذن لماذا تجمع ملابسك ؟ !

ـ غبى . .

ـ لينورنى معلمى !

قال عشرى بشىء من الغضب :

ـ أغلق فمك . . وأغلق الحقيبة واتبعنى . .

ـ أمرك يامعلم . .

حمل الحقيبة ونزل فى إثره . . توقف عشرى أمام بوابة القصر ، وقال بصوت خفيض :

ـ سأدخل على الحلوانى فى قاعته الذهبية . . وتنتظرنى على الباب

وعندما أناديك تدخل مسرعا . . وسأسألك عما رأيته . .

ـ لا أستطيع . .

تملكت عشرى الدهشة :

ـ لماذا ؟

ـ لأنى غبى يا معلم ؟ !

ـ ذكى يا ولد . .

دس عشرى يده فى جيبه وأخرج ورقة مالية . . ناولها له . .

قال طهاوى بصوت عال وهو يمسك الورقة بقبضته :

ـ لا تكفى يا معلمى !

ـ لا ترفع صوتك حتى لا يسمعنا العطار !

ثم جذبه من يده وأدخله القصر وقال له على باب القاعة الذهبية :

ـ سترى ما رأيت . .

لن يترك الفرصة تفلت منه حتى يأخذ ورقة مالية أخرى . . فقال :

ـ امسك يدى يا معلمى . . جسدى يرتعش . . لا أتجاسر على الحديث عن حبيبة أمام المعلم !

ناوله ورقة مالية أخرى بسرعة . وهو يقول :

ـ خذ هذه أيضا حتى لا يرتعش جسدك .

قال طهاوى وهو يدس الورقتين فى جيبه الداخلى :

ـ لا يحرمنى الله من خير المعلمين .

دفع عشرى باب القاعة الذهبية . . أبصر المعلم يجلس على مقعده . . يدخن نرجيلته . . كان الحلوانى منتشيا . . غمرته حبيبة بحبها منذ قليل . . استجابت لرغبته فى حضور حفل عشاء الفيروزى . . شعر وهى تنطق باسمه : حلوانى . . بأن الدنيا قد أصبحت فى قبضته . . ستتزوج الفيروزى . . ويقيم لها حفلا لم تشهده الجالية من قبل . . يعب دخانه . . رن فى رأسه صوت الدفوف . . يغمض عينيه . . كأنه سيزف لإمارة الدنيا . . فتح عينيه . . يرى فحم النرجيلة . . ما زال عامرا بالمزاج . . أبصر عشرى يقف أمامه . . أوشك أن يقول له : أسرع إلى الطباخين . . قد يحتاجون إلى شىء . . فوجىء به يقترب نحوه ويرتمى تحت قدميه وهو يقول :

ــ أريد أن تغفر لى . .

انتبه إلى أن هناك حقيبة معه وهو يقول :

ــ لا أريد أن أترك حجرتى وأذهب قبل أن يصفح عنى معلمى . .

تذكر الحلوانى أنه فى لحظة غضب . . طلب منه أن يترك الحجرة ، أراد أن يقول له : صفحت عنك . .

ولكنه قال :

ــ ما قلته عن خميس كان كذبا !

حانت الفرصة لعشرى . نادى بسرعة على طهاوى ، وقبل أن يقول له المعلم : لا تناد على أحد . . كان طهاوى قد دخل وقبل يد المعلم . .

قال عشرى بسرعة :

ــ لن أتكلم . . سيتكلم طهاوى

قال طهاوى وكأنه قد لقن ما يقوله :

ــ خميس كان . .

تضايق عشرى من طريقته . . قال له كأنه يزجره :

ــ من الذى رأيته تحت الشجرة ؟ !

ــ خميس . .

ــ مع من ؟ !

تذكر نظرة خميس فتوقفت كلمة حبيبة . . فى حلقه . .

قال عشرى وهو يرمقه بنظرة صارمة :

ــ لا تخف . . تكلم . .

ولانت نبرته وهو يقول :

ــ المعلم يريد أن يعرف . . ولن يغضب . .

لم يستطع أن يتخلص من الرعب الذى تملكه من نظرة المعلم رغم أنه اتجه بكلماته إلى عشرى وهو يقول :

ــ مع الست الهانم .

وكأن جبلا قد سقط فوق رأس الحلوانى وهو يسمع عبارة : مع الست الهانم . . يتحدثون عن ابنته حبيبة . . يريد أن تمتد يداه وتخنقا صوتيهما . . ولكن عشرى قال بسرعة :

ــ وماذا حدث بعد ذلك ؟ !

لمح طهاوى فرصته . . يدافع عن حبيبة يقول : هذا كذب . . ويبكى . ويقول . أجبرنى يا معلم على أن أختلق هذا الحديث . . ويغتال

عشرى ويصبح ساعد المعلم الأيمن . .

فقال :

ـ لا أستطيع . .

امتلأ المعلم بالغضب . . لا يمكن أن يحدث شيء بين ابن أجير . . وابنته صاحبة القصر . . والتى ستزف إلى الفيروزى . .

قال بكل غضبه :

ـ تكلم . .

أراد طهاوى أن يقول : عشرى مجرم . . . ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة عشرى فقال :

ـ مجرم

قال الحلوانى :

ـ من ؟ . . انطق . .

أبصر طهاوى عشرى يحاصره بنظراته فقال :

ـ خميس يتجاسر على الست الهانم . .

قال الحلوانى :

ـ خميس يتجاسر على حبيبة . . لا يمكن . .

قال عشرى بسرعة كأنه يسدد سهمه الأخير له :

ـ امسك يدها أمام الأجراء . .

وكأن زلزالا قد أصاب قصر المعلم . . شعر أن الدنيا تتساقط فوق رأسه . .

أراد المعلم أن يقول لهما : اذهبا . . ولكن كلمته وقفت فى حلقه . .

قال عشرى :

ـ اذهب يا طهاوى . .

تثاقلت خطوات طهاوى وهو يغادر القاعة الذهبية . .

انتظر عشرى حتى ذهب الطهاوى واقترب من المعلم وقال :

ـ خميس خان المعلم . . والذى يخون يستحق الموت . .

امتلأت عينا المعلم بوجه حبيبة وهى تقول : حلوانى لا تغضب . . سأحضر حفل العشاء . .

سمع عشرى يقول :

ـ نتخلص من خميس فى مشاجرة !

شعر بالاختناق . . قفز إلى رأسه صوت خميس وهو يحدثه بحديث يحبه . . كيف يخون من يقول هذا الحديث الذى يحبه ؟ !

أراد أن يقول لعشرى . . لا تفعل . ينبغى أن يتحقق مما سمع . . ولكنه وجد نفسه يقول :

ـ احمل حقيبتك . . وعد إلى حجرتك . .

ارتمى عشرى على قدمى المعلم وهو يقول :

ـ لا أستحق كل هذا الكرم . .

●

[٢١]

شعرت حبيبة كما لو كانت عصفورة وهى جالسة بجوار والدها على مائدة الطعام التى أعدها للفيروزى . . استجابت لرغبته عندما قالت لها أمها : لن يستطيع أبوها أن يرفع رأسه فى حى الجمالية ما لم تحضرى حفل العشاء . تخاف على أبيها .

تمايلت نحوه فى سعادة . بدا لها كعريس وهو فى ملابسه الجديدة . تذكرت خميس وهى تجلس معه تحت الشجرة وتقول له بجسارتها : تحبنى ؟ ! . . فيمسك يدها بأصابعه الخشنة . . ويقفز قلبها وهى تحس بأصابعه على يدها . . انطلقت ضحكتها بعد أن سمعت نكتة رواها الفيروزى . . الفيروزى ليس ثقيل الظل كما كانت تعتقد . .

قال لها الفيروزى وهو يشير إلى عنقها ويديها :

ــ ألا تحبين الذهب ؟

قالت بضحكتها :

ــ بعدأن سمعت نكتتك سأحب الذهب . . وأملأ عنقى وأصابعى بذهبك !

ابتهج الحلوانى . . وافقت حبيبة على زواجها من الفيروزى . شعر الفيروزى بشىء من الزهو . . أثارت حبيبة اهتمامه قبل أن يراها فى الحفلة التى أقامها الحلوانى فى قصره . سمع عنها الكثير . . وعندما رآها شعر برغبة فى أن يحادثها . . وعندما رفضت أن تجلس معه على مائدة الطعام فى الحديقة أحس بالإهانة . . لا يتصور أن هناك امرأة ترفضه . . استجاب

لدعوة الحلوانى للعشاء . كان يعرف أنها ستحضر . يريد أن يهزمها . شعر بالسعادة وهو يلتهم صدر الفرخة التى كانت بين أصابعه .

امتدت يد حبيبة إلى طبق اللحم الذى تحبه . تريد أن يأكل خميس منه . أوشكت أن تطلب من عشرى الذى كان يهمس فى أذن الحلوانى أن يدعو خميس . توقفت كلماتها ونظرتها تلتقى بنظرة عشرى . أحست بالخوف . ارتاحت لانصرافه مسرعا . عادت إلى طبقها الذى تحبه . فقد اللحم مذاقه فى فمها . توقفت عن المضغ .

قال لها الحلوانى وقد شعر بالبهجة :

ــ أمك ستغضب منى عندما تعرف أنك لم تأكلى طبق اللحم الذى أعدته لك . .

اكتشفت فى هذه اللحظة وهى تنظر لأبيها الذى كان يجلس أمامها أن شيئا منه فى خميس . عرفت الآن لماذا أحبت خميس ؟ ! لقد عثرت على شىء من أبيها فى رجل آخر . . لن تترك خميس حتى لو مشت فى إثره إلى آخر الدنيا . . ستكاشف أباها بعد أن ينتهى حفل العشاء بحبها لخميس ورغبتها فى الزواج منه . . سمعت ضحكة أبيها . . خيل لها أنها ضحكة خميس . . ضحكت من قلبها . . كانت تريد أن تعانق ضحكتها ضحكة خميس فى هذه اللحظة . أحست بجمال الزهور التى تحيطها فى حجرة الطعام . خميس هو الذى قطفها بأصابعه ، عادت لها شهيتها وهى تملأ عينها بالزهور التى نسقها خميس . امتدت يدها إلى طبق آخر . .

قال الحلوانى وهو يرقب ابنته بفرحته :

ــ حديث الذهب فتح شهيتها !

كانا يتحدثان عن الذهب . . .

ضحك الفيروزى وهو يقول :

ـ الابنة لأبيها . .

لم تضحك حبيبة . كانت تحس أن خميس يجرى فى شرايينها يأكل نصيبه من الطعام تطلعت إلى الباب . كأنه سيدخل اللحظة . تحلم . استيقظت على صوت أبيها وهويزعق :

ـ من أدخل هذا إلى هنا ؟ !

تبينت أن خميس يقف أمامها والدم يسيل من رأسه . . التقت نظراتهما فى لقاء خاطف ثم اتجه خميس بحديثه إلى المعلم :

ـ عشرى أطلق الرجال على . . افتعلوا مشاجرة . . وضربونى على رأسى . . يريدون قتلى !

وكأن حبيبة قد صرخت . لم تكن صرخة حبيبة كانت صرخة فلة التى رأته وهو يدخل قاعة الطعام والدم يسيل من رأسه فدخلت فى أثره . وكأن هذه الصرخة جعلت خميس يسقط بين يدى حبيبة التى قامت بلهفتها تحاول أن توقف نزيفه ، ارتبك الحلوانى . زعق الفيروزى يطلب الإسعاف . صنعت حبيبة من نفسها ضمادة . توقف نزيف حبيبها . لم يتوقف الدم . وقبل أن يتحرك أحد من قاعة الطعام كان خميس قد أطفأ شمعة عمره بين يدى حبيبة . لم تستطع حبيبة أن تصرخ . . كل ما استطاعته هو احتضانه بصدرها . . كأن صدرها سيعيد الضوء لشمعة عمره . عجز الحلوانى عن أن يفعل شيئا . تأكد فى هذه اللحظة أن ابنته قد أحبت خميس . وما قاله عشرى كان صحيحا . صرخ فى فلة التى كانت تولول . جاء رجال الحلوانى مهرولين . انتزعوا خميس من صدر حبيبة . قاومت . هاج الحلوانى . صرخ :

ـ حبيبة . . . !

قال الفيروزى متأثرا :

ـ شىء يفوق احتمال الرجال . . !

هدأ الحلوانى . لم يفهم الفيروزى مافهمه من أن ابنته تحب ابن الأجير .

جرت حبيبة وراء خميس وقد حمله الرجال . . لا يمكن أن يموت خميس . . . روحه الكبيرة لايمكن أن تذهب هكذا فى لحظة . . .

قال الحلوانى للفيروزى يبرر تصرف حبيبة :

ـ ابنتى قلبها رقيق . . تعطف على الفقراء :

●

[٢٢]

فى الليل ، وموت خميس يملأ الوكالة بالحزن وعبد العال يبدو كما لو أن روحه قد خرجت من جسده بعد أن حملوا له ابنه جثة . . فبدا كميت . . لا يتكلم . . وصوت أحد الأجراء يرجوه أن يفرج عن نفسه بالبكاء . . دخل عليهم المعلم . . وقف الذين يعرفونه مذعورين . . والذين لا يعرفونه . . عرفوا من ذعر من وقفوا أنه صاحب القصر فهبوا واقفين . . أشار الحلوانى إليهم ليجلسوا . . لم يجلس أحد . . لا يتصور أحد منهم أن يجلس فى حضرة صاحب القصر . . تنبه البعض إلى أن عبد العال ظل جالسا ، يخاف عليه من بطش المعلم . حاول أن ينبهه إلى واجب الوقوف ولكن عبد العال كان ينظر إلى المعلم . . يعرف أنه الذى أمر بقتل ابنه . . لا يمكن أن يدخل غريب الوكالة دون علمه . . حكى له من تصادف أن رأى ما حدث . . أن بعض الأغراب دخلوا الوكالة . . وتحدثوا مع ابنه فى استفزاز وانهالوا عليه ضربا بالعصى . . قتله المعلم لأنه تحدث مع ابنته حبيبة !

فطن المعلم من نظرة عبد العال أنه يحمله مسئولية موت ابنه . تذكر صمته يوم أن عرض عليه عشرى التخلص منه فى مشاجرة . تملكه الخوف للحظة . دارت نظرته حوله . يبحث عن أدهم . توقع أن يراه . أرسل فى طلبه . يعرف حب الأجراء له . يريد أن يكون إلى جواره الآن . لم يجد ابن السقاء . تضايق . هاجمته رائحة العمال الخانقة . دفع أحدهم بعنف وهو يتقدم نحو عبد العال ويقول فى عصبية واضحة :

ــ البقية فى حياتك يا عبد العال . .

خفض عبد العال رأسه . .

وكأن عبد العال قد تقبل منه العزاء . . اتجه إلى العمال بحديثه وقد شعر بشىء من القلق من صمت عبد العال . . . قال :

ــ الله يرحمه . . كنت أحبه . . وأدعوه إلى الجلوس معى وأشرب الشاى معه . . كنت أرتاح إلى حديثه . .

سمع صوتا خفيضا يقول : نعرف حبك له . .

أراد المعلم أن ينظر فى اتجاه الصوت الذى كان قادما من خلفه ولكنه لم يفعل . . استمر فى حديثه . . قال :

ــ قلبى يتمزق . . لا يفارق عينى منظر خميس . . وهو يدخل على وأنا آكل . . والدم يسيل من رأسه . . كان يريد أن يرانى قبل أن يموت . . مات بين يدى ابنتى حبيبة . .

رفع صاحب الصوت الخفيض صوته وهو يقول :

ــ بنت الأصيل أصيلة . .

وضح للأجراء من عبارة الرجل أنه ليس منهم . لا يطيقون ذكر حبيبة الآن . . اندفاعها هو الذى جعل خميس يقع فى حبها ويموت .

وكأن المعلم ينتهز الفرصة ، ينفى ما يتردد فى الوكالة من أن ابنته كانت على علاقة بخميس فقال :

ــ كان خميس بمنزلة الأخ لابنتى . . ليس لى ولد . .

اقترب الرجل الغريب من عبد العال وهو يكاد يمسك بخناقه :

ــ أسمعت ؟ !

رفع عبد العال رأسه . بدا أن غضبه المكتوم سينفجر فقال المعلم بسرعة :

ــ عبد العال معذور . . فقد ابنه الوحيد فى مشاجرة تافهة . . يشعر فى داخله بأنه المسئول عن موت ابنه . . لوسمع كلام ابنه وعاد معه إلى قريتهما . . لما حدث ما حدث . . ولكنه المقدر والمكتوب . . وهذا قضاء الله . . ينبغى التسليم به . .

قال الرجل الغريب يستفز عبد العال :

ــ تكلم . .

شعر أحد الأجراء بالخطر يحيط بعبد العال فقال :

ــ لن يتكلم عبد العال . . اتركه فى حاله . .

تضايق الحلوانى من تجاسر أحد الأجراء وتحدثه أمامه فقال موجها حديثه للأجير الذى تحدث :

ــ من الذى قتل خميس ؟ !

أوشك الأجير أن يقول : الأغراب . . وهذا واحد منهم . . ولكنه صمت والمعلم يقول :

ــ قتلوه بينكم . . فى هذه الوكالة . .

شعر الأجراء بالخوف . . أحس عبد العال بأن المعلم سيظلم الأجراء . يريد أن يحملهم دم ابنه . وخميس يكره الظلم .

قال وهو يشير إلى الأجراء :

ــ هؤلاء لا يقتلون خميس . . يحبونه . .

اقتنع الحلوانى فى هذه اللحظة أنه ينبغى أن يطرد عبد العال من الوكالة كما أشار عليه عشرى . .

قال وقد استبد به الغضب :

ــ لن أترك قتلته يفلتون من يدى . . دمه فى رقبتى . .

تنبه بعد أن نطق بعبارته الأخيرة بأنها تحمل الاتهام لنفسه فقال بسرعة :

ــ دمه فى رقبتى حتى أحصل على قتلته !

نظر إليه عبد العال نظرة تشتعل بالثأر الذى يغلى فى داخله :

ــ دم ابنى لن يذهب هباء . .

أوشك المعلم أن ينطق بعبارة : عبد العال ، غادر الوكالة الآن . . ولكنه قال :

ــ اطمئن يا عبد العال . . فلن يذهب دمه هباء . . كيف أترك دم ابنى يذهب بلا عقاب ؟ !

شعر الحلوانى بأنه يختنق برائحة العمال . . دس يده فى جيبه يخرج منديله المعطر بالطيب . تذكر الأوراق المالية . . أحضرها معه ليعطيها لعبد العال . أخرجها . توقع أن يضعف عبد العال عندما يراها . قربها من عبد العال . . ولكنه لم يمد يده . .

قال الرجل الغريب :

ــ خذ يا عبد العال . . يد المعلم ممدودة لك !

شعر الحلوانى بالإهانة . نظر إلى الرجل الغريب وقال له :

ـ ما اسمك ؟ !

ـ محسوبك فرغل . .

ـ فرغل . . لو كنت من عبد العال لما أخذت عوضا . . مال الأرض لا يعوض شابا مثل خميس !

احتار فرغل الذى جاء به عشرى ليتجسس على الأجراء . . ماذا يقول ؟ ! . . لم يجد سوى عبارة « الله أكبر » ليرددها . ألقى المعلم بالأوراق المالية على الأرض . تناثرت . توقع المعلم أن يهجم الأجراء عليها ويتشاجروا . وضع منديله المعطر على أنفه . وتمهل وهو يخرج . يريد أن يبصر الأجراء وهم يتقاتلون . . ولكن الأجراء لم يفعلوا ما توقع . .

●

[٢٣]

سمع على العطار صوت عم حمص وهويكح ويردد عبارته « يارب يامتجلى اهلك العثانل » . شعر العطار بقدرته . . هلاك الحلوانى سيكون على يديه . . تقدم إلى فلة التى كانت تجلس على مقعده تقلب فنجان قهوته بين أصابعها وقال كأنه يدلى بشهادته أمام المحكمة :

ـ الحلوانى هو القاتل !

ارتعش فنجان القهوة بين أصابعها . تخاف عليه من الحلوانى ، فقد أعصابه بعد أن حبست حبيبة نفسها فى حجرتها .

قال لها :

ـ ماذا يقول الفنجان ؟ لا تخفى عنى شيئا . . لابد أنى منصور . . سيلتف حبل المشنقة . .

قاطعته فى خوف :

ـ لا ترفع صوتك . .

قهقه العطار ورفع صوته وهو يقول : •

ـ أخاف من قاتل ؟ !

ازدادت خوفا وهى تلمح رجلا غريبا يقترب من باب الدكان :

ـ الحارة امتلأت بالأغراب !

ـ الحكومة ليست نائمة . .

أبصرت الرجل يدخل الدكان فأسرعت تقول :

ـ لا تتكلم . .

اتجه العطار إلى الرجل مرحبا :

ـ أهلا وسهلا . .

بدت الدهشة على وجه الرجل وهو يقول :

ـ أريد شمعا ومغاتا . . ما يلزم لسبوع الولد . .

قال العطار مبتسما وقد فطن إلى أنه يفعل هذا ليخفى مهمته السرية :

ـ مبروك . .

ثم التفت الى فلة متجاهلا نظراتها الغاضبة وكأنه يستكمل حديثا معها :

ـ الأمر ليس معضلة يا فلة . . ابحثى عن صاحب المصلحة . . تعرفى من هو القاتل ؟ !

وكأنها سألته توضيحا فقال :

ـ سأوضح لك الأمر . . حبيبة تحب خميس . . ابن الأجير عبد العال . . وتريد أن تتزوجه . . والحلوانى يريد أن يزوجها من الفيروزى أثرى أثرياء الصاغة لكى يزداد ثراء . . طبيعى يأمر رجاله بالتخلص من خميس فى مشاجرة . . ليس فى الأمر لغز !

ثم التفت إلى الرجل ، يرى أثر حديثه ، ولكنه أبصره قد انشغل بتفتيش جيوبه . يحصى ما معه من نقود . تضايق للوهلة الأولى ، ولكنه ما لبث أن تنبه إلى أن هذا من عادة رجال الشرطة السريين . يتظاهرون بأنهم لا يهتمون ولكنهم ينصتون لكل حرف يقال . .

قال فى ثقة :

ـ أنى واثق أنهم سيقبضون على الحلوانى . .

اندفعت فلة فى انفعال وهى تقول :

ـ لا . .

تبينت بعد انفعالها أنها تخاف على الحلوانى من أن يمسه شىء فهو سندها فى الحارة عندما تضيق بها الدنيا . .

التفت العطار إليها فى غضب :

ـ نتستر على قاتل ؟ !

تبين الرجل الغريب بعد أن أحصى نقوده أنها لا تكفى لدفع ثمن المغات المرتفع . . فقال فى شىء من الحزن وقد عز عليه ألا يشترى ما طلبته امرأته التى جاءت له بولد بعد طول انتظار :

ـ حلبة صفراء بدلا من المغات يا معلم . .

تنبهت فلة إلى أنها قد أخطأت فى انفعالها أمام الرجل الغريب ، أبصرته مستمرا فى وزن المغات ، قالت بصوت منكسر ، كأنها تسترضيه :

ـ الرجل يريد حلبة صفراء يا على . .

كأنها لم تقل شيئا ، استمر العطار ، فى لف المغات ، اغتاظت . وجدت نفسها تقول :

ـ الحلوانى وعد عبد العال بأن يبحث عن القاتل . .

التفت العطار إلى الرجل . . المندهش من إصراره على بيع المغات له وقال له :

ـ أرأيت . . القاتل يبحث عن نفسه ؟!

قال الغريب فى شىء من نفاد الصبر :

ـ لا أريد مغانا !

وضع العطار لفة المغات فى الكيس وهو يقول :

ـ هدية من على العطار للمولود السعيد !

ظنه الرجل يسخر منه . مد يده بكل ما معه من نقود .

قال العطار :

ـ شرفت دكان على العطار !

ناوله الكيس . تردد الرجل فى أن يأخذ الكيس . قال له :

ـ تفضل . . .

تلعثمت كلمات الشكر على لسانه . ظلت يده ممدودة بالنقود . انتبه إلى أن المرأة الجالسة فى صدر الدكان غاضبة . ظنها زوجته . خشى أن تدفع المعلم إلى أن يتراجع عن هديته ويأخذ نقوده التى لا يملك غيرها . أسرع ودسها فى جيبه . وخرج مسرعا وهو غير مصدق أنه يحمل كل ما طلبته زوجته دون أن يدفع مليما . . .

نظر العطار إلى فلة التى وضع عليها أنها ستلومه على تصرفه فقال بصوت عال :

ـ الذى يضعه العطار فى رأسه لا يفلت من يده !

أبصر الطواى أمامه . يعرف أن الشرطة قد استدعته . قال له :

ـ أفرجوا عنك ؟!

تنبه طواى إلى وجود فلة . تضايق . ظل واقفا فى الحارة حتى خرج الرجل . قال غاضبا :

ـ لست مجرما !

قال العطار باهتمام :

ـ ماذا قالوا لك ؟ !

أبصره ينظر إلى فلة فقال :

ـ لا تخف من فلتى . .

أوشك أن يخرج طواى من الدكان . لن يحدث العطار أمام فلة . يريده على انفراد . يأخذ مالا كثيرا لقاء الأخبار التى يرويها له . . ولكنه أبصره يفتح درج نقوده . توقف عن الخروج وهو يقول :

ـ لا أخاف من فلتى !

اغتاظت فلة . أوشكت أن تسبه . نظر إليها العطار ، ابتلعت سبابها .

قال العطار وقد امتلأت قبضته بالمال :

ـ احك لى . . سيقبضون على الحلوانى !

مد الطواى يده بسرعة . أخذ ما فى قبضة العطار من نقود ، وكأنه يخطفها وهو يقول :

ـ سيشنقونه !

قال العطار بلهفته :

ـ متى ؟ !

تبين طماوى أنه تورط . خاف أن ينفضح أمره ويفقد العطار . . الذى يغدق عليه المال . . فنظر إلى فلة وقال :

ـ أرأيت يا معلم . . كيف تنظر إلى فله ؟ !

قالت وهى تقاوم انفجارها :

ـ أشاهد جمالك ؟ !

ـ أسمعت ؟ !

ثم تصنع الذعر وجرى ، كأن فلة قامت إليه لتضربه .

لم يستطع العطار أن يقاوم ضحكه من منظره وهو يجرى مذعورا شعرت فلة برغبة فى البكاء . ولكنها تمالكت نفسها وقالت :

ـ على . .

اقترب منها ، وكأنه سيقبلها ، وقد انتابته نشوة من السعادة وهو يتصور الحلوانى مشنوقا :

ـ عيون على . .

ـ ابعد عن سكة الحلوانى !!

قال مازحا :

ـ تحبينه ؟ !

ـ لا داعى للعبث . . طماوى يستغل رغبتك فى معرفة أخبار الحلوانى ويكذب عليك . . وأنت تعطيه مال أولادنا . .

تجاهل العطار ما سمع وقال :

ـ لو كنت تحبين العطار حقاً . . لأخبرتيه بما يقول الفنجان . .

نظرت الى فنجان قهوته الذى مازال أمامها وقالت :

ـ لا مزاج لى الآن !

ـ حزينة على الحلوانى !

انفجرت دموعها . .

قال :

ـ وفرى دموعك حتى يلتف حبل المشنقة حول رقبته الغليظة . . فستحتاجين إلى دموع كثيرة !

ثم راح يضحك بصوت عال وهو ينظر إلى قصر الحلوانى . .

●

[٢٤]

يشتعل عشرى كجمر نرجيلته . لن يطفئه سوى بحر فطومة . يريدها اللحظة . أرسل إليها طهاوى . لا ترد له طلبا . سبح فى دخانه . كأنه موجة فى بحر انسجامه . لم تطلبه الشرطة . لن يستطيع أحد أن يتهمه بقتل خميس . ألهب جنون بحراوى وصعيدى بين الأجراء دون أن يشعر به أحد . وتبارت العصى المشرعة دائمًا للشجار . وتساقطت على رأس خميس . تذكر ما قاله خميس للحلوانى والدماء تسيل من رأسه : عشرى أطلق الرجال على . افتعلوا مشاجرة وضربونى على رأسى . يريدون قتلى . لن يستطيع أحد أن يثبت أنه وراء قتل خميس . قفزت إلى عينيه نظرة خميس التى يخافها . ضحك . انتهى خميس . ويرحل أدهم إلى بلاد بعيدة . وانشغل الحلوانى بحبيبة . ويتسابق الأجراء على شراء وده اتقاء لشره . ويتدفق المال عليه . نظر إلى كومة النقود الفضية والورقية التى يضعها أمامه . يريد أن تراها فطومة . تعشق فطومة المال . سيغرقها فى بحر ماله ، كركر بنرجيلته . سمع وقع خطواتها على درجات السلم الخشبية . وصلته كحة الفخرانى . عرف أنها خطوات فطومة ، لابد أنه يراها ويتفجر حقداً . سيسرع إلى الحارة ويحرضهم عليه . ولن يجد من يصغى إليه . يخافونه الآن . شعر بأنه فى قمة انتصاره . .

تدخل فطومة إلى بيته فى وضح النهار . . أسرع يفتح الباب قبل أن تطرقه . لن يضيع لحظة . يريد أن يشعل شمعة انتصاره من نار جسدها . ولكن طرقاتها كانت أسرع من حركته . . قال بكل شبقه :

ـ فطومتى . . ادخلى . .

وصلته ضحكة الطهاوى البلهاء :

ـ أنا طهاوى يا معلم . .

ـ ماذا أتى بك ؟ !

أوشك أن يقول : فطومة لن تجىء . . ولكن قال :

ـ ألم تقل لى أخبرنى بكل صغيرة ؟ !

ـ أية صغيرة ؟

ـ مخبر . .

وضح الخوف على وجهه :

ـ ماذا يريد ؟ !

ـ ذهب للعطار . .

ـ يستدعيه . .

ـ يسأله . .

ـ ماذا قال له ؟ !

ـ المعلم هو القاتل . .

ـ أنا ؟ !

تضاحك طهاوى . نظر إليه فى غضب . كف عن الضحك قال :

ـ يقصد المعلم الحلوانى . . يا معلمى . .

ابتلع جرعة من دخانه وقال كأنه يبرر خوفه :

ـ ولكن العطار لا يجبنى . .

ـ همه الآن أن يلتف حبل المشنقة حول عنق الحلوانى . .

كركر بنرجيلته ، جمح بخياله ، يشتق الحلوانى . . وتقع أنيسة فى قبضته . . ويستولى على القصر . . ويتزوج حبيبة . .

أفاق من سرحته وطهاوى يقول له :

ـ فطومة لن تأتى !

ـ كيف عرفت ؟ !

ـ نسيت يا معلمى أنك قد أرسلتنى إليها !

ـ ماذا قالت ؟ !

تذكر طهاوى عندما أثارته بجسدها البض وقال لها : عشرى لا يستحق ظفرك . . وأنا أريد أن أتزوجك على سنة الله ورسوله . . ونكون بيتا صغيراً . ادخرت ثمنه من عرقى . .

قال عشرى بغضبه :

ـ تكلم . . لماذا أنت صامت ؟ !

ـ لا أستطيع يا معلمى . .

أبصر وجهه قريبا من يده فصفعه . .

تصور طهاوى أنه عرف ما دار بينه وبين فطومة فقال فى شىء من الذعر :

ـ يقطع لسانى ولا ينطق . .

خاف عشرى أن تكون قد طلبت من طهاوى الزواج . قالت له فى لحظة غضب : سأتزوج طهاوى إن لم تتزوجنى . .

تطاير شرر الغضب من عينيه وهو يقول :

ـ ماذا حدث انطق . .

ـ الموت أهون لى ولا أنطق . .

فهم من عبارته أنها قد سبته فقال ضاحكا :

ـ تسبنى الملعونة ؟ !

قال بسرعة :

ـ غاضبة لأنك طردتها . .

رمق كرشه الضخم بنظرته . لا يمكن أن تتركه فطومة لتتزوج هذا الأبله . .

قال طهاوى :

ـ كانت تريد أن تجىء . .

ثم ضحك ضحكته البلهاء وهو يقول :

ـ ولكنه تدلل النساء يا معلمى . .

قال عشرى :

ـ من أين عرفت النساء يا طهاوى ؟ !

ـ من علم معلمى . .

أسعدته إجابته . لا يستطيع أن يستغنى عنه . ما زال عينه فى الوكالة والحارة . لم ينجح فرغلى فى أن يحل محله .

قال له :

ـ لا تغضب منى لأنى صفعتك !

هز كرشه وهو يقول :

ـ ضربك عسل يا معلمى !

تضاحك عشرى :

ـ وأنت تموت فى العسل !

قرب طهاوى خده الآخر إليه وهو يقول :

ـ زعلان يريد نصيبه من عسل معلمى !

ضربه فى كرشه بقبضة يده . سقطت عين طهاوى على كومة النقود التى يضعها عشرى أمامه . يريد نصيبه من هذا المال . ما بذره من خوف بين الأجراء هو الذى جعل المال يجرى نهرا بين يديه . والمال الذى يملكه لا يكفى ليشترى به حلقا ذهبيا . . أبصره فى دكان الفيروزى . . يهديه لفطومة . .

نظر إلى كومة النقود وقال :

ـ معلمى . .

نظر عشرى إليه بنصف نظرة :

ـ ماذا تريد ؟ !

أشار إلى النقود :

ـ من هذا يا معلمى . .

ضحك عشرى وهو يقول :

ـ خذ . .

لمح فرصته . لجأ إلى مسخرته . ملأ قبضته بالنقود . وعندما أبصر الرضاء فى عينى عشرى ملأ قبضته الأخرى وهو ينحنى جسده ويقول :

ـ حصوة فى عين الحسود . .

ضحك عشرى . تساقطت بعض القطع المالية الفضية من بين أصابعه على الأرض . انحنى يبحث عنها . دفعه عشرى فى مؤخرته بقدمه . فطن طهاوى إلى أن مزاج عشرى قد اعتدل ويريد أن يضحك . قفز من على الأرض كقرد وراح يهز جسده كراقصة محترفة . انتشى عشرى بدخانه . نثر حوله بعض القطع المالية الفضية كما يفعل مع فطومة عندما ترقص له . تفنن طهاوى فى هز جسده البدين ، ضحك عشرى حتى طفرت الدموع من عينيه وقال :

ـ أضحكتنى يا ملعون !

تصنع طهاوى الاهتمام . فقد خيل له للحظة بأنه سيقول له : أرجع المال الذى أخذته ! . وكأنه بحديثه معه سينسيه أن يقول له هذا فقال :

ـ خير يا معلمى !

ـ لم أنم جيدا الليلة الماضية !

ـ المعلم ينام جيدا . . مادامت عين صبيه ساهرة !

شعر بحاجته إلى أن يكون طهاوى بجواره دائما . . يستدعيه عندما يريده فقال :

ـ طهاوى . . أريد أن أكافئك . .

توقع أن يعطيه مزيدا من النقود فاستغرب كرمه الزائد ولكنه فوجىء به يقول :

ـ تسكن بجوارى . . اطرد الفخرانى وخذ حجرته . .

يعرف أنه يكره الفخرانى ويريد أن يدفعه إلى صراع معه فقال بسرعة :

ـ أبعدنى عن الفخرانى !

كركر عشرى بنرجيلته ثم قال بعد لحظة صمت :

ـ أمر المعلم . . لا يرد يا طهاوى . . .

شعر أنه من الأفضل ألا يجادله الآن فقال :

ـ أمرك يا معلمى !

تذكر عشرى فطومة . فتح طهاوى شهيته للبهجة ، يريد أن تحضر فطومة وتمتعه برقصها . فكر فى أن يذهب إليها ويطيب خاطرها . . فقال :

ـ فطومة فى بيتها يا طهاوى ؟

شعر طهاوى بالخوف . سيفسد ما دبر لو ذهب إليها فقال بسرعة :

ـ خرجت . . خرجت يا معلمى . . كانت متعجلة عندما ذهبت إليها . .

نظر إليه عشرى . خشى طهاوى أن يكون قد شك فى كلامه . فقال :

ـ معلمى . . فطومة قالت كلامها من وارء قلبها . . وعندما تهدأ ستراجع نفسها . . وتجيء تعتذر . .

ثم ضحك ضحكته البلهاء :

ـ لا تستطيع أن تستغنى عن معلمى !

هز عشرى رأسه . تذكر عندما قال وهو يفتح الباب لها : ماذا أتى بك ؟ !

قال :

ـ لك حق يا طهاوى . . لقد جرحتها . .

ـ والجرح يا معلمى يحتاج إلى أيام . .

ـ حتى يطيب . .

تذكر طهاوى أنه قد وعدها بألا يتأخر فقال :

ـ تأخرت عن الحارة . . ينبغى ألا تغيب عن عينى كثيرا يا معلمى . .

ـ ابق معى . .

ـ وأولاد الملاعين . .

ـ سأطعمك طعاما فاخرا .

ـ والوكالة . .

ـ مخلص يا ولد . .

ـ علمنى معلمى الإخلاص . .

ثم انحنى بخفة يجمع ما تناثر من نقود على أرضية الحجرة وخرج مسرعا بعد أن قبل يده . وعندما احتواه سلم البيت . ضحك . استطاع خداعه . وسيدفع من ماله عربون الحب لفطومة . أخرج ما يخفيه فى صدره وما فى جيوبه من مال . وراح يعدها . وجد ثمن الحلق الذهبى قد اكتمل . عز عليه أن يدفع كل ما يملك فى شراء حلق لفطومة . . ولكنه أسرع يقنع نفسه بأنه الطعم الذى سيغرسه فى اللحم الطرى ليصطاد به الفريسة ، ويستولى بعد ذلك على كل ما تملكه من مال . . لابد أنها تملك

مالا كثيرا . . ويترك وكالة الحلوانى الكئيبة . ويقيم معها فى بيتها فى شارع محمد على ، حيث الحياة بهيجة ، ويتجنب صراعا مع الفخرانى حول حجرة مظلمة . .

●

[٢٥]

شعر طهاوى بحرارة الانتصار فى خطواته وهو يمشى فى حارة الحلوانى . نجح فى كبح جماح رغبته فى أن يفترس فطومة وهو يجلس بجوارها على سرير نومها . مثل عليها دور العاشق الولهان الذى يحبها حبا عذريا . فطن إلى أن هذا هو أقرب طريق إليها . . كل ما يراها يريد أن يفترسها . قال لها : لا تقابلى أحدا فى حجرة نومك . امتلأت عيناها بالدموع وهو يضع الدبلة الذهبية فى أصبع يدها . أقسمت بأنها لن ترى عشرى بعد الآن . . وعندما حدثها عن بيتها . . أشارت إلى شقتها الجميلة وقالت له : ألا يرضيك هذا البيت ؟ ! أكثر مما كان يتوقع . . هزم عشرى بضربة واحدة . . أخذ فطومة وبيتها . . تمايل . كأنه يرقص من فرحته وهو يصعد إلى شقة أدهم . . سيهزمه عند أدهم أيضا . . يقنعه بأنه ضحية لعشرى . . يريد أن تكون الوكالة والحارة معه فى معركته مع عشرى التى يتوقعها ضارية . . يستفيد من حبهم لأدهم . . سيثبت لهم أن الولد المسخرة كما يطلقون عليه أذكى منهم جميعا . . غطى وجهه بملامح الضحية وهو يطرق باب أدهم . فتح زكى السقاء الباب . وضح على وجهه الضيق . ابنه منذ قتل خميس لا يريد أن يقابل أحدا من الوكالة . أوشك أن يقول له : أدهم نائم . . ولكن طهاوى قال فى نبرة مستعطفة :

ـ عم زكى . . أريد أن أطمئن على سى أدهم . .

وكأن الأب وجد شيئا يخرج ابنه من عزلته فقال :

ـ ادخل يا ابنى !

ــ ويذهب دم خميس هدرا !

ــ لن يذهب . .

ــ ودمكم أنتم ؟ !

وجد فرصته فقال فى مسكنة :

ــ أعرف أن عشرى لن يرحم أحدا منا . . وأنا خائف منه ياسى أدهم . .

رمقه بنظرة . وكأنه يقول بنظرته : أنت الذى تعمل لحسابه ؟ !

اندفعت كلماته :

ــ أخطأت ياسى أدهم . . وأنا أطرد عم حمص . . وأتجسس له على أهلى . . عرفت غلطتى وأنا أرى الدم الذى سال من رأس خميس . . أريد أن أتوب على يديك . .

شعر طماوى بأن كلامه قد وصل إلى قلب أدهم فقال بسرعة :

ــ أريد أن تنورنى كما نورت ابن عبد العال . .

ثم قال كالمعاتب :

ــ تركتنى ياسى أدهم دون أن تعلمنى . وعلمت خميس وحده . .

وانفتح باب الحجرة ودخلت فلة بحيويتها وهى تقول :

ــ ماذا جرى للدنيا ؟ ! أدهم يحبس نفسه فى حجرته هنا وكروانة تحبس نفسها فى حجرتها هناك . .

شعر أدهم بالضيق لمجىء فلة فى هذا الوقت . أوشك أن يقول لها : لا تذكرى اسم كروانة . . لقد انتهت من حياتى . . ولكن فلة تنبهت إلى

دخل طماوى . طرق باب حجرة أدهم . وكأنه سمع كلمة « تفضل » فدخل . أبصر أدهم يقرأ فى كتاب فقال بصوت خفيض :

ــ كيف الحال ياسى أدهم ؟ !

شعر أدهم برغبة فى ألا يرفع رأسه . لم يعد يطيق أن يقابل أحدا من الوكالة . يحملهم مسئولية موت خميس .

قال طماوى :

ــ أنت غاضب منى ياسى أدهم ، لست مسئولا عن موت خميس . .

واختنق بالدموع !

ــ أنا أحبه مثلك ياسى أدهم . خميس ابن أجير مثلى . .

ثم انفجر بالبكاء . نظر إليه أدهم . لا يحب البكاء . قال له :

ــ لا تبك . .

قال بدموعه :

ــ كيف لا أبكى وخميس مات غدرا !

وكأن طماوى قال : عشرى . . فقال أدهم منفعلا :

ــ ولكن الشرطة تقول أن عشرى لم يكن فى الوكالة . . شهدتم بذلك . .

توقفت دموعه وهو يقول :

ــ أنا ؟ !

ــ وكل العمال الذين استجوبهم المحقق . .

ــ قلت الحق . .

وجود طماوى فى الحجرة فقالت وهى تضرب صدرها بيدها :

ــ ماذا جاء بك إلى هنا . . يا طماوى ؟ !

وأوشكت أن تقول : تضحك على أدهم كما تضحك على العطار ولكنها قالت :

ــ لا تشبع من المال !!

انتهز طماوى الفرصة وقال فى مسكنة :

ــ أرأيت ياسى أدهم ؟ !

قال أدهم :

ــ طماوى يزورنى . .

تصعبت فلة . .

شعر طماوى بأنه قد وصل إلى هدفه . وقف . مثل دور المظلوم وهو يقول :

ــ أمشى ياسى أدهم . .

قالت فلة :

ــ مثل ياولد . .

خرج طماوى دون أن ينظر إلى فلة التى كانت تنتظر منه كلمة لتمطره بسيل من الكلمات . قالت لأدهم بعد أن انصرف :

ــ عجيبة . .

ــ مسكين . .

ــ أنا المسكينة ياسى أدهم . .

تجسد لها الخطر الذى يحيق بحبيبها على العطار من اتهامه للحلوانى بأنه قاتل خميس . . وأن الموت الذى يخيم على الحارة هو المسئول عن هذا الخطر . . ففتحت النافذة . . وكأنها تذكرت فى هذه اللحظة أن أدهم قد نجح بتفوق وأنها لم تزغرد له . فأطلقت زغرودة لتطرد الموت الذى يخيم على الحارة . انزعج أدهم . لم يجف دم خميس بعد .

قالت فلة :

ــ الحى أبقى من الميت . . قم ياسى أدهم وانزل الى الحارة وسلم على الناس قبل أن تسافر . . الحزن لن يعيد ابن عبد العال . .

وكأنها ذكرته بعبد العال فقال :

ــ عبد العال سافر ؟ !

ــ يا كبدى . . حمل ابنه وسافر إلى بلدته . . أصر على أن يدفنه فى أرضه !

بدا لها أنه سيبكى فقالت له :

ــ عيبه أنه كان يتطلع إلى فوق . .

أراد أن يقول لها : أنا المسئول . . ولكنه أشعل سيجارة . . وجدت نفسها تقول :

ــ مسكينة حبيبة . . لو رأيتها ما عرفتها . . امتصها الحزن !! والمعلم يكاد أن يجن . . !!

نظر إليها وهو ينفث دخان سيجارته ، كأنه بنظرته يقول : يستحق . .

قالت فلة :

ــ الحلوانى معذور . . الفيروزى يريد حبيبة . . وحبيبة تفكر فى

خميس . . معقول هذا الكلام ياسى أدهم ؟ ! أنت سيد العاقلين . .

وعندما أبصرت الغضب فى عينيه قالت :

ــ ولكنه الحب . . أعرفه . . اسألنى عنه ياسى أدهم . . العطار يضن على بكلمة . . وجابر يتمنى نظرة منى . .

وأشعلت سيجارة من سيجارة أدهم . وكأن حزنها قد اشتعل فقالت :

ــ وأنا أبيع الدنيا من أجل رجل لا يستحق . . !

طاف وجه كروانة الحزين فى عينيها فوجدت نفسها تقول :

ــ رفضت كروانة أن تذهب إلى حفل الفيروزى رغم غضب زبيدة . . !

أراد أن يسألها عن التفصيلات . أطفأ سيجارته . بدا على وجهه الاهتمام ، انتهزت الفرصة وقالت :

ــ أنت تعرف أن كروانة رفضت أن ترتدى ملابس الجارية فى حفل الحلوانى . . رأيتها بعينى . . ولكن جبروت زبيدة . . الله يسامحها . .

ــ ما دخل زبيدة بها ؟ !

ــ أجبرتها فاضطرت للرقص وألقت ما فى جوفها على وجه شبانة . . تاجر الفضة . .

كان يريد أن يسمع شيئا عن رفضها الذهاب إلى حفل الفيروزى فقال :

ــ لا أريد أن أسمع شيئا . .

ثم لاذ بصمته . .

أوشكت أن تقول : لماذا لا تتزوجها وتخلصها من هذا العناء ؟ ولكنها قالت :

ــ يا كبدى عليها . . عصفورة فى غابة . . وأنت تطالبها أن تصارع الوحوش بمفردها !!

كأنه خشى من ضعفه فقال وهو ينظر إلى أوراق السفر الموضوعة أمامه :

ــ سأسافر . .

ــ سافر ياسى أدهم . . ربنا يحميك . .

أشعل أدهم سيجارة جديدة . كح . قالت فلة :

ــ لا تنس أن تقول للبنت المسكينة التى لا تكف عن البكاء كلمة وداع قبل أن تسافر . .

شعر بشىء من الضعف . . . أراد ألا ترى الضعف فى عينيه ، فقام واتجه إلى النافذة . . ألقى بنظرة على الحارة . أبصر المعلم يدخل قصره . قال دون أن يلتفت إلى فلة :

ــ لن أبقى لحظة واحدة فى هذه الدنيا القبيحة !

قالت فلة وكأنها تذكرت شيئا من كلمات أغنية قديمة .

ــ الدنيا التى بها حبيبى ليست قبيحة !!

ثم قالت وهى تحكم الملاءة حول جسدها :

ــ ستعرف فى الغربة أنك قد ظلمت كروانة !

●

[٢٦]

أحس الحلوانى كما لو أن جسده كان متناثرا وتجمع الآن . صلب عوده وامرأته أنيسة تقول له : حبيبة ارتدت ملابسها وخرجت . لم يسأل أين ذهبت ؟ ! مشى فى ردهات القصر . دخل القاعة الذهبية . قرأ آية تؤكد قدرة الله . قال : ونعم بالله . وجلس على مقعده . جذب نفسا من دخانه . . قام وخرج إلى حديقته إكتشف أن أشجارها قد أينعت ، تذكر خميس . ترحم عليه . تنفس رائحة الياسمين ، أراد أن يرى عماله . دفع الباب الذى يفصل الحديقة عن الوكالة . وجده مغلقا . زعق . فتح جابر صبى الوكالة الباب . دخل ، يريد أن يطمئن على عماله . لم يجد عاملا من عماله . غضب . قال له جابر : ذهبوا للعمل . وصله صوت أنين . تبين أن عاملا يرقد مريضا . ارتفع صوته . . كيف تتركون مريضا من عمالى من غير علاج ؟ . . استغرب جابر . تذكر الحلوانى حمص . يريد أن يراه . خرج من باب الوكالة . أبصر حمص يجلس أمام دكانه يعمل . . عندما وقع بصره على الحلوانى ارتفع صوته بعبارته : يارب يا متجلى اهلك العثمانلى !

تضاحك الحلوانى . جلس على مقعد بجواره . بدا الضيق على وجه حمص . قال له بود :

ــ جئت أشرب الشاى يا عم حمص . . منذ زمن لم أشربه من يديك . . تذكر يا عجوز أيام زمان . .

لم يكن المعلم فى حاجة لأن يصنع حمص شايا له . لقد كان الشاى جاهزا . امتدت يد الحلوانى . تناول كوب الشاى . رشف رشفة . قال وهو يضحك :

ــ من هو العثمانلى الذى تريد أن يهلك يا عم حمص ؟ !

قال له حمص وهو ينظر إليه :

ــ أنت ؟ !

تضاحك الحلوانى :

ــ لماذا يا عجوز ؟ !

ــ لأنك ظالم . .

ــ أنا ؟ !

ماذا فعلت ؟ !

ــ أنت تعرف ماذا تفعل ؟ !

ــ قل لى ماذا أفعل ؟ !

وصلها صوت صراخ . قال عم حمص :

ــ أنت سبب كل المصائب التى تجرى فى هذه الحارة منذ تسمت باسمك . .

ــ أنت تظلمنى يا عجوز . . أنا حولت البيت الخرب إلى قصر . . وزرعت حديقته زهورا . . ووفرت العمل لآلاف العمال . .

ارتفع الصراخ . . قال حمص :

ــ وجعلت الحياة جحيما . . وأخرجت من داخل الناس الوحش الذى يسكن فى داخلهم . . وجعلت دنياهم غابة . .

شعر الحلوانى بالضيق . أبصر فلة مندفعة نحوه وهى تقول :

ــ عشرى يقتل طماوى . .

أوشك أن يقول لها : فليقتله ! ، ولكنه وقف ، كأنه وجد فرصته ليتخلص من حديث حمص . فألقى بكوب الشاى الذى لم يشربه من يده وقال فى اهتمام :

ـ أين ؟ !

ـ فى حجرته . .

صعد درجات السلم المظلمة فى تأفف . أبصر الدم يغطى وجه طهاوى وعشرى كالثور الهائج . لم ينتبه عشرى إلى دخول المعلم . استمر فى ضرب طهاوى . . ولكن عندما تنبه إلى وجود المعلم أمامه توقفت قبضة يده كأنها قد شلت والمعلم يقول :

ـ ما شاء الله . .

وأشار إلى طهاوى الذى كان يستجير وهو يقول :

ـ تريد أن تقتله . .

ـ يستحق أكثر من القتل . .

ـ ماذا فعل ؟

قال عشرى :

ـ اسأله يا معلم . .

قال طهاوى :

ـ تريد أن تتزوجنى يا معلم . .

ـ من هى ؟ !

ـ فطومة . .

ـ أخذ مالى واشترى به دبلة لها . .

ضحك الحلوانى :

ـ هذا ما يغضبك ؟ !

ـ الخيانة يا معلم . .

ـ تغضب لأنه يريد أن يتزوج امرأة فى الحلال . .

قال طهاوى :

ـ قل له يا معلم . . ذهبت إليها وطلبت منها أن تتزوجنى فقبلت . .

خيل للحلوانى أنه قد سمع صوت حبيبة . أسرع إلى النافذة . أبصر حبيبة تحدث العطار أمام باب القصر . كأنه أبصر روحه ، أسرع يخرج من حجرة عشرى كأنه يجرى . يريد أن يلتقى بروحه . وجدها فى حجرتها . تزاحمت العبارات فى داخله . يريد أن يقول لها أنه قد ذهب إلى الوكالة . ووجد عاملا مريضا فأمر باستدعاء الطبيب له . وشرب الشاى مع حمص . وصعد إلى حجرة عشرى . ومنعه من ضرب طهاوى ، ولكنه وجد نفسه يقول لها :

ـ مبروك . .

كأنها أرادت أن تصدمه :

ـ خسرت السباق !!

قال مهللا ، كأنه وجد فرصته ليعبر عن فرحته التى شعر بها عندما عرف أنها قد خرجت من وحدتها التى فرضتها على نفسها بعد موت خميس :

ـ اشتركت فى السباق . . لماذا لم تخبرى حلوانى ليذهب ويشاهد سكر تسبق الخيول ؟ ! فرحت . .

قالت ببرود :

ـ خسرت السباق . .

شعر بشىء من عدم التصديق :

ـ كيف حدث هذا ؟ !

تذكرت كيف تشتت ذهنها وهى تركب سكر ولم تستطع أن تتخلص مما قالته فلة لها من أن كروانة تسقى حمام أدهم بدموعها . .

شعرت برغبة فى البكاء :

قال منفعلا :

ـ نتخلص من سكر . .

تذكرت خميس . لابد أنه قال لعشرى : تخلص من خميس ، فقالت بفزعها :

ـ لا . .

وكأنه شعر بالإحباط وهو يقول :

ـ كما تشائين !

ودت لو خرج الحلوانى لتبكى ، لم تجد شيئا تفعله سوى أن تتناول محلة أجنبية وتقلب صفحاتها ، وكأنه وجد فرصته ليقول :

ـ سأذبح عجولا . . وأقيم وليمة للعمال . . فى حفل ميلادك . . أليست هذه رغبتك فى أن أحب العمال ؟ !

أصبحت أحبهم . .

وابتلع عبارة : وسأدعو الفيروزى . .

توقع أن ترفع رأسها عن المجلة بعد أن نطق بعبارته الأخيرة . . ولكنها لم تنظر إليه فقال لها ، كأنه يتوسل :

ـ حبيبة . . إنى أعرف أن موت خميس قد أرهقك . . مات بين يديك . . أنا الرجل . . لم أحتمل هذا المنظر المؤثر . . أعصابك الرقيقة لم تحتمل . .

ألقت بالمجلة من بين يديها . توقع أن تحدثه فقال :

ـ أنا حلوانى يا حبيبة . . نسيتى حلوانى . .

التقت نظرته بنظرتها . . ليست نظرة حبيبة التى يعرفها . شعر أن الدنيا قد انهارت على رأسه . وجد نفسه يقول :

ـ ليست لى صلة بقتل خميس . .

أبصر فى عينيها شيئا من عدم التصديق فقال بسرعة :

ـ الأب الذى يحمل لابنته كل هذا الحب لا يمكن أن يتحول إلى قاتل . . حملت التراب على كتفى . . واشتريت هذه الدار المهجورة . . وحولتها إلى قصر سميته باسمك . . وأقمت حفلة يحضرها الفيروزى . . فعلت كل هذا من أجلك !

طافت أصابعها بشعرها . تصورها قد اقتنعت فقال بصوت هادىء :

ـ أعرف ما يروجه العطار عنى . . رأيته وهو يحدثك على باب القصر . . العطار يحقد على أبيك . . الحلوانى يتقدم فى كل لحظة . . وهو لم يتقدم لحظة واحدة فى حياته . .

ثم تضاحك :

ـ ولد بائسا وسيموت بائسا !

نظرت إليه ، كأنه يبصر براءته فى عينيها فقال :

ـ حبيبة .. أريد أن أسمع اسمى .. حلوانى .. من بين شفتيك .. تذكرين .. عندما كنا نتحادث وتقولين لى .. أنت حلوانى طيب .. ليس عندى غير حلوانى واحد .. طعمه سكر .. العصفورة تحبك يا حلوانى !

تنبه إلى أنها لا تدير الموسيقى .. فأدار الموسيقى ، كأنها ستساعدها لأن تتحول إلى نغمة طائرة فى حبه .. تقول له : حلوانى .. فيقول لها : عيون حلوانى ..

شعرت بأن الموسيقى مرة فى نفسها . أوقفت الموسيقى .. أحس أن قلبه قد غاص فى قدمه .. تمنى فى هذه اللحظة لو أنه يدفع أى شىء يملكه لتعود حبيبة كما كانت .. تسمع الموسيقى .. وتنطق بكلمة « حلوانى » ..

قال :

ـ افعلى ما بدا لك .. اذهبى إلى الأجراء فى الوكالة .. وقابلى العطار فى الحارة .. لن أمنعك ..

سقطت نظرتها على المجلة الفرنسية التى تحكى قصة الفتاة الفرنسية التى وقعت فى حب طالب مصرى .. وأبلغت أسرتها الشرطة وأدخلوه السجن .. فابتسمت ..

وكأن الحلوانى رأى فى ابتسامتها مقدمة لإعادة الماضى .. فقال وقد تملكه شعور بأنه سيسترد ابنته من حزنها :

ـ هذه الثروة التى تجمعها لا تشترى خلجة حب فى قلب إنسان .. هذه عبارتك يا حبيبة .. لقد اقتنعت بها أخيرا .. علمتنى ما لم أتعلمه فى حياتى .. حلوانى .. تغير يا حبيبة ..

شعرت بأنها لا تستطيع أن تفعل شيئا سوى أن تظل ابتسامتها على وجهها .. كانت ابتسامتها هى حزنها .. والحزن كان كل ما تبقى من حبها لخميس .. ذهبت إلى النادى واشتركت فى سباق الخيل من غير إعداد .. وتحدثت مع حمادة المنصورى الذى لا تحبه .. وضحكت مع منال الصديقة التى لم تعد صديقة .. تصورت ـ فى لحظة ـ أنها قد دفنت حزنها على خميس فى أعماقها .. ولكنها اكتشفت الآن أنه لم يكن حزنها على خميس .. كان حزنها على الدنيا .. ماتت زهوة الدنيا فى عينيها .. تشعر بعجزها عن النطق بكلمة « حلوانى » .. والموسيقى مرة فى أذنيها .. وأصابعها لا تستطيع أن تقلب صفحة المجلة التى تنشر صورة الأسمر الذى يذكرها بوجه خميس .. تذكرت عبارة خميس التى قالها لها : هناك شىء لا أفهمه فى هذه الدنيا ..

تنبهت إلى أن أباها مازال يقف أمامها ينتظر أن تنطق بكلمة « حلوانى » ..

القاهرة ١٩٨٥

●

نهاية الجزء الأول

/ ٢٢١٧
٥ - ١٣٠ - ١٧٢ - ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

محمد جلال
Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com
قرط الزمان
(الجزء الثاني)
مكتبة غريب

محمد جلال

فرط الرمان

(الجزء الثانى)

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

الناشر
مكتبة غريب
١ ، ٣ شارع كامل صدقى (الفجالة)
تليفون : ٩٠٢١٠٧

الجـزء الثـانى

[١]

بدا لأدهم كأنه يحلم . يقف فى ميدان أمستردام . قال له أحدهم فى الطائرة : اسكن بجوار المحطة . تجد المصريين . يتنفس نسمة هواء هولندا . يتفرس مبنى المحطة . كأنها متحف . اللوحات الرخامية منحوته على صدرها كأنها تحكى أسطورة . رف قلبه . امرأة تبيع الزهور . . وأخرى على بعد خطوات تقف فى وسط وردها ، كأنها عود زهر . يرقص لنسمة هواء ندية . والناس تحتضن الورد وهى تجرى . الأنوار تضىء النهار . والترام الأصفر يجرى . . والحمام يتطاير ، كأنه أنغام فى سيمفونية للعشق . لا يعرف أدهم الرصيف من طريق الترام . . ولكن الحمام يعرف . . يطير ليفسح الطريق للترام . ويعود ليستأنف العزف للطبيعة . أحس أدهم بأنه قد ذاب . . قطرة ماء فى قنوات تملأ ميدان أمستردام . خيل له أن الناس لا يمشون . . ولكنهم يسبحون . وطائر النورس يرفرف حوله ، كأنه يعلن وصوله . وصله صوت عزف . لمح رجلا عجوزا يرسل موسيقاه . امتلأت عيناه ببيوت أمستردام ، كأنها قادمة من العصور الوسطى . التفت حوله غجريات بملابس مزركشة . يطلبن مالا ، كأنهن يطلبن ثمن الحلم . الفرحة تزفه . شعر بخوف ، كأنه سيفتح عينيه ويطير الحلم . يقترب من الحلم . يقف الحمام على كتفيه . تذكر حمامه ، وسطح بيته فى حارة

الحلوانى . وكروانة وهى تجلس بجواره . أحس بدموع فى عينيه . يريد من يشاركه فرحته . لا يعرف إن كانت دموع حزنه أم فرحه ؟ . سقط رذاذ . اغتسل الحزن بالفرح فى أمستردام . الناس يركبون القوارب الزجاجية . يريد أن يطير إلى مدينة الزهور . يتعجل لحظة لقاء الزهور . . ابتسم لهولاندية كانت تحدثه بجدية قالت له : تنبه لحقيبتك . الغرباء يسرقون . . أراد أي يسألها : كيف أذهب إلى مدينة الزهور ؟ ولكن خطوات السيدة كانت أسرع من كلماته . الناس يمشون كأنهم يسابقون العمر . لن يسابق عمره . يريد لحظة عمره أن تتوقف . يستوقف أحدا يسأله . أبصر ابتسامة ، عرف أنه مصرى . احتضن ابتسامته السمراء . ذاب . كأنه يعرف عادل الطالب القادم من باريس بقطار الليل منذ زمن .

قال له عادل وهو يشير إلى حقيبته :

ـ تخلص من حقيبتك حتى لا تلفت نظر شرطة أمستردام وتسألك عن أوراقك . .

فهم أدهم أن عادل دخل أمستردام بلا تأشيرة دخول . دارت عيناه فى الزهور التى حوله ، يبحث عن الورد الأبيض الذى يحبه . لم يجده . أبصر الورد الأحمر . حملق فى السوسن الهولندى كأنه يكافىء نفسه لأنه يقف فى ميدان أمستردام . وفى جيبه أوراقه . .

التفت إلى عادل الذى كان ينظر فى ورقه . بدا له كقائد معركة . يراجع تفاصيل خطة هجومه على أمستردام . .

قال له أدهم :

ـ معى تأشيرة دخول !

بدا له أن عادل لم يسمعه . . قال له :

ـ الشرطة فى أمستردام لا ترحم . . عندما تلتقى بأجنبى لا يملك أورقا . . يأخذونه إلى الطائرة مباشرة دون أن يمهلوه ليحضر حقيبة ملابسه !!

تفرس أدهم فى كنيسة تطل عليه . .

ـ بيت الشباب المسيحى ليس ببعيد !

مشى عادل . تبعه أدهم . تملكته رغبة فى أن يكون فى صحبة إنسان . دارت نظراته حوله . . رجل أعمى فى صحبة كلبه . . وكأنه يبصر . . نصف امرأة فى تمثال على الرصيف . . صوت هولندى يدعوه إلى ركوب القارب الزجاجى . . رحلة فى فينسيا الشمال . . ستون قناة وأكثر من ستمائة كوبرى . . وعربة تبيع سمكا لم يعرف النار والناس يأكلون . .

قال عادل وهو يعبر جسرا قديما :

ـ مركز المدينة . .

اتضحت معالم الكنيسة . القدم يغطيها ، نظر عادل فى الورقة التى يحملها بيده . قرأ بصوت عال :

ـ شارع الدفء !

شعر أدهم بالبرد ، قال :

ـ أين الدفء ؟ !

ـ سترى . .

وظل عادل يبحث فقال له أدهم :

ـ أسأل ؟ !

ـ ينبغى ألا تسأل . . حتى لا يلمحك رجال الشرطة . . هم ظرفاء . . ما دمت لا تزعج أحدا !

تنبه أدهم إلى أن المياه تحاصر البيوت قال :

ـ كيف يصعد السكان إلى بيوتهم ؟ !

لم ينتبه عادل إلى سؤاله ، انشغل فى البحث . دق جرس الكنيسة . صباح الأحد . سقطت نظرة أدهم على امرأة شبه عارية ، تجلس فى قفص زجاجى والنور الأحمر يغطيها . قفز الدم فى رأسه .

قال عـــادل :

ـ حى الضـــوء الأحمر !

قال أدهم بفزعه :

ـ سنسكن هنا ؟ !

قال عـــادل :

ـ بيت الشباب المسيحى على بعد خطوات !

لم تستطع أن تخفى عينا أدهم دهشته . فقال عادل :

ـ لا تنظر هكذا . . لوطلبت هذه المرأة الشرطة . . لتركنا أمستردام فورا !

قال أدهم فى غضب :

ـ ابحث لنا عن مكان آخر بعيدا عن هذا !

قال عـــادل :

ـ بيت الشباب المسيحى يفتح بابه للطلاب بأسعار رخيصة . يجىء

الشباب إليه من جميع أنحاء العالم . أخبرونى فى باريس .

تبين أدهم أن النور الأحمر يحاصره عن يمينه وشماله . . فقد إحساسه بجمال الطريق . مياه القناة راكدة . شعر بالبرد . قال : وهو يشير إلى النساء اللائى يجلسن فى أقفاص زجاجية :

ـ كيف يجلسن هكذا ؟!

قال عـــادل :

ـ الحرية :

أبصر امرأة تخرج من قفصها الزجاجى ، وتلقى الخبز للأوز الأبيض الذى يسبح فى القناة . .

قال عـــادل :

ـ فى أمستردام يعشقون الحرية . .

قال أدهم فى غضب :

ـ حرية أن يبيع الإنسان نفسه !!

ضحك عـــادل :

ـ المال . المال الذى لا نملك منه شيئا ، وجئنا من أجل أن نحصل عليه !

قال أدهم :

ـ أكره المـــال . .

ـ ولماذا جئت إلى أمستردام ؟

ـ أريد أن أتعلم كيف يزرعون زهور الغابات الاستوائية فى قلب البرد ؟!

ـ ولكنى أعشق المال حتى الموت . .!!

قال أدهم فى غضب :

ـ لن أسكن هنا . .

قال عـــادل :

ـ لا تغضب . . سنقيم الليلة فى بيت الشباب المسيحى واعثر على قريب لى . يقيم هنا منذ زمن بعيد ، وعدنى بأن يرتب لى كل شىء . . ويدلك كيف تذهب إلى مدينة الزهور ؟ وأجد العمل وتغادر حى الضوء الأحمر . .

تساقط المطـــر . .

ضحك عـــادل وهو يقول :

ـ السماء تمطر فى أمستردام فجأة وتكف فجأة ، المطر يملك حرية الهولندى . يفعل مابدا له . .

ثم دخلا زقاقا . انتهز أدهم الفرصة وراح يبحلق فى النساء اللائى يرتدين المايوه فى عز البرد . سمع صوت عادل يجىء من الزقاق :

ـ عثرت على البيت . .

ودخل أدهم فى إثر عادل . . أبصر شبابا من أطراف الأرض . . عرف المصريين من صوتهم المرتفع . . رأى أحدهم يحمل الطعام مبللا ويضعه على المائدة ويقول :

ـ تفضلوا يا رجال . .

وامتدت الأيدى تلتهم . . لم تمتد يد أدهم رغم جوعه .

قال صاحب الطعام :

ـ كل يا أخى . . نحن مصريون . .

قال عادل الذى كان يملأ فمه بالطعام :

ـ لم أذق شيئا منذ غادرت باريس فى الليل . .

وامتدت يد أدهم على استحياء فسأله :

ـ متى جئت من مصر ؟

ولم ينتظر إجابة أدهم وراح يتحدث ، كأنه وجه السؤال إلى نفسه :

ـ تركت مصر منذ ثلاث سنوات . أردت أن أسافر إلى أمستردام . لم يعطونى تأشيرة . سافرت إلى العراق . . فى بغداد كسبت الكثير . . سافرت إلى بلغاريا بالقطار . أنزلونى ورفضوا أن أدخل البلد . . ذهبت إلى سوريا . . عرضت ملابسى للبيع لأكل . . أعطانى أحد السوريين بعض المال ورفض أن يأخذ شيئا من ملابسى . . عدت إلى بغداد . . عملت فى الكهرباء وأنا خريج زراعة . . كسبت مئات الدولارات . . وحصلت على التأشيرة لأدخل بلغاريا . وسافرت إلى النمسا . .

ثم نظر إلى أدهم وقد كف عن الطعام وقال :

ـ كل . . البرد فى أوربا لا يرحم . . إنى أعرفه . . عملت في فيينا بائعا للجرائد . . بعت الجرائد والجليد يغطينى . . كدت أتجمد . . وأخيرا جئت إلى أمستردام . . حققت هدفى بعد ثلاث سنوات . .

ثم أشعل سيجارة وهو يقول :

ـ كل يا أخى . . انت خجول . . أمستردام لا تعرف الخجل . . أنت فى حى الضوء الأحمر . .

بدا لأدهم أن محدثه يريد أن يتلذذ برؤيته وهو يأكل . .

●

[٢]

مشى أدهم فى الصباح . يعبر جسرا قديما . . والمياه تجرى حوله . . والأضواء الحمراء . . والنساء مازالت فى أقفاصها الزجاجية . . تذكر ما سمعه عن مدينة الزهور . . تساءل فى صمته : كيف تنبت الزهور فى غابة من الغرائز ؟

قال عـــادل :

ـ الهولنديون يعلنون عن حيهم الأحمر للعالم . . يعتبرونه من مميزات أمستردام !

ـ يتباهون بهذه الغابة . .

ـ ليس كله غابة . . انظر . مكاتب وبيوت وأناس لا صلة لهم بهذا العالم . . العقل والجنون يمشيان معاً فى أمستردام .

قال أدهم :

ـ جنـــون !

ـ ومن الجنون أن ننهزم . . نحن فى صراع مع أوربا . . صرعت أجدادنا فى الماضى . وسرقت أموالنا . . وحققت هذه الحرية . .

وجاء دور الأحفاد ليستردوا ما سرقوه من أجدادنا فى الماضى . .

توقف أدهم عن المشى . . يتأمل البط الذى يسبح أمامه فى القناة . .

قال عـــادل :

ـ أسرع . . الوقت يسرقنا . . أريد أن أقابل قريبى . . يعرف هولندا جيدا . طالما أرسل لى يطلب منى أن أترك باريس . الحياة فى أمستردام سخية ، ينبغى ألا نضيع وقتنا .

مد أدهم يده إلى وردة . الورد بلا رائحة . قال عادل :

ـ ضللنا الطريق !

وفجأة وجد أدهم نفسه فى طريق الترام الأصفر . شعر بأنه يتنفس . اندفع عادل يعبر الطريق . توقف ترام كان يسير . نظر الناس فى دهشة . ظهر شرطى . أوقف عادلا . . عبر الطريق والإشارة حمراء . . يسأل عن أوراقه . . فتح له باب سيارة وأدخله . وانطلقت السيارة . تجمد أدهم . تنبه بعد قليل أن الإشارة أصبحت خضراء . . وأن الناس قد عبروا . . وعليه أن يعبر . .

اختفت عربة الشرطة بصديقه عادل . تلعثمت خطواته . شعر بعار اللحظة . كيف تأخذ عربة الشرطة عادلا وهو يقف صامتا ؟ وجد نفسه فى زحام . . أخذه زحام الناس إلى شارع . . الشارع قطعة من نور . يريد أن يهرب من عاره . يتدافع الناس . . يعبون من بضائع المحلات التى تتألق فى الضوء فى عز النهار ، كأنهم يرقصون على رغباتهم . . تصل إلى أذنيه موسيقى أمريكا اللاتينية . . يعرفها من حزنها الشامخ . . أبصر شابا يعزف على جيتار . . والناس يلقون إليه بقطع النقود . مد يده فى جيبه . يريد أن يعطيه شيئا . تذكر أن صديقه أخذ ما فى جيبه فى الصباح . شعر بالجوع . اقترب من عازف الجيتار . . كأنه يريد أن يشبع من أنغامه الحزينة . كان العازف يغمض عينيه ، كأنه يعزف لحبيبته البعيدة . أبصر شرطيا يبتسم ويتقدم من العازف . ويتحدث معه برقة . . خيل له للحظة أنه الذى خطف بعربته صديقه عادل . . شعر بالخوف . . تحسس أوراقه . . كف

العازف عن عزفه وحمل جيتاره ومضى ، تضايق أدهم . نظر إليه الشرطى . أراد أن يهرب من نظراته . . أبصر معرضاً للوحات . . دخله . أبصر سلما خشبيا . صعد . صعدت امرأة فى إثره . تنبه إلى أنها صاحبة المعرض قالـ له :

ـ هذه مجموعة عالمية . . لوحات لفنان ألمانى يعيش فى كندا ، يعبر عن حبه لألمانيا فى الغربة . . وهذه لفنان مجرى . . الحزن يبدو فى ريشته . . وفرنسى يعبر عن انطلاقه . . وهولندى يرى فى بيته قلعته . .

شعر بدفء الألوان يسرى فى جسده . يعشق الألوان . بدا للمرأة كأنه يريد أن يشترى اللوحات . الثمن بالآلاف . . وليس فى جيبه ما يشترى به قطعة خبز . . وجد نفسه يتحدث عن سوق العصر وحمامه وحارة الحلوانى وكروانه وعشقه للزهور والموسيقى . . بدت له المرأة كأنها عاشقة وهى تستمع إليه . قدمته لزوجها . احتفى به الرجل كأنه يعرفه منذ زمن قالت له المرأة :

ـ تتناول العشاء معنا فى بيتنا . . ليسمع زوجى ما حكيته لى عن سوق العصر وكروانة . .

وضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

ـ لا يمكن أن تعرف هولندا إلا إذا دخلت البيت الهولندى !

وركب العربة بجوار الرجل . تنازلت له عن مكانها . وسارت العربة . يرى أمستردام من نافذة العربة المسرعة . . كأنه يرى حلما . توقفت العربة أمام بيت خارج أمستردام . أبصر الورد حوله . . قال الرجل :

ـ بيتنا الصغير . .

ومشى بين الورد وقال :

ـ الزهور حياة الهولندى . .

أبصر الزهور تعانقه من داخل البيت . سمع صوت كلب . قال الرجل :

ـ طفل . .

وجلس ودارت نظراته فى الزهور واللوحات .

ثم قال :

ـ تسمع موسيقى هولندية . .

وانسابت موسيقى سعيدة . .

شعر أنه يطير . جلس الكلب تحت قدميه . حملق فى لوحة طواحين الهواء . امتدت يده تلامس التيولب الذهبى ، كأنه يصافحه . وصله صوت المرأة :

ـ سنأكل طعاما هولنديا . . !

قالت :

ـ هذا تفاح مطبوخ . .

قال الرجل :

ـ امستردام الحرية . . وانت حر . . عندما أقول لك : كل . . فإننى أتدخل فى حريتك !

وأكل بشهية . . وبعد أن انتهى العشاء . . طلب أن يسمع موسيقى من أمريكا اللاتينية . كأنما عز على نفسه أن يعيش لحظات فرحة !

قال الرجل :

ـ موسيقى حزينة . .

قال أدهم :

ـ أحبهـــا . .

ودارت الموسيقى الحزينة . . وقالت المرأة :

ـ فى مصر تحبون الحزن ؟ !

قال يتفلسف :

ـ الحزن يطهر النفس . .

قالت المرأة :

ـ ولكنك تحب الزهور والألوان . .

وقال الرجل :

ـ والموسيقى . .

وقالت المرأة بدهشتها :

ـ فكيف تحزن ؟ !

تذكر حارة الحلوانى والوكالة وموت خميس . . وانتهت الليلة . وحملته العربة الى حى الضوء الأحمر . . تذكر عادل الذى أخذته عربة الشرطة . . شعر بالخوف . . لابد أن هناك أسئلة تنتظره فى بيت الشباب المسيحى . . يذهب الى البيت ويواجه الأمر ، ويحمل حقيبته ويذهب . . لا تطاوعه خطواته فى الذهاب الى البيت . . يمشى فى عالم الضوء الأحمر . . الضوء يلقى بظلاله على الماء . . والبط مازال ساهرا . . وموسيقى وحشية تصل الى

أذنيه وأغنية تقول : أنا أحب فأنا موجود . . لعن هذا الوجود . . سيقف على الجسر القديم يرقب الليل فى حى الضوء الأحمر وهو يذهب . . حتى الصباح . . البرد يأكل أطرافه . . والغرائز حوله مشتعلة . . والبط يسبح . . كأنه يسبح على ضوء القمر . . رفع رأسه للسماء . . يريد أن يرى قمره الذى يراه فوق سطح بيته فى حارة الحلوانى . . لم يجد قمرا . . بدا له أن وجه السماء مغطى بشال أبيض من السحاب ، كأنه خجلان مما يفعله الانسان بحريته فى حى الضوء الأحمر . .

وصله صوت امرأة شبه عارية تدعوه للحب . . رنت ضحكات نسائية حوله . . أبصر باقة من بنات آسيا يضحكن . . البرد يجمده . . لابد أن يسرع الى البيت ، ويواجه الأسئلة وينام ، وفى الصباح يحمل حقيبته ويذهب . . ودخل البيت . . لم يجد أسئلة فى انتظاره . دخل حجرته . أبصر سرير صديقه خاليا . نام . فى الصباح استيقظ . حمل حقيبته ، وقال للفتاة التى تجلس بجوار الباب الخارجى على استحياء :

ـ الشرطة أوقفت صديقى عادل فى الطريق وأخذته . .

قالت وكأنها تسمع شيئا عاديا :

ـ سنرسل حقيبته الى مصر على عنوانه !

وخرج من البيت مندهشا . ينبغى أن يمضى مسرعا من حى الضوء الأحمر . رأى المياه تحاصر البيوت . أبصر جزءا من جدار قد تهدم . المياه تحت البيت . أمستردام راقدة على بحر . يريد أن يجرى . يهرب من طوفان . . ارتاح عندما التقت عيناه بمبنى المحطة ، كأنه طوق نجاة ، يغادر هذه المدينة التى باعت نفسها للشيطان . . أبصر بائعة الزهور . . الحمام يتقافز حولها . . شعر بالفرحة كأنه يرى حمامه فوق سطح بيته فى حارة الحلوانى . اقترب من بائعة الزهور . يريد أن يشترى وردة . . أبصرها تترك

زهورها فى فزع . تنبه الى أن الترام الأصفر قد توقف . ونزل السائق . وتجمع الناس . ابصروا حمامة . لا تريد أن تطير . خاف البعض أن يكون شىء قد أصابها . بدا الانزعاج على الوجوه . . توقف صف من الترام . ارتبك المرور . مضى بعض الوقت حتى طارت الحمامة . وعادت السعادة الى الوجوه . تذكر فرط الرمان التى كانت ترقص للشمس ذات صباح فى حارة الحلوانى ، وسحقها المعلم الحلوانى بعربته . تفرس الوجوه التى حوله . شعر بأنه قد وقع فى هواهم . لن يترك امستردام . . المدينة التى تتوقف فيها الحياة من أجل حرية حمامة !!

●

[٣]

ركب أدهم الترام الأصفر . شعر بالزهو . يركب تراما رفض أن يمشى احترامـا لحرية حمامة . يمسك بيده عنوانا لحجرة أعطته له فتاة لخدمة الأجانب . قالت له فتاة تجلس بجواره :

ـ غريب . .

هز رأسه . مشى الترام.

فقالت :

ـ عن يمينك حى النساء السيئة !

تأمل الفتاة . . فى وجهها براءة زهرة . .

وقالت :

ـ هذا ميدان « دام » قلب امستردام . . هتلر قتل فيه آلاف الهولنديين أثناء الحرب العالمية الثانية . .

شعر بالتعاطف معها ، كأنها قد قالت له : أن أباها قد مات فى هذا الميدان . .

تناولت العنوان من يده . قالت باسمة : بيتك بجوار ميدان به ثلاثة متاحف ومسرح غنائى . قفز قلبه فرحا . أعطاها الوردة التى اشتراها كأنه يكافئها . شعر بالسعادة . نزل من الترام . صعد سلما قد فرش بالسجاد . أبصر وجها كالبدر يقدم نفسه :

ـ مارى . .

قال :

ـ أدهم . .

دخل حجرة فى الطابق الثانى من الفيللا . رقد على السرير بملابسه . أغمض عينيه . فتح عينيه بعد دقائق . دارت نظرته فى الحجرة . . لوحات . . ستائر أنيقة . . ورد . . لامس جهازا . . انسابت موسيقى . . يريد أن يحدث مارى . ينادى عليها . . أعاد الجهاز إلى صمته . . يسألها كيف يعمل هذا الجهاز ؟ فتح الباب سمع صوت الصمت . نادى بصوت خفيض :

ـ مارى . .

لم يسمع صوت مارى . نزل عدة سلالم . نادى بصوت أكثر ارتفاعا . سمع صوت امرأة عجوز :

ـ تريد شيئا !

ارتبك أدهم . . قال :

ـ أريد أن آخذ حماما . . أين الحمام ؟ !

قالت :

ـ بجوار حجرتك . .

عاد إلى حجرته . أغلق الباب . انسابت الموسيقى . خيل اليه أنه يسمع خطوات مارى . فتح الباب . لم يسمع شيئا . تأمل لوحة أمامه . . الخريف يعرى الشجر حتى يكسوه الربيع . . فتح النافذة الصغيرة . . المطر رقيق . . مد يده يدغدغها برشاش المطر . أبصر البيوت متشابهة

بدت له كفـرقـة موسيقية تعـزف فى الهـواء الـطلق . . ترتـدى ملابس متشابهة . . الحجر الأحمر واللون الأبيض . . والخضرة تطل عليه من وراء الزجاج المغلق . . حجرات البيوت تبدو من وراء الزجاج كلوحات رسمها فنان . .

سمع طرقات على الباب قال بالعربى :

ـ من ؟ !

ـ أنا . .

فتح الباب . . أبصر مارى ضاحكة . . قال وهو غير مصدق ما سمع . .

ـ تتكلمين بالعربية ؟ !

ضحكت :

ـ أحاول . .

ـ لماذا ؟

قالت بالانجليزية :

ـ أريد أن أزور العالم العربى . . ولكى أعرفه جيدا ينبغى أن أتعلم لغته . . ثم قالت بالعربية :

ـ تريد شيئا ؟ !

كأنه قال لها بعينيه : أريدك أن تجلسى وتحدثينى

قالت :

ـ إنى ذاهبة . .

وشى صوته بحزنه :

ـ ذاهبة ؟

ـ اطمئننت على أمى . .

ـ أمك ؟

ـ كانت متعبة . .

ـ ألا تقيمين هنا . .

ـ فى بيتى . .

ـ متزوجة . .

ـ لا

تنفس أدهم :

ـ وتدرسين ؟ !

ـ الزهور . .

قال بفرحة غامرة :

ـ الزهور . . وأنا أيضا . . قادم لأدرس الزهور فى مدينة الزهور . .

ضحكت ، فضحك . .

مدت يدها . . خفضت صوت الموسيقى . . بدت الموسيقى همسا . .

قالت :

ـ ألم تر أمستردام بعد ؟ !

ـ جئت من المحطة مباشرة !

ـ إذا أردت أن ترى أمستردام فعندى أجازة اليوم وأستطيع أن أصحبك فى جولة . .

اهتز بالسعادة :

ـ من الجميل أن أرى أمستردام من عيون فتاة جميلة . .

ضحكت مارى . تذكر ضحكة كروانة . .

قالت :

ـ لا تجاملنى كثيرا . .

ثم قالت :

ـ متى تحب أن تذهب . .

ـ الآن . .

مشى معها فى الشارع . لا يصدق أنه يمشى مع عود زهر . أراد أن يعبر الطريق . كانت الاشارة حمراء . استوقفته . . قال فى خجل :

ـ لم أنتبه .

وقف على محطة الترام الأصفر . أبصر رجلا فى ثوب امرأة يضع حلقا فى أذنيه . ضحك . شاركته امرأة هندية ، كانت تقف بجواره ضحكته . لم تضحك مارى وقالت :

ـ حريته . .

ـ لكن . .

ـ « لكن » تجعل الحرية لا حرية !

ـ أشعر بالقرف ، كأنى أمشى فى سدوم التى حلت عليها اللعنة . .

ـ وأنا أشعر بالغضب عندما تضع قيدا على حريتى . . فأفكر فى التمرد . . لماذا أصرف طاقتى فى التمرد ؟ . . أمى علمتنى أن أمارس حريتى بلا حدود . . وأتعلم من ممارسة الحرية وأتقدم الى الصواب . .

قال بعد أن ركبا الترام :

ـ الحرية بلا قيود . . جنون !

ضحكت :

ـ وأنا عاشقة للجنون . . أحب أن أعيش فى امستردام وأموت فى أمستردام . .

ومضى الترام الأصفر ، ينزل الناس ويركب غيرهم ، ولا أحد يسأل عن تذاكرهم . .

قالت باسمة :

. تعلم هؤلاء ألا يسألهم أحد . . فقاموا بواجبهم . . اشترى كل واحد تذكرته قبل أن يركب . .

أراد ان يحدثها عن الذين يهربون فى ترام القاهرة من دفع ثمن التذكرة . . ولكن شيئا قد حدث . وقف بعض الرجال من بين الركاب وطلبوا ابراز التذاكر . لم يجدوا راكبا بلا تذكرة .

قالت وهى تنظر اليه :

ـ لا يظهر هؤلاء كثيرا . .

أحب نظرتها . نظرة الثقة فى الحرية . .

أراد أن يقول لها : الفقر فى بلدى يجعل الانسان يهرب من ثمن تذكرة

ترام . . ولكنه وجد نفسه يقول لها :

ـ ولكنكم استعمرتم شعوبا !

قالت فى شىء من الحزن :

ـ أشهر بالعار وأنا أقرأ تاريخ بلدى !!

كان الترام يمضى بين الحمام والورود والقنوات التى تمتلىء بالأوز الأبيض . .

قال :

ـ لولا الاستعمار ما وصلتم الى كل هذا . .

قالت :

ـ كنت أفضل ألا نصل . . !!

وصمتت قليلا ثم قالت فى ثقة :

ـ كنا سنصل حتما فى يوم من الأيام . . شاهدت فيلما اسمه بيضة الثعبان يصور ألمانيا قبل هتلر . . كانت الحياة مفزعة فى ألمانيا فى هذه الأيام . . كانت تنبىء بميلاد هتلر . . لو لم يولد هتلر لولد آخر . .

ثم قالت بثقة :

ـ لو لم نستعمر . . لكنا قد وصلنا الى هذا التقدم بطريقة أخرى . .

ركب رجل أسود . .

قالت :

ـ أشعر بتأنيب الضمير عندما أرى واحدا من السود وأتذكر أننا قد سرقنا أجداده . . !!

ثم قالت فى شىء من الجدية :

ـ وأود أن أعطيه ما يعوضه . .

وابتسمت وهى تقول :

ـ ويبدو من الغباء أن تمد يدك وتعطيه شيئا وتقول له : هذا تعويض عما نهبه أجدادى من أجدادك . . يعتبرك مجنونا !

ثم قالت وهى تحتويه بنظرة رقيقة :

ـ اعطيه ابتسامة رقيقة تعويضا عما فعله أجدادى !

ثم ضحكت . أشرق وجهها الأبيض بسعادة طفلة . شعر بخيبة أمل . تعتبره أسمر قادما من أفريقيا . وتعطيه الاهتمام إحسانا . امتلأ بغضب صامت . شعر بالتعب فجأة . تثاءب . .

قالت :

ـ متى تريد أن تذهب الى مدينة الزهور ؟ !

قال بنبرة لم تستطع أن تكتم غضبه :

ـ فى الصباح !

●

[٤]

فى الصباح الباكر كان يمشى فى مدينة الزهور . لم ينتظر مارى . ارتدى ملابسه وخرج مسرعا . وسأل حتى عرف الطريق الى مدينة الزهور ، وكأن وصوله الى مدينة الزهور بدون مساعدة مارى هو الرد على شعوره بالغضب من أنها تعطيه الاهتمام احسانا . شعر بالفرحة وهو يمشى فى شوارع المدينة . يكتشف مدينة الزهور . . بدا له أن النهار متكاسل . . ولكن أهل السمير يدفعونه الى الظهور بعجلاتهم التى تجرى وخطوات أقدامهم المسرعة . . الناس حوله كالورود . . والأكواخ الصغيرة كأنها عناقيد من الخضرة . . والقنوات تجرى حول البيت . . أبصر شجرة كشجرة أم الشعور التى يعرفها فى مصر . . اقترب منها . . أبصر وجهها كوجه مارى . . يعرف أنها تعمل فى مدينة الزهور . . تمهل . . يريد أن تلتفت اليه . . ولكن الفتاة مضت . . تنبه إلى أنها ليست مارى . . ولكنها تحمل ابتسامتها . . البط يسبح فى بحيرة . . المطر ينزل رقيقا . . البط يتهايل كأنه يراقص قطرات المطر . . والورد يهتز كأنه نشوان بخمر الطبيعة . . أبصر بيتا من الزجاج . . يعرف أن الورود فى هذه المدينة تعيش فى بيوت زجاجية . . اقترب من الباب . . استقبلته ابتسامة رجل . . لم يتح له فرصة السؤال . . تقدمه . . دخل فى إثره . . أبصر الورد البلدى يتهايل . . تذكر الورد الأبيض الذى زرعه فى حديقة الحلوانى . . مال على وردة كأنه يلثمها . . ليست لها رائحة ورد بلده . . دارت نظرته . . أبصر القرنفل والنرجس . .

قال الرجل بابتسامته :

ــ السوسن الهولندى .

سيسمى مارى . . سوسن .

قال الهولندى :

ــ نزرع كل الزهور . .

شعر بالبهجة

قال الرجل :

ــ نوفر الطبيعة التى تريدها الزهرة . . لا مستحيل فى السمير .

شعر بالدفء . . أبصر الندى يلثم خد الزهر . .

سمع الرجل يقول له :

ــ بعد خراب الحرب تنبت زهور العالم فى هولندا،ويجىء الينا من يطلب خبرة الزهور !

قال أدهم بفرحته :

ــ إنى قادم لأتعلم . .

قال الرجل . . كالعاشق الذى يلتقى بعاشق مثله :

ــ لغة الزهور . .

وضحك وهو يردد المثل الهولندى الذى يقول :

دع الزهور تتكلم . .

ثم قال :

ـ فى الربيع سترى الطبيعة وهى تصنع لنا الزهور . . وفى مدينة السمير . . سترى ما يصنعه الهولنديون !

شعر كأنه عصفور يطير فى مدينة الزهور . . يلتقط حبات الجمال ويشرب قطرات المطر . . ويقضم تفاحة خضراء وجدها على صدر شجرة . . يمشى فى جنة من صنع الانسان . . تذكر كروانة . . تمنى لو كانت تمشى بجواره . . تقاسمه الجمال . . شعر فجأة بالحزن . . تركها دون كلمة وداع . . رن فى رأسه صوت فلة وهى تقول له قبل أن يترك القاهرة : ستعرف فى الغربة أنك ظلمت كروانة . .

سالت قطرات المطر على وجهه فبدا كأنه يبكى . . تمنى فى هذه اللحظة لو أنه يموت فى هذه المدينة . . ويتحول جسده الى تراب تنبت فيه زهرة . . تنبه بعد قليل الى أن النهار قد جرى مسرعا . . سيبقى حتى تنام الزهور . . لا يريد أن يتركها وهى مستيقظة . . ولكنه وجد نفسه يتعجل الأتوبيس . . يريد أن يعود مسرعا إلى أمستردام . . وتفتح له مارى الباب ويحكى لها عن يومه فى مدينة السمير . .

●

[٥]

لم تفتح مارى له باب الفيللا . . تضايق . صعد السلم الخشبى متثاقلا . توقع أن يراها واقفة تنتظره . لم يجدها . يسأل عنها . صعد دون أن يفتح فمه . دخل حجرته . فكر فى أن يذهب اليها فى حجرتها . فتح الباب وخرج . احتواه صمت الفيللا . شعر بسخافة ما يفعل . عاد الى حجرته . ترك الباب مفتوحا . توقع أن تجىء اليه بعد قليل . تسأله :

لماذا لم ينتظرها فى الصباح ؟ ! أدار الموسيقى . ما شاهده فى الصباح جعله يشعر كأنه نغمة فى الموسيقى الحالمة التى يسمعها . غلبه النعاس ونام . فتح عينيه . أبصرها تقف أمامه تحمل له طعام الإفطار . كأنه يحلم . .

قالت :

ـ مازلت نائما ياعزيزى الكسلان . .

واتجهت الى النافذة وهى تقول :

ـ الشمس تملأ الدنيا فى الخارج . .

أزاحت الستار وقالت :

ـ عصفورة تقف على النافذة تريد أن تقول لك صباح الخير . .

رأى وجهها فى أشعة الشمس كأنه سوسنة . . قالت :

ـ أين كنت بالأمس ؟ . . أخذتك الساحرة أمستردام . .

وضحكت

قـــال :

ــ ذهبت الى مدينة السمير . .

قالت :

ــ ورأيت السوسن الهولندى ؟

قال :

ــ وسأسميك سوسن !

ضحكت من قلبها .

ــ أنت تبالغ أيها الشرقى . . تريد أن تغضب السوسن . .

قالت وكأنها شعاع نور يسبح فى أشعة الشمس التى ملأت الحجرة :

ــ أحك لى . . كيف ذهبت ؟ وماذا رأيت ؟ أعجبتك مدينة الزهور . .

لم يجد رغبة فى أن يحكى لها فقال :

ــ ظننتك قد ذهبت إلى بيتك . .

ضحكت وهى ترتب باقة الورد الأبيض وقالت :

ــ سيذكرك بالورد الأبيض الذى زرعته فى حديقة الحلوانى . .

شعر بشىء من الحزن . .

قالت ببسمتها :

ــ انهض أيـها الـكسـلان . . العصفورة تريد أن تأخذك إلى ثلاثة متاحف هذا الصباح .

•••

وصار موعدها الدائم معه فى ظلال الألوان . عندما لا تجده فى صالة فان جُوخ تجىء إليه فى صالـة بيكـاسـو . ترفض أن تجلس . . الـزمن لا يجلس . . تريد أن تجرى كالزمن . تنتقل به من متحف إلى اخر . الفن خمر الوجود . تريد منه أن يرتوى . يرتوى أدهم . أحس أنه عطشان ، كأن حضارة أجداده قد تفجرت فى داخله . أحس أن عشقا قديما يستيقظ فى عروقه . تعلمه سوسن كيف يشرب اللوحة ؟ ركز يا أدهم وأغمض عينيك نصف إغماضة . . وأطلق العنان لأحاسيسك . . تتحول اللوحة إلى عالم زاخر . . تعـانق فيه أحـاسيس الفنـان . . وتتحدان فى لحظة عشق . . وعندما تفتح عينيك وتعودإليكأحاسيسك تجدها قد اغتسلت بالدفء . . ودفء الفن يجعل الدنيا أغنية . . والإنسان فى حاجة إلى أغنية ليعبر بها عبث الـوجـود . . أغمض أدهم عينيه . . لا يسمع صوت سوسن . . يسمع أغنية . تحلق به فى عالم مسحور . خيل له أنه سيفتح عينيه ولن يجدها . فتح عينيه . أبصرها ترتدى رداء أحمر ، وتضع شالا أبيض . وترتدى حذاء مطر . أمسكها بأنفاسه . كأنه يمسك فتاة قادمة من أسطورة . وعلى باب المتحف ناولته تذكرة لحفل موسيقى وقالت :

ــ الليـــلة . .

قال بخوفـــه :

ــ سأذهب وحـــدى ؟ !

قالت :

ــ لا تخف لن أتركك للساحرة أمستردام وحدك . . أخاف عليك من سحرها . .

ثم ضحكت ، وكـأن ضحكتهـا ينبـوع ماء وهـو جالس على حافة الينبوع . . يرتوى . .

جلس أدهم بجوارها فى قاعة الموسيقى . لمح فى وجهها ملامح امرأة من حى الضوء الأحمر . . جرت نظرته إلى بتهوفن وشوبان وفاجنر . . أعلام الموسيقى مرفوعة فوق رأسه . نزل قائد الأركسترا على بساط أحمر . امتلأت القاعة بموسيقى موزارت . بدأ المايسترو كعصفور . وتحول فى لحظة إلى رعد . . جن الناس . . وجنونهم كان التصفيق الحار . . ويتحوا الرجل إلى ذوب من التواضع . ويلقى بالكبرياء على الأوركسترا الرابض على المسرح . . وعندما وقف عازف الفلوت يرسل سحره . . طارت عينى أدهم حمامة . . تذكر فرط الرمان . . رف قلبه . . شعر بالحزن . لم يكتب رسالة إلى أبيه فى حارة الحلوانى . . جلس عازف الفلوت ولم التصفيق لم يتوقف . . نظر إلى شعر سوسن . . خيل له أنه يرى شعر كروانة . . أراد أن يتحسسه بأصابعه . . ما زال التصفيق يدوى . . خيل له أن جدران المسرح تصفق . . ويحتضن المايسترو عازف الفلوت . . شعر أدهم بالحب . . غضب من نفسه لأنه ترك كروانة دون أن يقول لها كلمة وداع . . لم يكن يريد أن تصمت الموسيقى . . ولكن الموسيقى توقفت . . ليس من شأن الموسيقى أن تستمر . . شعر أدهم وسوسن تضع بالطو على كتفيها . . إنها تقول له :

ــ هذه هى هولندا . .

مشى بجوارها . . الميدان اغتسل بالمطر . . ونسمة الليل بدت نغمة . . والطبيعة حوله سيمفونية . . لم يقل أحد للآخر نمشى . . وجد نفسه يمشى . . وسوسن تمسك بيده . . والأشجار تفرش الطريق بأوراقها . . رن فى رأسه صوت كروانة وهى تقول له : أدهم . انفلتت سوسن من يده وهى تقول :

ــ هذه مدرستى . . كانت بلا فناء نلعب فيه . . لذا عندما كان

الصباح يجىء بلا مطر . . كانت مدرستنا تأخذنا وتذهب إلى الحديقة . .

ومشت فى اتجاه الحديقة التى تقع بين متحف فان جوخ ومتحف الفن الحديث . . ودخلت حديقة مزروعة بالتماثيل . .

قالت :

ــ فى هذه الحديقة كنا نلعب ونحن صغار . .

وتأملت وجهه على ضوء القمر وهى تقول له فى تأثر :

ــ أذكر أننى كنت منجذبة لطفل أسمر جاء من أفريقيا . . كان الطفل خائفا من الأطفال . . الأطفال كانوا أشقياء . . لا يعرف لغتهم . . أعطيته عروستى . . وحدثته مرة ولم يجبنى ، وصرخت فيه ، وعرفت بعد ذلك أنه لا يسمع جيدا . . وعدت إلى بيتى ولم أنم . . وبكيت وعرفت أمى بما حدث فنصحتنى بأن أحمل له الحلوى فى الصباح . .

شعر أدهم برغبة فى أن يجرى ، تطلع إلى السماء . يريد أن يرى القمر الذى تراه كروانة فى حى الجمالية . .

قالت سوسن :

ــ القمر نادرا ما يظهر . السحاب دائما يسرقه منا . انظر إنه يحاول أن يسرقه . .

وجد نفسه يجرى . . كأنه يجرى وراء السحاب حتى يمنعه من أن يسرق القمر الذى تراه كروانة . . جرت فى إثره وهى تقول :

ــ ولكننا نحمل القمر فى داخلنا . .

تفجرت كروانة فى شرايينه . . وجد نفسه يحتضن سوسن والمطر ينهمر حولهما وشعرها الطويل كأنه يغطيهما عن عيون الدنيا . .

وأعطته مدينة الزهور أسرارها . . وسوسن كانت الساحرة التى فتحت له أبواب المدينة . . طوال الأسبوع يرتوى بأسرار الزهور . . وفى نهايته يأخذ أجرا سخيا . شىء يفوق حلمه . . عندما يعود إلى حارة الحلوانى سيتركها ويذهب إلى الصحراء . . يقيم عالما جديدا من الزهور . . دارت نظرته حوله كأنه لا يريد أن تضيع لحظة دون أن تمتلىء عيناه من مدينة الزهور ، شعر بشىء من الحزن . . تذكر كروانة وهو ينظر لشعر سوسن الجالسة بجواره فى الأتوبيس . .

قالت سوسن وهى تحتضن باقة من زهور السوسن الهولندى :

ــ ماذا بك ؟ !

قال بعفويته :

ــ حـــزين . .

قالت ضاحكة :

ــ لأنك ستغيب عن مدينة الزهور فى نهاية الأسبوع :

اختنق صوته وهو يقول :

ــ لأنى أحـــون . .

فهمت ما يعنى بعبارته :

ــ لك فتاة فى مصر . .

ــ كروانة .

ــ وتحبهـــا ؟

هز رأسه . . كان يريد أن يقول : وعندما ألمس شعرك ، أشعر بأنى

ألمس شعرها ولـكنه صمت . .

قالت بحروف شعر بأنها باردة :

ــ الحب شىء جميل . .

قال :

ــ والزهور تجعلنى أشعر بخيانتى ! ؟

تذكـرت أن باقـة السوسن التى أحضرتها له ما زالت فى حضنها . . ناولته الباقة . . أراد أن يقول لها : لا أستحق هذه الزهور . . ولـكن نظرتها التقت بنظرته . . فامتدت يده . . وتناول باقة السوسن . .

ومضت العربة . .

قالت وهى ترمقه بنظرتها :

ــ سأعود إلى بيتى الليلة . . أمى لم تعد بحاجة إلى . .

قال دون أن ينظر إليها :

ــ لن أعود إلى مدينة الزهور مرة أخرى . .

وابتلع عبارة : سأسافر إلى مصر . .

وطال الطريق . . فقد كانت الساعة الرابعة . . وأمستردام عائدة إلى بيوتها . .

قال أدهم وقد شعر أن العربات تمشى على صدره :

ــ الطريق مزدحم . .

ــ الهولنديون لا يطيقون لحظة يمضونها بعيدا عن بيوتهم بعد انتهاء العمل . .

أخرجت علبة سجائرها . ناولته سيجارة . . لا يريد إشعالها . . ولكنها أشعلتها له . . شعر بشيء فى داخله يشتعل . . هل اشتعل حبها فى داخله ؟ شعر بالتعب . . يريد أن يضع رأسه على كتفها . .

قالت له وهو يصعد سلم البيت الخشبى .

ــ لا تترك مدينة الزهور حتى تتم دراستك وتعود إلى بلدك وتزرع الزهور فى الصحراء كما تحلم !

ــ وأنت لا تعودى إلى بيتك الليلة . .

ضحكت فضحك . . وصلهما صوت الأم :

ــ الشاى ينتظركما . .

●

قبض على ذراعها ، كأنه يقبض على لحظة يتحول فيها الإنسان إلى نغمة . . لا يريد للحظة أن تمضى . . أمضى معها المساء فى حفل باليه . . يمشى معها فى شوارع أمستردام . . لا يريد أن ينتهى الليل . . فى عينيه باليه . . وروحه عصفور يحلق لا يريد أن يهبط إلى الأرض . .

قالت له :

ــ جائعة . .

نظر إليها وكأنه اندهش أن تكون جائعة فى هذه اللحظة . .

قالت له :

ــ لم تر بيتى ؟ !

أراد أن يجرى . . كان المطر رقيقا . .

قالت :

ــ أريد أن ترى أولادى !

أحس أنه لا يستطيع أن يجرى . . تمسكه من ذراعه . . سار بجوارها . . ركبا تراما . . نزلا . . مشيا . . اكتشف أنها تسكن المياه . .

قال وهو يخطو على السلم الخشبى للعوامة :

ــ جنية !

ــ لا تخطف الشباب . .

ثم ضحكت ، تعلقت نظرته بلوحة مكتوبة فى صدر العوامة : انت شخص حر . . لأنك بحريتك اخترتنى !

جلس ، تحركت سوسن فى البهو . خيل له أنها تسبح . . قالت :

ــ بيتى كان سفينة . أعشق البحر . . أحس أنى ابنته . أسمع حديث الماء فى الليل . أروع موسيقى هى موسيقى البحر . . معظم هولندا كانت فى الماضى بحرا . أتخيل نفسى سمكة وأنا فى الباخرة . .

وضحكت . سمع صوت نباح كلب ، قالت :

ــ نسيت أن أقدمك إلى أولادى .

هاجمه كلب أسود قالت :

ــ جاك . .

توقفت حركة الكلب . .

قالت ضاحكة :

ــ يغار على . .

ثم أمرت جاك بأن يجلس فجلس تحت قدميها وقالت له :

ـ هذا أدهم الذى حدثتك عنه . . سلم عليه يا جاك . .

اقترب الكلب من أدهم . مد يده . . تردد أدهم فى مد يده . اكتفى بأن ربت على ظهره . نادت على مونيك . نظرت إليه القطة قال ضاحكا :

ـ عيناها كعينيك يا سوسن ؟ !

ضحكت وهى تجذبه من يده وتقول :

ـ لم يبق سوى الصغير . .

دخل حجرة مجاورة . أبصر عروسة نائمة فى سرير صغير . وقالت وهى تشير إلى الهدايا التى حول العروسة :

ـ هدايا القديس . .

ثم حكت له أن أطفال هولندا يعتقدون أن قديسا يجيء من أسبانيا حاملا الهدايا لهم . . ويعود فى اليوم التالى إلى أسبانيا . . ويشترى الآباء الهدايا لأطفالهم ، ويضيئون أمستردام ، ويقيمون الاحتفالات فى الميادين . .

أدارت الموسيقى وقالت وهى تشرب الشاى :

ـ تحبنى يا أدهم ؟ !

توقفت رشفة الشاى فى حلقه . .

قالت وهى تمسك ذراعه :

ـ الصمت فى بلدك يعنى الحب . .

ثم أدارت له اسطوانة أم كلثوم « على بلد المحبوب » وهى تقول :

ـ اشتريتها من باريس . .

شعر كما لو أنه سقط . . أصبح بلا مقاومة . . تذكر حارة الحلوانى . . وكروانة . . امتلأ بالشوق لها . . أبصر سوسن أمامه . . شعر برغبة فى أن يلقى بنفسه فى المياه التى كانت خلفه . . أمسكته . . أراد أن يجذب يده . . لم يستطع . . سمع صوت الموج . . اشتعل الحريق . . أدهم إنى أحبك . . أغمض عينيه كأنه يغرق . . التف شعرها حوله ، كأنه شعر كروانة . . يتعلق به . . ينقذه من الغرق . . ارتطم موج البحر بالسفينة القديمة . . يذكره بأنها ليست كروانة . . وجد نفسه يقول :

ـ جنية من أمستردام !

•••

وفى الصباح وهما يحتسيان الشاى قالت له :

ـ صدر قانون يمنع تشغيل الأجانب . .

قال فى لا مبالاة :

ـ لن أعمـــل . .

قالت فى حمـــاس :

ـ ســـتعمل . .

حملق فى وجهها . ارتسم عليه الجد . قالت :

ـ نتزوج . .

شحب وجهه . . قالت بسرعة :

ـ نتزوج بلا زواج . . على الورق . . ويصبح من حقك أن تقيم فى

هولندا وتعمل . . وتكمل دراستك فى مدينة الزهور . . وتعود إلى بلدك وتحقق حلمك فى أن تقيم عالما من الزهور فى الصحراء . .

ثم قالت مبتسمة :

ــ لاتفكر فى هذا الصباح . . الصباح صباح الأحد . . وسنمضيه فى التزحلق على الجليد . .

قال مستنكرا :

ــ ولكنى لا أعرف التزحلق على الجليد . .

ــ سأساعدك وستجده شيئا ممتعا . .

•••

سقط أدهم على الجليد .

شعر بالحزن لأنه لم يقاوم الخوف . .

ضحكت سوسن :

ــ وجهك شاحب . . انت خائف ؟ !

تذكر وجه كروانة . .

غمغم :

ــ قدرى . .

قالت وكأنها تحتج عليه :

ــ قدرك نفسك ! !

أراد أن يقول لها وهو يحس بآلام السقوط : فى بلدى يؤمنون بالقدر . . وأن هذا السقوط على ثلج هولندا . . قد كتب فى لوحة حياتى . . على جبينى . .

قالت :

ــ لو انتبهت ولم تخف ما سقطت . .

شعر أنها بعيدة عنه رغم أنها تقف أمامه . خيل له أنه يسمع صوت كروانة يخرج من نفسه . شعر بالراحة .

قالت سوسن تشجعه :

ــ الأطفال حولك يجرون بلا خوف . .

نظر فى وجهها . أوربية بيضاء . زرقاء العينين . شعرها أصفر . الدم يقفز من وجهها . تحدث صديقة لها بلغة لا يفهمها . شعر أن الهولنديين الذين يتزحلقون كأنهم يتزحلقون على صدره . شعر بالاختناق . أراد أن يجرى منها فسقط . .

ــ لن تتزحلق ما دمت تخاف . . ينبغى أن تتخلص من خوفك .

ثم قالت بدهشتها :

ــ لا أعرف لماذا أنت خائف ؟ !

أوشك أن يقول لها : إنى أحمل على كتفى خوف أجدادى . ولكنه شعر بالبرد فقال :

ــ إنى جائع !

مشت بجواره إلى المطعم ، كأنها ليست سوسن . . بدت له كما لو أنها

فتاة غريبة . امتلأ رأسه بسؤال وهو يأكل البطاطس الساخن : هل أحبته دون أن تفهمه ؟

قالت له بعد أن أكل :

ــ سنجرب من جديد !

قال :

ــ لن أتزحلق . .

تأملته للحظة ثم قالت بابتسامتها :

ــ أنت حر !

•••

لم يستطع النوم . تجسدت له كروانة تجلس أمامه . تعاتبه بدموعها . تركها وحيدة فى حارة الحلوانى . شعر برغبة فى أن يعود إلى الحارة ويمسح دموعها . ويحررها من عالم الحلوانى ويأخذها ويذهب بها إلى الصحراء . ويقيمان عالما من الزهور ، اصطدمت نظرته بجدران الحجرة الضيقة ، كأنه يريد أن يحرر نظرته من جدران حجرته . قام من فراشه ، وقف وراء النافذة ينظر . أبصر رجلا فى البيت المواجه له ينظر إليه فى غضب ، كما لو أنه يقتحم بوقفته وراء النافذة فى الليل حق الرجل فى ألا يراه أحد فى هذه الساعة من الليل . أعاد الستارة . تبين أن الحجرة أضيق مما كان يظن . بدت له كزنزانة . تذكر حجرة نومه الرحبة فى بيته فى حارة الحلوانى . اشتاق لفراشه وصوت أبيه وهو يملأ عليه البيت . يريد أن يلقى بنفسه فى حضن حارته . ويلتقى بعمال الوكالة ويشرب شاى عم حمص ويسمع زغرودة فلة . تذكر أنه يحمل شيئا من حارته . فتش فى حقيبته . وجد عقدا فرعونيا . احتضنه بأصابعه . امتلأ بصوت كروانة . تفهمه دون أن يتكلم . شعر برغبة جارفة فى أن يحمل حقيبته ويعود إليها . .

•••

فى الصباح الباكر . . قبل أن تحمل له سوسن طعام الإفطار . . خرج . لم يذهب إلى مدينة الزهور . وجد نفسه يذهب إلى حى الضوء الأحمر . اندهش من نفسه . لم يشعر بالغثيان وهو ينظر إلى النساء اللاتى يجلسن فى العلب الزجاجية . ليس فى داخله شىء للغثيان ؟ كأنه يمتلىء بالجمال . حملته قدماه إلى بيت الشباب المسيحى . دخل . فوجىء بعادل الذى خطفته الشرطة فى عربتها عندما كان يمشى معه فى شوارع أمستردام . ضحك عادل وهو يقول :

ــ عدت مرة أخرى ومعى أوراقى . لن تستطيع الشرطة هذه المرة أن تطردنى . أبحث عن هولندية تتزوجنى . وتعطينى ورقة . . ولكن المرأة الهولندية تبالغ . . تتاجر بحاجتنا . . تريد الآلاف . .

•••

عاد أدهم إلى البيت فى الليل . توقع أن يجد سوسن مستيقظة . وجدها نائمة . شعر برغبة فى أن يراها . وجد نفسه يحمل لها العقد الفرعونى ويطرق باب حجرتها . أبصرها ترتدى قميصا أبيض . . بدت له كزهرة بيضاء فى الضوء الخافت . .

قالت له :

ــ لماذا هربت ؟ خشيت أن أتزوجك رغما عنك .

ثم ضحكت ضحكة مكتومة . قدم لها العقد . قالت بمرحها :

ــ الشبكة . .

قال :

ــ ضعيه حول عنقك ؟

قالت :

ـ فى الصباح . .

ـ أريد أن أراه حول عنقك الآن . .

وضعت العقد حول عنقها . . أضاء نور الحجرة القوى .

قالت :

ـ مجنون . . تستيقظ أمى ؟ !

ثم أطفأت النور وهى تقول :

ـ أريد أن أحدثك فى الصباح فلا تهرب . .

خرج من حجرتها . انتظر الصباح الباكر . حمل حقيبته . ترك البيت . قرر أن يغادر أمستردام . . عائدا إلى حارة الحلوانى . مشى فى الشارع الطويل . كان الهواء شديدا . وأوراق الخريف تجرى تحت قدميه . . توقف . . التفت . . يلقى نظرة على البيت . وقعت عيناه على نافذة حجرة سوسن . يحتفظ بصورتها فى عينيه وهى تضع العقد الفرعونى حول عنقها . أبصر الشجر قد تعرى من خضرته . تتساقط الأوراق حوله . أحس كما لو أن دمعة تجرى على خده وهو يتذكر عبارتها : تحبنى يا أدهم ؟ !

●

الجزء الثالث

[١]

وصل أدهم حارة الحلوانى فى الليل . كأنه يحتضن نسمتها بروحه . يود لو تذوب نفسه التى اغتسلت بعطر الزهور فى كل نسمة تتنفسها الحارة . لم يجد عم حمص ساهرا كعادته أمام دكانه يشرب الشاى . ابصر قصر الحلوانى . لم يشعر بكراهيته القديمة له . جرت نظرته تبحث عن كروانة ، كأنه سيجدها ساهرة تنتظره وراء مشربيتها . لم يجد بصيصا من الضوء . اتجه نحو العمال الذين يفترشون الأرض أمام باب الوكالة . لم يعرف أحدا منهم . أسرع وصعد إلى بيته . وجد أباه مستيقظا كأنه يعرف أنه سيعود اللحظة . ذاب فى حضنه تزاحمت أشواقه . حكى له أيامه فى مدينة الزهور ، كأنه يحكى عن حلم . .

قال الأب بفرحته الغامرة :

ـ كنت أخاف أن تفعل كما فعلت حبيبة . .

ـ سافرت إلى أوربا ؟

ـ ولن تعود . . !!

ـ والحلوانى ؟ !

ـ يكاد يجن . . !!

أوشك أن يقول له بلهفته : وكروانة . . ولكنه قال : وفرط الرمان . .

ــ كروانة بنت أصيلة . . لم تغفل لحظة واحدة عن رعاية الحمام . .

اكتشف أدهم بعد قليل أن الليل قد مضى . والصباح قد أشرق . صعد إلى سطح بيته . يريد أن يرى حمامه . . تقافز حوله . . كأنه يرقص فرحا بعودته . . دارت نظراته تبحث عن فرط الرمان . . أبصرها تقف بعيدة عنه . . بدت له كالغاضبة . . امتدت يده إليها . . أمسكها بحنانه . . نظر فى عينيها . . خيل له أنه يرى دمعة كروانة . . شعر بحزن ثقيل . أحس أنه قد أخطأ فى حق كروانة . تركها تواجه الحلوانى وحدها . . سيسرع إليها ويطلب منها أن تسامحه ويحدثها عن حلمه فى الذهاب إلى الصحراء وزراعة الزهور فيها . .

استعجل النهار ، بدا لنفسه كأنه سيقابل فتاة لم تعرف الحلوانى ، ولم ترتد رداء جارية . ولم ترقص للتجار ، كأن لحظته قد تطهرت من الماضى . . نزل إلى الحارة بابتسامته . أبصر العيال يخرجون من باب الوكالة . احتضنوه بأشواقهم . اندفع جابر صبى الوكالة نحوه . يريد أن يحدثه عما فعل عشرى بعد أن تزوج طواوى من فطومة ، وتركا القاهرة . قال له :

ــ لا يترك واحدة فى الحارة دون أن ينسج خيوطه حولها . فعل هذا مع كروانة ، وعندما فشل ، اتجه إلى فلة . . وأنا أحبها يا سى أدهم . .

كأنه استغرب أن يحب جابر فلة رغم أنه يعرف حبه لها وهو يقول :

ــ تحب فلة ؟ !

ثم وقعت عيناه على دكانة عم حمص المغلقة وقال :

ــ وعم حمص ما أخباره ؟

ــ مات . .

وكأن جابر قد وجد سببا ليبكى . . منذ أحب فلة ودمعته قريبة من خده . .

قال أدهم فى تأثر :

ــ الله يرحمه . .

قال جابر بدموعه :

ــ أليس من حقى أن أحب يا سى أدهم ؟ !

شعر أدهم بالحزن . قفز إلى عينيه منظر تساقط أوراق الشجر وهو يمشى فى الشارع الطويل تاركا بيت سوسن فى أمستردام . رنت فى رأسه عبارتها وهو يقول : الحب شىء جميل . . وجد نفسه يقول :

ــ الحب شىء جميل ياجابر . .

كأن جابر حصل على موافقته بهذه العبارة على حبه لفلة فقال :

ــ أريد أن أتزوجها . .

رمقه بنظرة لم تخف دهشته . . فقال جابر :

ــ أعرف أنى فرفور الوكالة . . ولكنى بنى آدم ياسى أدهم . من حقى أن أتزوج من أحب .

شعر أدهم بأنه قد أساء إليه بنظرته فقال :

ــ لا أقصد . . ولكنى . .

ثم نظر إلى العطار الذى كان يفتح دكانه دون أن ينتبه إلى وجوده فى الحارة . . فقال جابر :

ــ أعرف أنها تحبه . . ولكنه لا يستحق حبها . . أريد يا سى أدهم أن أعوضها عن هذا الجب . .

اقترب الفخرانى منهما . . ظن أدهم أنه قادم ليرحب بعودته . . ولكنه أبصره يبتعد عنهما ويدخل بيت عشرى مسرعا . . فقال جابر :

ــ ذاهب ليخبر عشرى بأنك قد عدت . . أصبح جاسوسه . .

ــ ولكنه كان عدوه . .

ــ الدنيا تتغير بسرعة هذه الأيام . والمال يفعل المستحيل . .

شرد أدهم بنظرته فى اتجاه نافذة عشرى . . قال جابر :

ــ منذ سافرت حبيبة . . والمعلم قد أهمل شئون الوكالة . . وانتهز عشرى الفرصة وتحكم فينا . . أصبح شرسا . .

شعر أدهم بشىء من الخوف وهو يتوقع صراعا عنيفا سيقع بينه وبين عشرى فقال لجابر :

ــ وانت خائف من عشرى ؟ !

ــ الذى يحب لا يخاف يا سى أدهم . .

●

[٢]

تجاهل عشرى أنه قد أبصر أدهم يتحدث مع جابر ، والأجراء قد التفوا حوله فرحين بعودته . اتجه بخطوات مسرعة إلى باب القصر . . فرصته ليدخل على المعلم فى غرفة نومه فى هذه الساعة المبكرة من الصباح . يريد أن يرى الحجرة التى لم يدخلها حتى الآن . طرق بابها ، كأنه سمع المعلم يقول له : ادخل . . دفع باب الحجرة . . فزعت أنيسة زوجة المعلم . أسرعت وغطت نفسها بروب وهى تقول :

ــ ماذاتريد ؟ !

تنبه الحلوانى إلى وجود عشرى فى حجرة النوم . . كان بين اليقظة والنوم فقال :

ــ معذرة ياست الهانم . . أريد المعلم فى أمر هام . .

تنبه الحلوانى إلى وجود عشرى فى حجرة النوم . . كان بين اليقظة والنوم فقال :

ــ ماذا جرى ياعشرى ؟ !

أصاخت أنيسة السمع ، لتسمع ما سيقوله عشرى . . ولكنه تقدم من المعلم الذى كان ما زال راقدا فى فراشه ومال عليه وقال بصوت حاول أن يكون خفيضا ، كأنه لا يريد أن تسمع أنيسة ما يقوله :

ــ أدهم عاد يا معلمى !

تضايقت أنيسة من تصرف عشرى . . ولكنها سعدت بسماع خبر عودة أدهم فهى تحبه .

بدت الفرحة على المعلم كما لو كان يقول له : حبيبة قد عادت . . فقال :

ــ أين أدهم ؟ !

تركت أنيسة الحجرة . تذهب إلى كروانة وتخبرها بعودة أدهم لتفرح فهى تعتبرها ابنتها منذ سافرت حبيبة إلى أوربا .

تضايق عشرى من طريقة استقبال المعلم لخبر عودة أدهم . . تجاهل سؤاله وقال :

ــ بدأ يهيج الأجراء منذ لحظة وصوله . . ألا يكفيه ما فعل . . ؟ !

تذكر الحلوانى سطور رسالة ابنته التى كتبت فيها : لقد فتح أدهم عينى على الدنيا وجعلنى أسافر وأعثر على شىء من السعادة . .

قال المعلم وقد هاجت أعصابه :

ــ لا أريد أن أراه !

شعر عشرى بالانتصار . عندما أخبره الفخرانى بعودة أدهم . أحس بالخطر يتهدد نفوذه الذى وصل إليه فى فترة سفره . . فقال بسرعة :

ــ هذا لا يكفى يا معلمى . .

أشعل المعلم سيجارة رغم أن الطبيب منعه من التدخين . .

قال عشرى :

ــ الحارة تعرف أنه وراء ما حدث . . لو اكتفيت بعدم رؤيته ، فتفسر هذا على أنه ضعف . . ويشجع هذا العطار . . والعطار يريد . .

وصلها صوت أنيسة ، كأنها تحتج على بقاء عشرى فى حجرة النوم . كف عشرى عن الحديث . بدا للمعلم أنه سيترك الحجرة . . قال المعلم برغبة فى سماعه :

ــ انتظر . . اكمل . .

قال عشرى :

ــ العطار يريد أن ينـاسب الفيروزى يا معلمى ويتزوج اخته موزه . . !!

ضحل الحلوانى . . ظنها نكتة وقال :

ــ العطار يريد أن يتزوج موزه ؟ !

ــ طلب من زبيدة أن تسعى له فى هذا ووعدها بمبلغ كبير . .

اشتعل المعلم بالغضب . أمسكه من جرحه . حمل التراب على كتفيه ليشترى هذه الدار المهجورة ويحولها الى قصر ويقيم حفلا كالف ليلة وليلة للفيروزى . يريد أن يزوجه من حبيبة . . وعندما يوشك الحلم أن يتحقق . تسافر حبيبة إلى باريس وترسل اليه وتقول : لن تعود . .

قال المعلم :

ــ لا يمكن . .

وكأنه يقول : لابد أن تعود حبيبة . .

ثم أطفأ سيجارته فى طبق الفاكهة الموضوع أمامه . . قال عشرى :

ــ لابد أن نفعل شيئا يحمل انذارا للعطار . .

قال المعلم باهتمام وهو يغادر فراشه :

ـ ماذا نفعل ؟ !

ـ نطرد أدهم من الحارة . .

قال الحلوانى :

ـ ولكن الحارة تحبه ! . .

ـ كان هذا زمان . . الحارة الآن تشعر بأنه قد أساء إلى معلمه الذى رباه وعلمه فى الجامعة وجعله يسافر إلى اوربا وهو ابن السقاء !

أشعل الحلوانى سيجارة . شعر عشرى بأن المعلم قد أرتاح إلى كلماته . . فقال :

ـ أنت الحارة . . وواجب الحارة أن تقوم بواجبها نحو صاحب النعمة عليها . .

هز الحلوانى رأسه فى تأثر . .

قال عشرى :

ـ فتحت لأهل الحارة أبواب قصرك . . الذى يريد العمل أعطيته له . . والجائع اطعمته . . والمريض عالجته . .

وصلها صوت أنيسة وهى تنادى على الحلوانى فقال فى شىء من الغضب :

ـ انتظرى . .

شعر عشرى بأن المعلم أصبح فى قبضته فقال :

ـ نجعلهم لا يكلمونه . . عندما يدخل مكانا ينفضون عنه . .

ينبغى أن يشعر أن غضبك هو غضب الناس . .

هز المعلم رأسه فى حماس . .

قال عشرى :

ـ آن الوقت ليدفع أهل الحارة ضريبة الحب لمعلمهم . . يسددون بعضا من دينهم . .

قال المعلم :

ـ اعطيتهم الكثير يا عشرى . .

أوشك عشرى أن ينتهز الفرصة ويقول : وهذا يحتاج لبعض المال . . لكن صوت زغرودة فلة قد وصلها فقال عشرى وقد أحس أن فلة تغيظه :

ـ أرأيت يا معلمى ؟ !

ضحك المعلم وقد بدا أنه ارتاح إلى سماع زغرودتها فى هذه اللحظة وقال :

ـ أنت تعرف فلة ؟ !

ـ ولكنها ينبغى أن تعرف أن هذا لا يرضيك . .

أبصر الحلوانى امرأته تدخل الحجرة فقال بسرعة :

ـ اذهب الآن . .

بدت هذه العبارة لأدهم وهو يمشى فى ردهات القصر كما لو أنه أمره ببداية المعركة . .

فوجىء بكروانة أمامه . كانت أنيسة قد أخبرتها بأن أدهم قد عاد ، وأسرعت كروانة إلى المشربية وأبصرت أدهم يقف بين العمال . لمحها . أسرع يترك الذين يرحبون به ، ويدخل القصر . يقابلها . أسرعت إليه . .

قال عشرى بطريقة توحى بأنه يعرف أنها خارجة لتقابل أدهم :

ـ صباح الخير يا كروانتى !

شعرت بالقرف . قال ضاحكا :

ـ حبيب القلب قد عاد !

وضح على وجهها الغضب :

ـ لا تغضبى . . الـذى يحب يريد أن يرى محبـوبتـه سعيدة . . وستعرفين يوما كم أحبك . .

ثم التفت ليجد أدهم أمامه . أحس بالخوف . كان يريد أن يقول له : المعلم لا يريد أن يرى وجهك . ولكنه وجد نفسه يقول :

ـ نورت الحارة . . بالحضن يا حبيبى . .

واحتضنه فى تصنع وهو يقول :

ـ المعلم يريد أن يراك ليرحب بعودتك . .

ثم مضى مسرعا ، كأنه يهرب من خوفه . شعر بالهزيمة . سيلتقى أدهم بكروانة ويتحدثان دون أن يعرف شيئا من حديثهما . تذكر الفخرانى . سيرسله إليهما . سيجده جالسا على حجره بجوار قصر المعلم . . كان يتضايق من رؤيته جالسا على حجره بجوار القصر . . ولكنه تبين أهمية أن يجده عندما يريده . أسرع الخطو . فوجىء بفلة أمامه تتحرر من بعض ملابسها الثقلية فقد أحست بالحر فى داخل القصر . انتهز الفرصة وأراد أن يمسكها . بوغتت . دفعته بعنف حتى كاد يسقط على الأرض . . قال لها :

ـ أنا عشرى يافلة !

ـ سأقتلك لو لمستنى !

ابتعد عنها فى خوف وهو يقول :

ـ اقتلينى . . أريد أن أكون شهيد عشق فلة !

ـ جبـــان . .

ـ جبان من يحبك . . وجابر الأهطل ؟ !

وجدت نفسها تقول له بانفعالها :

ـ أشرف منـك . .

ضحك ضحكة صفراء ، أوشكت أن تصفعه . أسرع يبتعد عنها وهو يقول لها :

ـ ستندمين يوما !

اندهشت فلة من تصرفها مع عشرى عندما وصف جابر بالأهطل . لم تفكر فى حب جابر لها من قبل تفكيرا جديا . . تعتبره نوعا من سلية . . عندما تجده ينتظرها فى طريقها ، وتقترب منه متعمدة وتحدثه ، عثر كلماته على شفتيه وتنتشى لأنه يحبها بهذه الصورة . عللت تصرفها سها وهى تدخل حجرة أنيسة بأنها فعلت هذا لأن عشرى قد أفزعها دما أبصرته يهجم عليها وهى تتخفف من بلوزتها الثقيلة . .

●

[٣]

مال كثير ينتظره العد . لا يدخل شيء فى خزينته دون أن تلمسه أصابعه ويعرف عدده . فقد رغبته فى عد نقوده منذ رحلت حبيبة . ضغط على نفسه وراح يعد أوراقه المالية . امتلأت عيناه بوجه حبيبة : كأنها تخرج له من بين ماله . . تراخت أصابعه . سقط ما بين أصابعه من أوراق مالية . تنبه إلى أنه لم يغلق باب الحجرة كما كان يغلقه فى كل مرة يدخل فيها . . هذه الحجرة التى لا يسمح لأحد بدخولها حتى لامرأته أنيسة . هاجمه صوت حبيبة : أنت تجمع المال من أجلى وأنا أكره مالك . وجد نفسه يقبض بيديه على الأوراق المالية الملقاة حوله ، وكأنه يردد لنفسه : أريدك أميرة يا حبيبة . . المال هو الذى يشترى إمارة الدنيا . . وأبوك يعرف ما لاتعرفين . . ستلفين الدنيا . . وتعودين وتقولين لى : كنت على صواب يا حلوانى . . المال كل شيء فى الحياة . . تذكر ما قاله أدهم له بعد أن اقنعته أنيسة بان يقابله بعد أن كان مصرا على ألا يراه . . قال له : ستعود حبيبة . . لا تستطيع أن تبتعد عن حارة الحلوانى كثيرا . لقد عشت فى جنة من الزهور فى هولندا . . ولكنى وجدت نفسى أستيقظ فى الصباح الباكر . . وأحمل حقيبتى وأعود . .

مد يده فى جيبه وأخرج رسالة حبيبة . . لا تفارقه لحظة واحدة . . وقعت نظرته على سطورها : ليس لى عنوان . . أنتقل من مكان لآخر كعصفورة تلتقط حباتها . . استطيع بكل حريتى أن أردد اسمك كما أحب أن أنطق به . . حلوانى . . نطقت باسمك « حلوانى » كما تريد أن تسمعه من بين شفتى . . وكأن الحجرة تمتلىء بصوتها وهى تردد : حلوانى . . شعر

بدموعه تسح من عينيه . تذكر خميس عبد العال وهو يدخل فى حفل العشاء الذى اقامه للفيروزى فى قصره والدم يسيل من رأسه وهو يقول : عشرى أطلق الرجال علىّ . . يريدون قتلى . . ويسقط بين يدى حبيبة . رن فى رأسه ما قاله عشرى بعد عودة أدهم : ينبغى أن يشعر أدهم بأن غضبك هو غضب الناس . وجد نفسه يهب من جلسته ويقول : لا . . لن أجعل عشرى يقترب من أدهم . . تبين أنه مازال يحب أدهم . . أراد أن ينادى على عشرى ، يأمره بأن يبتعد عن أدهم ، فوجىء بعشرى يدخل عليه الحجرة وهو يقول :

— أين أنت يا معلمى ؟ !

وقبل أن ينطق الحلوانى بكلمة قال :

— كروانة ستهرب مع أدهم . .

— كروانة . .

— ستذهب معه إلى الصحراء . .

وتضاحك وهو يقول :

— سيزرعان الصحراء زهورا . . السفر أصاب أدهم بالجنون . .

وكأن عشرى لمح عدم التصديق فى عينى المعلم فقال :

— اسأل سيدتى !

— أنيسة تعرف ؟ !

أراد أن يقول الحلوانى له : ابعد عن أدهم . . ولكن عبارته ثقلت على لسانه ، وكأنه اكتشف أن عشرى دخل حجرة لا ينبغى له أن يدخلها فقال بصوت وشى بغضبه :

ـ اذهب . . ولا تدخل هذه الحجرة مرة أخرى !

ثم أغلق الباب بسرعة فى وجهه . استراح لاختفاء وجه عشرى . قرر أن يذهب إلى أنيسة يعاتبها لأنها لم تخبره بما يدور من وراء ظهره ولكنه وجد نفسه يدخل حجرة كروانة . .

ما أن أبصرته كروانة حتى أقبلت عليه بفرحتها وهى تقول : لم أعد كروانة . . أصبحت فرط الرمان . . أطلق أدهم اسم فرط الرمان علىّ . . أصبحت فرط الرمان يا حلوانى !

تضايق لأنها نطقت باسمه كما تنطق به حبيبة رغم أنه شجعها على ذلك منذ سفر ابنته ، قال محاولا أن يكتم ضيقه :

ـ ما سمعته كان صحيحا . .

أرادت أن تقول له : سأتزوج أدهم وسيطلب يدى منك ولكنها قالت :

ـ يريد أن يذهب إلى الصحراء ويزرع الزهور كما شاهد فى هولندا . . فرجنى على صور جميلة . . يزرعون الزهور فى بيوت زجاجية . .

وأوشك أن يقول لها وتتركين الحلوانى . . ولكنه قال :

ـ وتتركين أنيسة التى تحبك ؟ !

وقبل أن تقول : أمى أنيسة موافقة على الزواج .

قال الحلوانى :

ـ ماذا فى هذا القصر حتى تكرهوه ؟ !

قالت وقد أحست بمعاناته :

ـ إنى لا أكرهه . . بل أحبه . .

ـ الذى يحب لا يترك ما يحب يا كروانة !

تضايقت من سماعها اسم كروانة . . كانت تتوقع أن تسمعه ينطق باسمها الجديد . . فرط الرمان . .

قال :

ـ الا يكفى ما فعله أدهم بى . . جعل حبيبة تسافر . . ويريد أن يأخذك منى . .

ثم اختنق صوته بالدموع ، وكأنها تسقط فى جب . ودت لو خرج . . لا تريد أن ترى دموعه . خرج الحلوانى مسرعا .

شعرت بشىء من الراحة . كانت تتصور أنه سيعارضها بعنف عندما يعرف بامر زواجها من أدهم ويتفجر فى داخلها تحديها . . ولكنها أبصرت الحب فى عينيه دموعا . منذ سافرت حبيبة وهى تحاول أن تتحول إلى بسمة على شفتيه ، أمتلأت بالحزن . قبل أن يدخل الحلوانى حجرتها ، كانت تتهيأ للقاء أدهم بعد أن نطق بحلم عمرها . . سنتزوج يا فرط الرمان . . أرادت أن تنظر فى المرآة لترى زينتها التى اكتملت . . ولكنها رفضت أن ترى ، كأنها سترى خيانتها للرجل الذى أخذها من بين أنقاض بيتهم طفلة وجعلها عروسة تزف إلى حبيبها . أحست بالدموع فى عينيها . .

●

[٤]

ترك العطار فلة واقفة . وانفرد بأدهم يحدثه بعيدا عنها . شعرت فلة بالضيق . كانت قادمة لتخبره بتصرف عشرى معها وما فعلته به عندما فوجئت به فى ردهة القصر يهجم عليها وهى تتحرر من بعض ملابسها الثقيلة . فكرت فى أن تتركه وتذهب لزبيدة ولكنها وجدت نفسها تختار مقعدا فى نهاية الدكان وتجلس عليه . أوشكت أن تقول : اجلس فى المخزن . . ولكنها ابتسمت وصمتت .

قال العطار لأدهم فى صوت خفيض لا يريد لفلة أن تسمع حديثه :

ــ الحلوانى يحملك مسئولية سفر حبيبة وضياعها فى أوربا . .

قال أدهم فى دهشة :

ــ أنا ؟ !

ــ جاءنى الفخرانى . . وأنت تعرف . .

قاطعه أدهم :

ــ لا أذكر أننى التقيت بحبيبة قبل سفرى إلى هولندا . لم يدر بينى وبينها أى حديث حول سفرها . .

ــ أنت تعرف أن الفخرانى أصبح رجل عشرى . . قال لى : هذه فرصتك يا عطار . . لتبدأ صفحة جديدة مع الحلوانى ، وتصبح صديقه وتدخل قصره وتتعرف على الأثرياء وما يريده المعلم منك الا تستقبل أدهم فى دكانك . .

هب أدهم واقفا ، وضح عليه الانفعال . . أمسكه العطار من ذراعه وهو يقول :

ــ كيف تتصور أننى أبيع صداقتى لك من أجل النخاس الذى يتاجر بالبشر ؟ !

شعرت فلة بشىء من السعادة . سيذهب أدهم . ويضطر العطار إلى المجىء إليها والحديث معها وتنتهز الفرصة وتتدلل عليه .

أحس العطار أن كلامه لم يزل غضب أدهم فقال :

ــ إننى لا أستقبلك فى دكانى وحده . . بل فى بيتى أيضا ما رأيك ؟ هل تقبل دعوة للعشاء معى الليلة لتحدثنى عن سفرك الى اوربا . . أريد أن أستمع إلى مغامراتك . .

ــ ليست لى مغامرات . .

ــ مازلت غاضبا . . أنت تعرف أننى لم أتغير . . مازلت أكره الحلوانى . . أريد أن أهدم القصر على رأسه . .

ــ وأنا لا أكره الحلوانى . . ولا أريد أن أهدم القصر على رأسه . .

ــ حتى لو منعك من الزواج من كروانة . .

ــ فرط الرمان من فضلك . .

ــ لا تغضب . . حتى لو منعك من الزواج من فرط الرمان . .

أخرج أدهم سيجارة من علبته وهو يقول :

ــ لا يستطيع . .

ــ الحلوانى قادر .

ـ لا يستطيع أحد أن يحرمنى من حقى فى أن أتزوج بمن أحب . .

أعاد العطار شيئا سقط على الأرض إلى مكانه . . والتفت إلى أدهم وقال له :

ـ قل لى . . ما هى خطتك ؟

بدت الدهشة على وجه أدهم . . فلم تكن لديه أية خطة . . كل ما فى رأسه هو أن يتزوج فرط الرمان ، ويأخذها إلى الأرض التى سيختارها فى الصحراء ، ويبنى بيتا صغيرا ، ويعملان معا فى زراعة الزهور . أطفأ عود الكبريت الذى أشعله له العطار ليدخن سيجارته وقال وهو يبتعد بنظرته عن العطار وينظر فى اتجاه فلة :

ـ لن أدخن الآن !

تنبه العطار من نظرة أدهم إلى أن فلة جالسة وتصغى إلى حديثهما وأن أدهم ربما لا يريد أن يتحدث عن خطته خشية أن تسمعه فلة وتخبر الحلوانى . ينبغى أن يتخلص منها حتى يتكلم أدهم بحريته . اتجه اليها . أحست فلة بشىء من السعادة وهو يترك أدهم ويجىء اليها يحدثها . لا يستطيع أن يغضبها . ستقول له . ليس هذا وقت الحديث . وتدعوه للعشاء فى بيتها . وتصنع له طعاما يحبه . وتحدثه بكل ما تريد . تبينت منذ قليل أن سبب مجيئها ليس ما صنعه عشرى وما صنعته به بل ما ينتشر فى الحارة من أن جابر يريد أن يتزوجها . . أن الأوان لان ينفذ وعده بالزواج منها .وقبل أن تنطق بكلمة .

قال لها بلهجة حادة :

ـ ماذا تريدين ؟ !

كأنه ألقى عليها شيئا باردا :

ـ تكلمى . . ليس عندى وقت للدلع . .

لم تجد غير دموعها لتتفجر . تنبهت إلى أنها تبكى وأن أدهم يرى دموعها فخرجت مسرعة دون أن تضع طرف الملاءة السوداء على رأسها وهى تصطدم بامرأة تدخل الدكان . .

قالت المرأة :

ـ أريد بخورا . .

قال العطار موجها حديثه لأدهم الذى وضح عليه التعاطف مع فلة :

ـ صارت عبئا علىّ . . لا أعرف كيف أتخلص منها ؟

قالت المرأة .

ـ البخور يا معلم . .

ـ لا يوجد بخور . .

ـ البخور أمامك . .

قال بعصبية :

ـ لن أبيع لك . .

تصعبت المرأة وخرجت من الدكان . أوشك أدهم أن يقول له : فلة تحبك يا معلم . . فلماذا لا تتزوجها ؟ ولكنه تذكر سوسن الهولندية . . وحديثها عن حرية الانسان . . خاف أن يكون هذا تدخلا فى حريته فقال مبتسما :

ـ فلة طيبة .

ـ لم أعد أطيقها . .

وكأن العطار يحدث نفسه وهو يقول :

ـ صحيح أنني قد وعدتها بالزواج . . لقد كانت غلطتى . .

وكأنه أبصر استفسارا على وجه أدهم فقال :

ـ كان هذا وأنت مسافر . .

مد أدهم يده بعلبة سجائره . تناول العطار سيجارة . أشعلها . نفث دخانها. شعر بأنه قد تحرر من شيء كان يخيم عى صدره . قال العطار باهتمام :

ـ لقد ذهبت . . حدثنى . .

ـ سأترك حارة الحلوانى . .

ـ هزيمة . . ترك الحارة هزيمة . . !!

ضحك أدهم ، لا يتصور أن ترك الحارة وذهابه إلى الصحراء لزراعة الزهور هزيمة . .

قال العطار :

ـ مالى تحت أمرك . .

سقطت السيجارة من بين أصابع أدهم .

ـ سأدفع أكثر من الحلوانى . .

ـ لن أدخل معركة مع الرجل الذى ربانى . .

ـ حتى لو طردك من الحارة ؟ !

تضاحك أدهم ، وكأنه يقول : لا يستطيع أحد أن يطردنى . .

قال العطار :

ـ يبدو أن سفرك إلى أوربا جعلك تنسى حارة الحلوانى . . الحارة تعطى حبها لمن يدفع . .

ـ ليس حبا . .

ـ أنا معك . ولكن الحلوانى يراه حبا .

هز أدهم رأسه معارضا . قال العطار :

ـ وليكن . . ولكن هذا الشيء الذى لا تسميه حبا يتحول فى النهاية إلى خضوع . . عمال المعلم يخافون على لقمة عيشهم . . والحارة . .

قال مقاطعا :

ـ لست عم حمص . .

ـ لن تطرد كما طرد عم حمص . . سيجعل الحارة تنفض عنك . .

ـ ما بينى وبين الحارة أقوى من عشرى والحلوانى . .

ـ أنت أخيرا قد اعترفت . . قلت عشرى والحلوانى . . عشرى والحلوانى قتلا خميس عبد العال . . وسال دمه . . ولم يدفع أحد ثمن هذا الدم حتى الآن . .

ثم نفث سيجارته وقال :

ـ من يدرى . . الدور على من ؟ !

وكأنه قال : الدور عليك . .

قال أدهم :

— ماذا تقول ؟ !

— لن أسمح لأحد بأن يلمس إصبعك . .

وكأن العطار قال : ادخل معى المعركة . .

ثم استطرد يقول :

— وسنكسبها . . لن نكسبها بالضربة القاضية . . سنكسبها بالنقطة . . ضاعت حبيبة فى باريس . . وكروانة ستخرج من القصر . .

لمح الغضب فى وجه أدهم لأنه نطق باسم كروانة ، وأسرع يصحح الاسم ويقول :

— وتتزوج فرط الرمان . . وأتزوج موزة أخت الفيروزى وأشترى القصر وأسميه باسمها ويكتشف الحلوانى أن ما أمضى العمر من أجله . كان وهما . . لقد انتصر العطار عليه . .

فوجىء العطار بوقوف أدهم وخروجه من الدكان. أسرع فى إثره وهو يقول :

— وحدك لن تستطيع أن تواجه الحلوانى . . انى أعرف الاعيبه . .

اختفى أدهم من عينى العطار . وقف على عتبة الدكان . أبصر الفخرانى جالسا على حجره بجوار باب القصر . شعر ببداية الانتصار . لم يكن أحد يجرؤ على أن يقترب من سور القصر . عزا هذا الى أن هيبة الحلوانى لم تعد كما كانت فى الماضى . فكر فى أن يعطى الفخرانى بعض المال يشترى به بعض الفاكهة والخضروات يبيعها بجوار القصر . تذكر ما قالته له فلة من أن المعلم لم يعد يحرص على ماله كما كان فى الماضى . أصبح يكره ماله لأن حبيبة تركته من أجله . تنبه إلى أنه لم يسمع من فلة أخبار

الحلوانى هذا الصباح . أخطأ عندما حدثها بحدة أمام أدهم وجعلها تبكى . ستخاصمه أياما . لا يستطيع أن يستغنى عنها . ينبغى أن يمر عليها فى المساء . . يطيب خاطرها . ما أسرع ما تصفو عندما تجده أمامها . اتجه إلى خزينته . . فتحها . شعر بالسعادة لأنها مكدسة بالمال . . فرك يديه . الزمن يجرى لحسابه . يزداد عشقا لماله . تذكر أنه تصور صورة جميلة . سيعطيها لزبيدة لتراها موزة . حملق فى أوراقه المالية ، كأنه يرى وجهه . أعطاه الله وجها جميلا . سيغرق زبيدة بالهدايا . ويستفيد من قدرتها على إدارة عقول النساء . شعر بتفوقه على الحلوانى . مازال يحب المال . لام نفسه لأنه لم يبع البخور للمرأة . ترك مالا يذهب من بين يديه . أبصر رجلا يدخل دكانه . أسرع يرحب به قال الرجل :

— أريد شمعا وحلبة . . ما يلزم لسبوع مولود . .

تنبه العطار إلى أنه يعرفه . قال الرجل ليساعده على أن يتذكره :

— اشتريت فى السنة الماضية ما يلزم سبوع ابنى البكرى . .

تذكره على الفور . . المخبر الذى زاره فى أعقاب حادث مقتل خميس فقال :

— عرفتك . . أعطيتك مغاتا بدلا من الحلبة . .

— ورفضت أن تأخذ منى ثمن ما أخذت . . كنت كريما . .

اقترب منه :

— ماذا تم فى القضية ؟ !

— أية قضية ؟

— مقتل خميس . .

ـ خميس ؟

ـ ابن الأجير عبد العال . .

ـ لا أذكر أحدا بهذا الاسم . .

ـ لابد أن الحكومة تعرف أن الحلوانى صاحب المصلحة الأولى فى قتل خميس . .

ـ من هو هذا الحلوانى ؟ !

ـ الحلوانى . .

ـ اعذرنى يا معلم فأنا لست من هذه الناحية أسكن . .

قاطعه .

ـ ألست من . . ؟

ـ تظننى من رجال الشرطة . . لست منهم . . أنا موظف صغير أعمل فى أرشيف ادارة المعاشات . . وعندما أرتدى الجلباب أبدو كالمخبرين السريين . .

ثم ضحك وهو يقول :

ـ يخطىء الكثيرون فىَّ .

أصيب العطار بالاحباط . فكر فى أن يقول له : هات ثمن ما أخذت فى المرة السابقة . . ولكنه أسرع يلف له ما طلب ، وتناول منه ثمنا أكثر مما ينبغى . .

شعر الرجل باحباط العطار فقال :

ـ الله يمهل ولا يهمل يا معلم . .

[٥]

اختفى المعلم منذ الصباح الباكر . بحث عشرى عنه فى أرجاء القصر . لم يجده . كان متأكدا من أنه لم يخرج من القصر . شعر بشىء من القلق . تعود فى الأيام الأخيرة ألا تفارقه عينه . يحس أنه ثمرة توشك على السقوط . يخاف أن يغفل عنها لحظة فتسقط بعيدا عن يديه . انعزل المعلم عن الحارة . وعلاقته بزوجته قد ساءت فى الأيام الأخيرة . ولم يعد يلتقى بالفيروزى . والسقاء فقد تأثيره عليه وعجز عن أن يعيد أدهم إلى الوكالة . نجح فى معركته مع أدهم . شعر بفروسيته . يريد أن يركب جواد المعلم . ويخرج من بوابة القصر وتراه الحارة وهو ينطلق به إلى شوارع حى الجمالية وجد نفسه أمام حظيرة جياد المعلم . يريد أن يرى جواد المعلم . دفع باب الحظيرة . أبصر المعلم يقف بجوار جواد حبيبة . انزعج المعلم . ارتبك عشرى للحظة وأسرع يقول :

ـ بحثت عنك يا معلمى فى كل مكان . .

ـ ماذا تريد ؟ !

ـ العطار . .

ـ لا أريد أن أسمع شيئا . .

استمر عشرى فى حديثه :

ـ يحرض أدهم . .

تناثر الغضب على شفتى المعلم :

ـ تصرف . . ولا تجعل أحدا يعرف مكانى . .

خرج عشرى طائرا من الحظيرة . أصبح الرجل المتصرف فى دنيا المعلم . يذهب إلى الوكالة ليتأكد من أن الأجراء قد انفضوا عن أدهم كما أخبره الفخرانى . لم يعد يذهب إلى الوكالة . يكتفى برسم الخطط والفخرانى ينفذها . ستنتقل كراهية الاجراء لأدهم إلى الحارة بعد قليل . ويجد أدهم نفسه منبوذا لا يبادله أحد ابتسامته . وجد نفسه يدخل القصر . يمشى فى ردهاته . بدا لنفسه كأنه يريد أن يشهد جدران القصر على أنه أصبح الرجل الذى قال له المعلم منذ قليل : تصرف . . دفع باب القاعة الشرقية . أضاء أنوارها . دارت نظراته فى القاعة . شعر برغبة فى أن يبقى بعض الوقت فيها . يريد هدوءا ليفكر . . ماذا يفعل عندما يصبح سيدا لهذا القصر ؟ اقترب من المقعد الذى تعود المعلم أن يجلس عليه . لن يجلس عليه ليقوم . وقعت عيناه على قنينة خمر . شكلها غريب . لابد أنها هدية من الفيروزى . أمسكها بيديه . تحسسها كما يتحسس جسد امرأة . أراد أن يصفق وتجىء فرط الرمان ويخبرها بأن المعلم قد طلب منه ألا يخبر أحدا أنه فى حظيرة الخيول . يريد أن يرى وجهها وهى تعرف أنه أصبح كل شىء فى قصر المعلم . يريدها أن تندم لأنها صدته . فتح قنينة الخمر . تذوقها . خمر لم يتذوقها من قبل . شعر بعظمة أن يكون الانسان ثريا ، ويتلقى هدايا الأثرياء . صفق . تنبه إلى أنه يخطىء . ينبغى ألا تراه فرط الرمان فى القاعة حتى لا تذهب وتخبر أنيسة لأنها لا تحبه . وتريد أن يمنعه المعلم من دخول القصر . سمع حركة فى الخارج . أسرع وأطفأ النور . وضع قنينة الخمر فى مكانها على عجل . كادت تسقط . شعر بالخوف . مضى وقت . ولم يدخل أحد . تذكر الذعر الذى أبصره على وجه الحلوانى وهو يفاجئه واقفا بجوار جواد حبيبة . ضحك ، أوشك المعلم على الجنون . جاءت فرصته التى ينتظرها منذ زمن .

دخل القصر ولن تخرجه أنيسة . امتدت يده . أمسك قنينة الخمر . لا يشرب الخمر عادة ولكن المناسبة تستحق أن يحتفى بها . يشرب المزيد من الخمر . ينبغى أن تكون أنيسة هدفه فى الأيام القادمة . لكل امرأة ضعفها وعليه أن يمسكها منه . أضاء قنديلا فوق رأسه . شعر بشاعرية المكان . استكثر على الحلوانى تاجر التراب كما يطلق عليه تجار حى الجمالية أن يكون صاحب هذا المكان الشاعرى وينام هو فى حجرة أكلت جدرانها الرطوبة . ملأ فمه بالخمر . شعر بحاجته إلى امرأة . طافت برأسه فلة وهى تتخفف من ملابسها فى ردهة القصر . تضايق من نفسه لأنه قد تركها تفلت من بين يديه . . فى نظرتها شىء يقول له أنها تريده . . سال الخمر على شفتيه . . يحتاج إلى امرأة فى مثل طراوة فلة وعنفها يرسل لها الفخرانى ويخبرها بأن المعلم يريدها فى القاعة الذهبية . وتجىء ويغلق الباب عليها . ويصارحها برغبته فى أن تصبح صديقته . ويعرض عليها ماله ، وماله كثير وفلة لا تعرف سوى لغة المال . يريد شيئا من المزة . أبصر حبات الفستق أمامه . سمع صوتا كصوت الفخرانى . تذكر أنه قد طلب منه أن يتبعه إلى داخل القصر . لابد أنه فتش عليه فى أرجاء القصر ولم يجده ، عرف أنه بالقاعة الذهبية . انفتح الباب توقع أن يجد الفخرانى .

أبصر جابر . فوجىء بوجود عشرى فقال :

ـ أنت هنا . . كيف تدخل هذه القاعة ؟

انتابت عشرى رغبة فى أن يصفعه على وجهه ولكنه ضحك . أبصر جابر قنينة الخمر فى يد عشرى فقال :

ـ وتشرب خمر المعلم ؟ !

ـ كنت أطمئن على مزاج المعلم يا جابر . . مزاج المعلم اليوم ليس على ما يرام . .

ثم قال باهتمام :

ــ هل أخبرت أدهم بأن المعلم فى حظيرة الخيول ؟

تأكد جابر أن عشرى قد ثمل وهو يقول :

ــ المعلم لا يريد أن يعرف أدهم بأنه فى حظيرة الخيول . . اشتاق لحبيبة فذهب ليرى سكر . . سكر جواد حبيبة . .

فقال :

ــ أنت سكران . .

كأن عبارة جابر ذكرته بأنه يمسك قنينة الخمر فى يده فأسرع يضعها فى مكانها .

وقال :

ــ جابــر . . أريدك أن تصــارحنى القــول . . هل مازلت تحب أدهم ؟ !

قال ليغيظه :

ــ نعم أحبه . .

ــ وتخون المعلم ؟ !

تذكر أنه ضايق فلة منذ أيام فقال :

ــ لا شأن لك بى . .

ــ كيف تحب أدهم والمعلم أصبح يكرهه ؟ !

ثم قال ضاحكا :

ــ وفلة . .

وقبل أن يكمل عبارته قال له غاضبا :

ــ أبعد عن فلة .

قال عشرى :

ــ اجلس لنتفاهم . . .

ــ لن أجلس . .

مد عشرى يده ببعض حبات الفستق وقاله له :

ــ خذ . . فستق لا يأكله إلا الأكابر . .

دفع يد عشرى فتناثرت حبات الفستق على السجادة .

ضحك عشرى :

ــ تتصورنى الطاوى . . أسرق النساء . . الله يسامحك . .

ثم فجأة صفعه على وجهه .

ــ تضربنى . .

ــ وأقتلك . .

وانفتح الباب ودخلت أنيسة وهو يقول :

ــ كما قتلت خميس . . ؟ !

شعرت أنيسة بالخوف فقلبها يرتجف من ذكر حادثة مقتل خميس . تخاف على زوجها لأنها مقتنعة بأنه هو الذى أمر عشرى بقتل خميس . .

فقالت :

ــ أجننت ؟ !

تنبه إلى دخول أنيسة فقال :

أفقدنى صوابى . . .

واقترب منها وهو ينحنى وقد بدا أنه سيقبل قدميها وهو يقول :

ــ سامحينى يا ست هانم . .

قال جابر :

ــ رأيته يجلس على مقعد المعلم ويشرب الخمر .

وقبل أن يقول : وصفعنى على وجهى قالت له أنيسة :

ــ اسكت . .

قال عشرى :

ــ يكذب ياست هانم . . لم أجلس على مقعد المعلم . . كنت أعد القاعة للمعلم . . مزاج المعلم اليوم ليس على ما يرام . .

قالت أنيسة لعشرى :

ــ اذهب . . واياك أن تجيء بسيرة خميس على لسانك مرة ثانية . .

قال عشرى :

ــ لن أخرج حتى تسامحينى . .

ــ سامحتك . .

قال جابر بعد أن خرج عشرى :

ــ صفعنى على وجهى . .

قالت له :

ــ ابتعد عنه . . فانت لست ندا له . .

وصمتت لحظة ثم قالت :

ــ ولا تخبر المعلم بشىء مما دار . .

●

[٦]

جلست فرط الرمان أمامه حزينة . لم تنم الليل . قالت لها فلة عشرى طرد أدهم من الوكالة فهل ينتظر حتى يطرده من الحارة ؟

أوشكت أن تقول لأدهم : لماذا تقف متفرجا ؟ ! . . ولكنها أبصرت شيئا فى عينيه . . ابتلعت عبارتها . قالت بنبرة وشت بشىء من حزنها :

ـ أعرف أنك قد عثرت على الأرض التى تريد أن تزرعها زهورا . .

قال منفعلا :

ـ لن أترك الحارة . .

ورغم أنها كانت تريد أن تسمع منه شيئا يدفع تهمة السلبية التى تتردد فى الحارة عنه ، إلا أنها أحست بقلبها يغوص فى قدميها . امتلأت بخوف غامض وهى تسمعه يقول :

ـ ترك الحارة هزيمة . .

تذكرت أن العطار قال له هذه العبارة وهو يحرضه على الحلوانى فقالت :

ـ العطار لا يحب سوى نفسه . .

قفز إلى عينيه وجه العطار وهو يقول له أن الحلوانى سيمنع زواجه منها فوجد نفسه يقول :

ـ وما يتردد فى الحارة من أن الحلوانى يمنعك من . .

ثم ابتلع بقية كلامه وصمت .

تذكرت دموع الحلوانى بعد أن قال لها : يريد أن يأخذك منى . . فقالت بصوت خفيض :

ـ الحلوانى يحبنى ولا يكره سعادتى . .

وأحتوته برعشة قلبها :

ـ كل ما أخافه أن أراك . .

أكمل عبارتها ساخرا :

ـ منبوذا . . كما يردد عشرى . .

تضايقت لأنها سمعته ينطق بهذه الكلمة . . فقالت غاضبة :

ـ أدهم الذى يحبه الناس لا يمكن أن يكون هذا لمجرد أن الحلوانى يريد . .

تنبهت إلى أنها أخطأت . كانت تريد أن تقول عشرى فأسرعت تقول :

ـ عشرى يحقد عليك يا أدهم . . ويريدك أن تقتنع بأن العمال يكرهونك . حتى تمتنع عن دخول الوكالة ويخلو الجو له ويستمر فى إبتزازهم . .

طافت فى عينيه وجوه العمال وهى تشيح عنه كلما دخل الوكالة . عرف أن الفخرانى طلب منهم عدم الحديث معه حتى لا يطردهم من الوكالة .

وكأنه يتحدث عن حلم :

ـ كنت أتعجل العودة . . لأوزع نفسى عليهم . . أعلمهم شيئا مما تعلمته هناك وأحررهم من خوفهم . .

ثم قال منفعلا :

ـ تصورى . . التقيت برجل من قرية خميس . . فسألته عن صحة عبد العال فطردوه فى الليل لمجرد أنه حدثنى . ورفض الرجل أن يترك الوكالة ووقف على باب القصر يصرخ . . يريد أن يقابل المعلم ويشكو له ظلمه . .

قالت :

ـ لقد سمعت صراخه . .

ـ ولم يسمعه المعلم . . وأمسكوه ودفعوا به الى سرداب من سراديب الوكالة . . يريدون أن يكتموا صراخه . . وبلغنى ما فعلوا به فأسرعت وأخرجته من السرداب . .

وكأنها التقت بفارسها فى هذه اللحظة فقالت بفرحتها :

ـ وخرج الرجل . .

ـ لن أقف متفرجا على ما يفعله عشرى فى الوكالة بعد الآن . .

تريد ألا يكف عن الكلام فقالت :

ـ ولكن . . لن تستطيع أن تغير الكون . .

تذكر عبارة قالتها له سوسن الهولندية فى أمستردام فوجد نفسه يرددها :

ـ ولكن . . تجعل الحرية لا حرية !!

رمقته بنظرة كأنها تقول بها : لا أفهم . .

قـــال :

ـ أستطيع . . أستطيع يا كروانة . .

قالت بدلالها :

ـ نسيت فرط الرمان . .

ـ أنسى عمرى . .

كأنها تطير ، تريد أن يحدثها عن الحب الذى تفجر فى نفسه فى بلاد الغربة وأبصرته فى عينيه عندما التقت نظرتها بنظرته فى صباح عودته . . طالما حدثتها فلة فى ليالى حزنها عن الحب الذى لابد أن يشتعل فى قلب أدهم وهى بعيدة عنه . . شعرت بأنها عطشانة . . تريد أن تبلل روحها بكلمات عشقه ، أغمضت عينيها للحظة ، فتحتها . أبصرت وجهه متجهما وهو يقول :

ـ كنت أتصور بهرويى من حارة الحلوانى وسفرى إلى أوربا ، أننى سأضع حدا لآلامى . . واكتشفت أن هذا كان وهماً . . لقد كبرت المأساة فى داخلى . . مأساة أن يقتلوا إنسانا لمجرد أن قلبه يمتلىء بالحب . .

وكأن صوته يختنق :!

ـ ما فعلوه مع خميس . . يمكن أن يفعلوه معى !

امتلأ صوتها بالفزع :

ـ لا . . لا يا أدهم . .

قـــال :

ـ كلما التقيت بالناس فى الحارة ، أحس فى نظراتهم بشىء يتهمنى ويحاكمنى . . لقد أخذت خميس إلى البحر . . وتركته للموج العالى ليغرق . . وسافرت لأشاهد الباليه وأستمع للموسيقى وأمشى بين الزهور . .

وأوشك أن يقول : وأحب سوسن الهولندية ، ولكنه أسرع يبتلع عبارته وينكس رأسه ، كأنه شعر بالخجل من قلبه الذى خانه وسمح لفتاة أخرى غير كروانة بأن تتسلل اليه ، ثم نظر اليها فجأة وقال يلوم نفسه :

ـ كان على الاّ أترك حارة الحلوانى ! . .

وكأنه قد قال : كان على الاّ أترك كروانة . . . مدت يدها . لم يمد يده . ظلت يدها معلقة فى الهواء ، كأنها تقول له بيدها الممدودة : لم يعد لى سواك . . تفرسها بنظرته وكأنه يقول لها : لن تجدينى قبل أن يدفع القاتل ثمن دم خميس . .

قالت :

ـ والشرطة . .

قال دون أن يدعها تكمل عبارتها :

ـ تريد الدليل . .

تجسد لها الخطر الذى يحيط به ، وهى تتذكر موت خميس بين يدى حبيبة . . ولكنها أبصرت فى وجهه الاصرار . شعرت فجأة بارهاق الزمن فقالت :

ـ تعبت يا أدهم . . وأريد أن أرتاح . .

وكأنها تتعلق بقارب النجاة وهى تقول :

ـ نذهب إلى الصحراء ونتحدى الرمال ونزرع الزهور . . أريد أن تعلمنى كيف أزرع الزهور ؟

أمسك يدها وقال :

ـ قبل أن أتحدى رمال الصحراء . . سأتحدى الصحراء التى تعيشها حارة الحلوانى وأزرعها زهورا . .

كأنها لم تجد شيئا تفعله فى هذه اللحظة وهو يضغط على يدها سوى أن تطلق العنان لدموعها . . لم تكن تعرف ما اذا كانت دموع الفرح بلقاء الفارس فى حبيبها أدهم ، أم دموع الخوف عليه من الحلوانى وعشرى ؟ !

●

[٧]

فوجىء عشرى بفلة تقف أمامه فى الحجرة . كان الباب مفتوحا فدفعته ودخلت . . أخبرها جابر بأن عشرى قال له أن زبيدة ذهبت لتخطب موزة أخت الفيروزى للعطار . امتلأت بجنونها . بحثت عن عشرى فى كل مكان . . عندما أبصرته يجلس أمامها على مقعده ، تمالكت نفسها وهى تقول :

ـ مندهش ؟ !

ـ كنت أنتظر زيارتك . .

وجدت نفسها تضحك . . كأنها تخفى توترها فى ضحكتها . . ألقت بالملاءة اللف على سريره وقالت :

ـ مغرور . .

كركر بنرجبلته . طاف بخياله أنها قد عرفت بخيانة العطار لها ، وهى قادمة لتثأر من حبيبها بين ذراعيه . امتلأ بالنشوة وهو يقول :

ـ الذى تزوره فلة فى حجرته ، لابد أن يصاب بالغرور !

أرادت أن تصفعه . استفزتها ثقته فى نفسه . لم تكرهه مثلما كرهته اللحظة . فكرت فى أن تأخذ الملاءة اللف من على السرير وتذهب ولكنها قالت :

ـ لم تسألنى . . لماذا جئت ؟ !

أبصرت فى عينيه رغبته فى افتراسها . قررت ألا تخبره . أخطأت بمجيئها . كان ينبغى أن تذهب الى زبيدة لتعرف حقيقة ما سمعت . انفعالها لم يجعلها تفكر جيدا

قال عشرى :

ـ من يتجاسر ويسأل فلة ؟ !

ـ عشرى . .

ـ عيون عشرى . .

وجدت نفسها تقول :

ـ ابعد الفخرانى عن الرجل . .

ـ أى رجل ؟ . .

شعرت بالغيظ . جذبت الملاءة السوداء من على السرير ، وقالت فى عصبية :

ـ لا داعى للف والدوران مع فلة . .

ضحك سعيدا . قال :

ـ تقصدين صاحب الصوت . .

قاطعته :

ـ يكفى خميس . .

ـ خائفة على . .

هاجمها إحساس بأن نهايته ستكون على يديها فقالت :

ـ كفاية شر . .

فكر كيف يصل إليها . قال :

ـ لست شريرا كما يشاع عنى . . أنا مظلوم . .

قالت ساخرة :

ـ تحب الخير . .

ـ أعطينى فرصة لأثبت لك ذلك . .

أوشكت أن تسأله : هل ذهبت زبيدة لموزة لتخطبها للعطار ؟ . . ولكنها قالت :

ـ فرصتك معك . .

قال كطفل :

ـ يا نهار أبيض . . فلة تعطى عشرى فرصة . .

شعرت بأنها قد تورطت فى شىء لا تريده . لفت الملاءة حول وسطها وأسرعت تخرج . ستذهب إلى زبيدة . فكر عشرى بسرعة . لن يدع الفرصة تفلت من بين يديه . قال يستوقفها :

ـ لى طلب . .

استدارت إليه فى تحد :

ـ أفندم ياسى عشرى . .

ـ افتحى عينيك جيدا . .

ـ ملعوب جديد . .

ـ زبيدة تخونك . .

كأنها لا تعرف أن زبيدة قد ذهبت إلى موزة :

ـ زبيدة . .

ـ والعطار يخدعك . .

ـ ماذا تقول ؟ !

ـ ذهبت تخطب موزة . .

وقبل أن يكمل عبارته ، كانت قد انقضت عليه . بدا لها فى لحظة كأنه العطار . تريد أن تخنقه . استسلم عشرى لعنفها . سقطت النرجيلة على الأرض . تناثر الفحم المشتعل حولها . قال عشرى :

ـ الفحم يحرقك . .

ـ سأحرق عمرك لو كنت كاذبا !

اندفعت خارجة . قال وهو يحاول أن يستوقفها :

ـ انتظرى يا مجنونة !

أغلقت الباب بعنف فى وجهه . . شعر بالسعادة وهو يعود إلى مقعده . أخيرا عثر على المرأة التى يريدها . فرس جامح . ومعركة ترويضها قد بدأت . وسدد هدفه الأول . . دخل الفخرانى ، أبصر أثر المعركة . انحنى يجمع الفحم المشتعل ، وقال وهو يضحك :

ـ هذه هى فلة يا معلمى . .

تضايق عشرى من ضحكته . قال :

ـ ماذا أتى بك ؟ !

ـ أدهم .

ـ ماذا حدث ؟ !

ـ ارتفع صوته مرة ثانية . . لابد أن تخبر المعلم .

دفعه بقدمه فى صدره وهو يقول :

ـ ليس هناك معلم غيرى . .

ـ اعذر الغباء يا معلمى . .

برقت فى رأس عشرى فكرة الذهاب إلى الحلوانى وإخباره .

قال عشرى وهو يصلح النرجيلة :

ـ ماذا فعل أدهم ؟

ـ أفسد ما صنعناه . . بدد خوف الأجراء . . إنهم يلتفون حوله . . يحدثهم ويحدثونه . . كأننا لم نفعل شيئا !! . .

وجد عشرى نفسه يردد :

ـ كأننا لم نفعل شيئا . . !!

يريد أن يأخذ موافقته على ما فعله مع الأجراء . . لقد انتظر حتى ذهب أدهم منذ قليل . وأشبع الأجراء ضربا بعصا جلدية غليظة ، يحملها معه كلما دخل الوكالة فقال :

ـ نضرب الأجراء يا معلمى . .

تجسد لعشرى جسد فلة وهى تقول له : كفاية شر فقال :

ـ لا . . لا تضرب . .

قال الفخرانى :

ـ الأجراء جنس ملاعين . . يفسرون إخراج أدهم للفلاح من

السرداب الذى حبسناه فيه بأن أدهم قد عاد كأيام زمان . قويا . . وانتصر على معلمى . . أنا أقول الحقيقة ولا أخفى شيئا . .

نظر إليه بنصف عين :

ـ ماذا تقترح غير الضرب ؟ !

ـ نتخلص من أدهم . .

ضحك عشرى . . تذكر فلة وهى تقول : سأحرق عمرك لو كنت تكذب . .

قال الفخرانى :

ـ ماذا يضحك معلمى ؟

ـ بلاهتك . . أدهم ليس كخميس . . أدهم متعلم وسافر إلى بلاد بره . .

ـ ننتظره فى الليل . .

ـ غبى . .

ـ نقضى على الخطر قبل أن يقضى علينا . . أنسيت كلامك يا معلمى ؟ !

ـ اجلس . .

جلس الفخرانى تحت قدميه ولم يجلس على المقعد الذى أشار عشرى اليه . . قال عشرى وهو يبتلع دخانه :

ـ الدنيا تتغير من لحظة الى أخرى . . أنت كنت فى الماضى تريد أن تحرض الحارة على . .

ـ أخطأت يا معلمى وغفرت لى !

ـ والآن أنت عينى التى أرى بها . .

ـ وذراعك التى تبطش بها . .

وكأن عشرى يحدث نفسه وهو يقول : كل وقت له أذان ، وهناك شىء اسمه السياسة . .

وضحك وهو يقول :

ـ تعرف السياسة يا فخرانى ؟ !

ـ أعرفها مادام معلمى يريد . .

ـ ملاعيب . . السياسة ملاعيب . .

ـ ملاعيب مع هذا الفلاح . .

هز عشرى رأسه :

ـ مع هذا الفلاح الذى يحاول أن يخرج لنا خميس من قبره !

ـ لقد تجاسر وقال بصوت عال : لن أمكنكم من قتل ، كما قتلتم خميس . .

ـ ومن أجل هذا لن نقتله كما قتلنا خميس . .

فكر فى أن ينتهز الفرصة ويعرف شيئا عن مقتل خميس فقال :

ـ كيف قتلت خميس يا معلمى . . ولم يستطع أحد أن يصل إليك ؟ !

هاجم عشرى الخوف فجأة . خيل له للحظة أن الشرطة قد دسته عليه . يستدرجه ليأخذ منه دليل جريمته . تفرسه بنظرته . تبين بلاهته

فطن بسرعة إلى أن شكه مجرد وهم ، لا يليق بالمعلمين . قام من مقعده . واتجه إلى النافذة . فتحها يريد أن يتنسم نسمة هواء . أبصر بعض الأجراء يجلسون أمام باب الوكالة فقال :

ـ تعالى يا فخرانى . . انظر . .

نظر الفخرانى .

قال عشرى :

ـ ماذا ترى ؟

ـ الأجراء . .

ـ هؤلاء هم قتلة خميس . .

ـ عرفت يا معلمى . .

ـ انزل واسألهم كيف قتلوه ؟

ثم ضحك . . توقف عن الضحك . . قال بلهجة آمرة :

ـ أريد أن يستيقظ هؤلاء فى يوم قريب . . ولا يجدوا هذا الفلاح . . يفر بجلده فى الليل . . وقبل أن يتساءل الأجراء وأدهم . . نتساءل : أين ذهب الفلاح الفصيح ؟ هذا هو ملعوبنا الجديد . .

وقبل أن يسأله فخرانى . .

ـ كيف يحدث هذا ؟

قال له :

ـ هذه مهمتك يا فخرانى . . فكر وأخبرنى . .

أراد أن يقول الفخرانى : مهمة صعبة يا معلمى لا أقدر عليها . .

ولكنه فكر بسرعة فى أن عشرى لم بعد يذهب إلى الوكالة ، يتركها له ، وأنه يستطيع أن يفعل كل ما يريد دون أن يعرف ، فأخبارها لا تصل إليه إلا من خلاله .

فقال :

ــ حاضر . . نلعب ملعوبا جديدا مع الفلاح الفصيح . . نحول حياته إلى جحيم . . أمرك يا سيد المعلمين . .

أنتشى عشرى بعبارة « سيد المعلمين » كركر بنرجيلته . امتلأ بدخانه . نظر فى اتجاه السرير . احتوى بنظرته المكان الذى وضعت عليه فلة ملاءتها السوداء . اليوم وضعت الملاءة وغدا سترقد عليه . .

قال وهيب جسدها يشتعل فى داخله :

ــ السياسة أقوى من الموت يا فخرانى !!

●

[٨]

أرادت فلة أن تقول لزبيدة : تذهبين لموزة لتخطبيها للعطار ، ولكنها وجدت نفسها تقول :

ــ تخونين فلة ؟ !

ثم انخرطت فى بكاء حار كأنها تبكى كل عمرها . .

اندهشت زبيدة وقالت :

ــ ماذا جرى ؟ !

استمرت فى البكاء ، وكأنها تقول بدموعها : انت تعرفين ؟ !

قالت زبيدة :

ــ كفى عن البكاء وحدثينى ؟ !

اختنق صوتها وهى تقول :

ــ موزة . .

ضحكت زبيدة :

ــ من قال لك ؟ !

أوشكت أن تقول : عشرى ، ولكنها قالت :

ــ لا شىء يخفى عن فلة . .

ـ امسحى دموعك حتى أحدثك . .

لم تمسح دموعها وقالت :

ـ تكلمى . .

مدت زبيدة يدها وتناولت علبة سجائرها . . أخرجت سيجارة أشعلتها . أخذت نفسا . .

قالت فلة :

ـ لا تجدين ما تقولين ؟

قالت زبيدة :

ـ ماذا أقول ؟ تحبين مجنونا . . حمل لى الهدايا . . وأنا ضعيفة أمام الهدايا . . وطلب منى أن أحدث موزة بشأنه . . وأنت تعرفين موزة . .

قالت فلة غاضبة :

ـ لا أعرفها . .

ـ أميرة . . الدنيا أعطتها جمالا وشبابا ومالا بلا حدود . . تظنين أنها ترضى بصعلوك مثل العطار . .

كأنها غرست فى قلبها شيئا حادا وهى تقول عبارتها الأخيرة . قالت فلة وهى تنزف :

ـ وحدثتيها ؟ !

ـ كيف تتصورين أننى أستطيع أن أحدثها بشأن الزواج من العطار . . أنت مجنونة . . حدثتها عن العطار كما لو كنت أروى . نكتة . .

ـ نكتة ؟ !

ـ نكتة سخيفة لم تضحك لها . .

شعرت فلة بالفرحة لهزيمة العطار ، والاهانة لأن العطار حبيبها . . قالت :

ـ لماذا لم تخبرينى ؟ !

لمحت لك مرة ولكنك لم تفهمى ، ففضلت أن أتجاهل الأمر . . لا أريد أن أضيف هما جديدا إلى همومك . . تكفى أمك التى توشك أن تصاب بالعمى . . وأخوك الذى سافر ولم يعد يرسل لك مجرد رسالة ليسأل عن أحوالك . . وعشرى الذى يطاردك . .

وكأن هذه الكلمات قد فجرت فى داخلها عمرها الحزين الذى تقاومه بخطواتها الجسور وكلماتها الجريئة التى جعلت نساء الحارة يجدن فيها تعبيرا عن رغباتهن المكبوتة . . والرجال يحرون فى إثرها . . ولكنهم فى النهاية يخافونها ولا يرضى أحد بها زوجة . . حتى الرجل الذى أخلصت له العمر حبا ، يخونها . . أحست بقلبها ينزف . . تريد أن تغمض عينيها وتموت . . وجدت نفسها تقول كأنها تعلن موتها :

ـ سأتزوج جابر . .

ضحكت زبيدة كأنها سمعت نكتة .

قالت فلة وصوتها يحترق !

ـ أفضل من أن أسلم نفسى لعشرى الذى يحاصرنى . .

ثم قالت بنبرة وشت بكل حزنها :

ـ أريد رجلا أضع رأسى على كتفه . . لقد تعبت من الضحك على

نفسى . . والجرى من بيت إلى بيت وإطلاق الزغاريد . .

أحست زبيدة بما يعتمل فى داخلها . . أرادت أن تخفف من معاناتها فقالت :

ــ والرقص . .

قالت فلة :

ــ سأرقص لجابر . .

أرادت أن تقول لها : أجننت ؟ ! ولكنها قالت :

ــ الأهطل ؟ !

قالت بكل غضبها :

ــ يحبنى يا زبيدة ولا يخوننى !

ــ لا شك أنك قد جننت . .

قالت وكأنها تبرر لنفسها قرارها :

ــ الحب الذى أراه فى عينيه لا تراه امرأة فى عينى رجل . .

ــ لا تحطمى نفسك يا مجنونة !

امتدت يد فلة وتناولت سيجارة من علبة سجائر زبيدة وأشعلتها ، كأنها أشعلت النار فى نفسها ، لا تريد أن تسمع شيئا حول قرارها بالزواج من جابر .

قالت :

ــ حمادة سافر ؟ !

كأن الغم هاجم زبيدة فقالت :

ــ لا تذكرينى . .

ــ سافر إلى باريس . .

ــ ما الفرق بين سفره إلى باريس وإقامته فى القاهرة ؟ ! كان دائما بالنسبة لى مسافرا . .

قالت فلة برغبة فى السخرية منها ، تريد أن تنتقم منها لأنها ذهبت تخطب موزة للعطار :

ــ يبحث عن حبيبة التى خطفت عقله !

ــ ليت حبيبة تزوجته . . ولكن قلبها جرى وراء أجير .

وكأنها وجدت فرصتها ، تلمح للحب الذى ظهر على زبيدة فى الفترة الأخيرة :

ــ الحب يا حبيبتى !

هزت زبيدة رأسها وكأنها تقول : نعم . . الحب . . أشعلت سيجارة . أرادت أن تغير الحديث . تذكرت مشاعرها التى تفجرت فى داخلها فى الأيام الأخيرة . لقد اكتشفت أنها تحب الحلوانى فجأة . . قالت :

ــ سأقيم حفل الزار . .

ــ مادام حمادة قد سافر ؟ !

وجدت زبيدة نفسها تقول :

ــ من أجل عيون الحلوانى . .

شعرت بعد أن قالت عبارتها ، كأنها قد عرت نفسها ، فقالت

لتتخلص من لحظتها :

ـ الحلوانى يستحق أن أشعل صوابعى شمعا من أجله . . وقف بجوارى . . أغرقنى بخيره عندما تخلى عنى ابنى أقرب الناس إلى . .

ثم تأوهت ، وبدت أنها قد قررت ألا تصمت ، حتى تهرب من أية محاولة من فلة لتحدثها صراحة عن حبها للحلوانى فقالت :

ـ يا عينى على شبابه . . رأيته منذ أيام يحبس نفسه فى حجرته . . لا يريد أن يقابل أحدا . . كأنه قد شاخ فجأة . .

وكأن فلة انتهزت الفرصة لتعبر عن نفسها فقالت :

ـ الحب الخائب يكسر القلب يا زبيدة . .

وكأن زبيدة لم تنصت إلى عبارتها واستمرت فى حديثها :

ـ لم يعد الحلوانى الذى أعرفه . . لن أتركه حتى يخرج من عزلته . . يرتدى الكشمير ويمشى فى الحارة يهزها بخطواته ويقيم الحفلات . . سأطرد الشياطين التى ركبته بالهم . . سأقيم حفل زار لم تشهده الجالية من قبل . . سيغضب حمادة عندما يعرف . . أولاد الحرام كثيرون . . ولكنى لا أستطيع أن أتخلى عن الحلوانى . . دواء الحلوانى فى أن يهتز من الداخل . لينفض عن نفسه ما أصابه . .

امتلأت فلة برغبتها فى السخرية منها ، فأرادت أن تقول : سينجح الحب فيما فشلت فيه الأيام ؟ ! . . ولكنها وجدت نفسها تقول :

ـ ستنجح زبيدة فيما فشلت فيه الأيام ؟ !

شعرت زبيدة بسرعة بأنها ستهزم لو دخلت معها فى حوار حول حبها

للحلوانى ، فقالت لتغير الموضوع :

ـ موزة وعدتنى بالحضور . .

وجدت فلة نفسها تقول ساخرة :

ـ لترى العطار خطيبها ؟ !

ضحكت زبيدة وهى تقول :

ـ ملعون الهم . . الذى يرى ما حدث للحلوانى لا يحزن لحظة واحدة !

ضحكت فلة ، وكأنها تخفى بضحكتها رغبتها التى قفزت فى داخلها فجأة ، ستتحدى موزة فى السرادق أمام أهل الجمالية ويشهد العطار هزيمتها . . وانتصارها . .

●

[٩]

شعرت زبيدة وهى تقف فى السرادق الذى أقامته بجوار القصر ، أنه ملكة قد استردت عرشها . امتنعت منذ سنوات عن إقامة حفل الزار الذى تعودت أن تقيمه كل عام ارضاء لابنها حمادة المنصورى . كان يغضب عندما يعرف أنها قد أقامت هذا الحفل . حرصت على ألا تفعل شيئا يغضبه . . ولكنه قد سافر وتركها دون كلمة وداع . تريد أن تغرق حزنها فى صوت الدفوف . الدفوف لم تبدأ بعد . لن يبدأ الحفل الا اذا جاء الحلوانى . شعرت بقلبها يتمزق . . تحبه . . فى آخر العمر تحب الحلوانى . . ليس حبا . . إنه الجنون . . أن تحب امرأة فى مثل سنها . . الضيوف يتوافدون . . دعت أثرياء الجمالية وصديقات العمر فى شارع محمد على ، كأنها تدعوهم لحفل زفافها . الشموع مضاءة . . ورائحة البخور الذى أهداه لها العطار تملأ السرادق . . الدفوف تتهيأ لليلة عامرة بالجنون . . ستغرق كل عمرها فى جنون الليلة . فلة تملأ السرادق حركة . . ارتدت جلبابا رجاليا . . التصق بجسدها ، كأنها تريد أن تذكرهم بأنها امرأة مثيرة . . اقترب عشرى منها وقال لها بجسارته : ادّلع قوى يا ولد . . ودت لو تصفعه . . ضحكت متصنعة الاستجابة لغزله . . تريد أن يعرف العطار أنها تستجيب لغزل عشرى . العطار لم يأت بعد ولكن مثل هذا الأمر يطير فى الحارة كالبرق . . حاول عشرى أن يمسكها . . ضربته بعنف على يده وهى تقول : تحشم يا رجل . . أحست وهى تحمل صينية القهوة للضيوف بنيران كأنها تشتعل فى جلبابها . . ستتزوج جابر الأهطل انتقاما من العطار . . أعطت للعطار عمرها وهو يخونها ويطلب من زبيدة أن تخطب

له موزة . . تذكرت عبارته التى قالها لها بالأمس : لقد اشتعل حبك فى داخلى مرة واحدة . . تعرف أنه يكذب . . لم يحبها . . ولكنه لا يريد لغيره أن يقترب منها . . يريدها بيتا موقوفا عليه . . لن تمكنه من غرضه . . أبصرت جابر يرنو إليها بنظرته التى تحبها فيه . . النظرة الطيبة فى عالم الشر الذى يحيط بها . . أقبلت عليه . سألته عن المعلم . . لماذا تأخر ؟ !

أحست برغبة فى أن تمسك يده فأمسكتها . . ارتعش جابر . . ضحكت فلة . أبصرت العطار يدخل السرادق وهو يرتدى الكشمير . دق قلبها . عشقها الوحيد فى هذه الدنيا . تود لو أنه اتجه نحوها وأخذها وطار بها إلى عالم بعيد . رأته يتجه اليها ، فأسرعت وحدثت عشرى . وقدمت له فنجان قهوة لم يطلبه منها . . فطن عشرى إلى أنها تغيظ العطار . استغل اللحظة . تجاوز حدوده . لمحت العطار غاضبا . ودت لو اشتبك مع عشرى . غالت فى حركاتها . تريد أن تشعل الدنيا حولها . . شعرت بأنها تحترق بلعبتها . . أرادت أن تصرخ . . ولكنها ابتسمت لضيوف السيدة زبيدة ، الذين دخلوا فى هذه اللحظة . ارتفع صوت الدفوف . تبينت أن الحلوانى قد دخل السرادق ، وزبيدة تستقبله وتشعل البخور تحت قدميه . انتشت فلة برائحة البخور الذى أهداه حبيبها العطار لزبيدة . . انطلق صوت الدفوف ، بدأت زبيدة تهتز . . تتمايل . . تفتتح الحفل كأنها ترقص الرقصة الأولى تحية للحلوانى . . أسرعت فلة تقف خلفها . . شعرت بالزهو . . الوحيدة التى لها الحق فى أن تقف وراء المعلمة . . ترقب حركاتها التى تزداد عنفا كلما أبصرت الحلوانى ينظر اليها . . يسقط الشال الحرير من على رأسها وتعيده اليها . . وتحيطها بيدها وتحميها من السقوط . . وتجن الدفوف فجأة . . فتجن حركات زبيدة ويتطاير شعرها حولها . . وتضيع كل محاولات فلة لتعيد الشال إلى رأسها . . وتدوى صرخة . . وتسقط

زبيدة على الأرض . . وتسرع فلة لتغطيها وتنهال الأوراق المالية على زبيدة . . وتكون أوراق الحلوانى الأكثر سخاء . .

نظر أدهم إلى فرط الرمان التى كانت تجلس بجواره ، كأنه بنظرته يؤكد لها ما سبق أن قاله لها من أن المعلم أصبح يكره ماله ويريد أن يتخلص منه ، كأنه صار لعنة !

اكتشفت فلة أن العطار قد غير مكانه ويجلس بجوار موزة التى دخلت إلى السرادق دون أن تراها وهى تدخل . . فكرت بسرعة . . هل قام واستقبلها وأجلسها وجلس بجوارها ؟ ! ودت لو انقضت على رقبته . ولا تتركه حتى يموت بين يديها . وجدت نفسها تندفع نحو عشرى . هلل عشرى عندما رآها مقبلة عليه ، مالت عليه بصدرها وهى تهز وسطها . دس ورقة مالية فى صدرها . أبصرت العطار يقف وقد احمر وجهه . اتجهت اليه فى شىء من الدلال وأخرجت الورقة المالية من صدرها أمامه وهى تنظر إلى موزة التى كانت تبتسم لها : ماذا أفعل يا عطارى . . الناس تحبنى ؟ !

ثم أوشكت أن تنفجر بالبكاء ، فأسرعت تمشى من أمامها حتى تخفى لحظة ضعفها التى هاجمتها وهى ترى العطار يجلس بجوار موزة . . قالت :

ــ صلى على النبى . .

وقفت ترقبها . استأنفت الدفوف دقاتها . قامت موزة . أبصرتها كعود الزهر . أجمل مما كانت تتصور . اشتعلت غيرتها . ستسحقها ، ليس أمام العطار . . بل أمام كل حى الجمالية الجالس فى السرادق . أسرعت زبيدة تقف وراء موزة وهى تتمايل . وضعت فلة الشال الأحمر على كتفيها ووقفت أمام موزة فى تحد . أبصرت فى عينى زبيدة نظرة استنكار لمنازلة موزة فى الحلبة . . . ولكن فلة لم تبال . كانت قد سقطت فى الجنون . تعب من خمر الدفوف ، كأنها ترقص رقصة طائر جريح . تبينت بعد قليل أن موزة قد

انهزمت . انسحبت من الحلبة . وصارت فلة راقصة الحلبة الوحيدة ، وكأن الحلوانى قد أصيب بالجنون أيضا . . فراح يلقى بأوراقه المالية الكثيرة على فلة . . بدت أنها أكثر مما ألقاه على زبيدة . . تضايقت زبيدة . تعرف أن الحلوانى يحب فلة . لم يعارض رغبة زوجته أنيسة فى أن تقيم معها فى القصر . سقطت فلة على الأرض . وعندما عاد الحلوانى إلى مقعده فى الصدارة . قام العطار وألقى بأوراقه المالية على فلة . . . وأسرع عشرى هو الآخر يلقى بأوراقه المالية . اشتعلت المنافسة بينهما . أحس جابر بمرارة الفقر وهو يضع يده فى جيبية فلا يجد ما يلقى به على فلة . أحس أدهم بالضيق مما يجرى . أراد أن يقوم ويخرج من السرادق ، وكأنه يبحث عن سبب لخروجه فقال لواحد من العمال الذين كانوا يقفون خلفه :

ــ لماذا لم يأت باقى العمال ؟

قال العامل :

ــ الفخرانى يمنعهم . .

وقف أدهم وهو يقول لفرط الرمان :

ــ سأذهب لأجىء بالعمال . .

كأن جابر انتهز الفرصة ليترك السرادق ، يهرب من لحظته التى شعر فيها بالاهانة . . قال بصوت عال لتسمعه فلة التى تماسكت وقامت :

ــ سأذهب أنا ياسى أدهم . . أجىء بكل عمال الوكالة . .

قالت فلة وكأنها تعبر عن فرحتها بما جمعت من مال :

ــ بسرعة يا جابر . . قل لهم . . اليوم فرح .

ونظرت إلى الحلوانى كأنها تستأذنه لتقول :

ـ المعلم لا يمانع . .

ابتسم الحلوانى فقالت :

ـ لا يحرمنا الله من كرمك يا سيد الرجال . .

جرى جابر . شعرت فلة بشىء من الزهو ، وموزة تترك مقعدها بجوار العطار وتتجه اليها لتقول :

ـ سمعت عنك الكثير . . ولكن لم أكن أتصورك خفيفة الظل بهذه الصورة . . أريدك أن تزورينى . . فى الغد . .

قالت فلة بصوت عال لتغيظ العطار الذى بدا عليه عدم الارتياح من تفاهم موزة وفلة :

ـ على عينى يا حبيبتى . . سأزورك فى الغد . .

احتضنتها موزة . زغردت فلة . ثم قالت :

ـ صلى على النبى المختار . .

ونظرت إلى العطار الذى اغتصب ابتسامة من شفتيه وقالت :

ـ عين الحسود فيها عود . . اشعلوا البخور . .

ضحك العطار . عاد جابر مسرعا وقال لفلة باضطرابه :

ـ الفخرانى أشعل شجارا بين العمال . . سيقتل الفلاح الذى جاء من قرية خميس . .

فار الدم فى عروق فلة واتجهت إلى عشرى بغضبها :

ـ هذا ما وعدتنى به يا عشرى . . أين كلام الرجال ؟ !

ـ ماذا جرى ؟ !

ـ الفخرانى أشعل الدنيا فى الوكالة . .

ـ لا يمكن . .

ـ مازلت واقفا والفلاح يكاد يقتل . .

اندفع عشرى غاضبا من السرادق . .

وقف أدهم ، أمسكته فرط الرمان من ذراعه ، كأن خوف حياتها قد تجمع فى قبضتها . قالت ـ تذكره بحلمه فى الذهاب إلى الصحراء لزراعة الزهور :

ـ متى نذهب ؟ !

فهم ما تعنى وقال مبتسما :

ـ لم يبق الا القليل . .

وصلها صوت أحد العمال يقول :

ـ سيقتلون عشرى كما قتل خميس . .

ضاع الصوت فى صوت الدفوف التى لم تتعب بعد . كانت نعمة الليل رطبة ، وزبيدة تتمايل فى ثقل ، كأنها شجرة عتيقة ، تحاول أن تمتص الحياة من جذورها المتعبة . . ووجوه الجالسين فى السرادق لم تشبع بعد من دقات الدفوف . .

اندفع الفخرانى نحو المعلم وهو يقول بنبرة وشت بفرحته :

ـ عشرى قتل يا معلم . .

رمقه المعلم بنظرة لا مبالية . تنبه الفخرانى إلى أن صوته يفضحه فقال فى حزن مصطنع :

ـ اشتعل شجار بالعصى كالعادة بين البحاروة والصعايدة ، وحاولت أن أوقفه . . فوجئت بعشرى يندفع ويدخل بين المتشاجرين . . انهالت العصى عليه . . وقبل أن أنقذه . .

واختنق صوته بالبكاء وهو يقول :

ـ سقط جثة هامدة يا معلم . .

وضح على وجه الحلوانى الضيق ببكاء الفخرانى . ابتلع الفخرانى دموعه . وقف الحلوانى . مشى الفخرانى فى إثره . توقع أن يتجه إلى الوكالة . . أبصره يتجه إلى القصر . لم تنتبه زبيدة إلى خروج الحلوانى إلا بعد خروجه . لم تتوقف الدفوف ، وكأن فلة قد تذكرت أنها السبب فى موت عشرى فصرخت ، وكأن صرختها كانت الإعلان عن أن الموت قد اقتحم حفلهم . تجمدت الحياة فى السرادق للحظة . . حتى يستوعب الجالسون ان عشرى الذى كان يملأ السرادق حياة منذ قليل قد ترك مقعده ليقابل الموت فى الوكالة التى دبر فيها من قبل قتل خميس عبد العال . رفضت زبيدة أن ينتهى حفلها هكذا . . حاولت أن تمنع بعض الذين وقفوا من الذهاب وخاصة السيدة موزة . . ولكن شبح الموت قد سبقها وجعل مقاومتها لإنهاء حفل الزار عبثا . . عاتبت فلة لأنها صرخت لم تكن فى الحقيقة تعاتبها لصراخها . . كانت تعبر عن ضيقها لأن المعلم قد أظهر حبه لها ، ونالت من ماله أكثر مما نالت هى . .

قالت فلة بلهجة عنيفة :

ـ أمرك غريب يا زبيدة . . عشرى قتيل فى الوكالة !

شعرت فرط الرمان بأن شجارا سيدب بينهما . . أسرعت تخرج من السرادق . تبحث عن أدهم . . الذى كان قد ذهب ليواجه الأمر فى الوكالة ويتحدث مع الشرطة التى جاءت مسرعة . .

[١٠]

أسرعت فلة فى الصباح إلى دار الفيروزى . تزور موزة . فى الليل . . بعد أن انفض حفل الزار دخلت فراشها ولا تدرى ماذا أصابها ؟ انفجرت بالبكاء كما لو أن حبل الموت سيلتف حول رقبتها فى الصباح . ستترك العطار الذى تحبه لتتزوج جابر الذى لا تحبه ، وأخذتها أمها العجوز فى صدرها وهى تقول لها : حسدوك يا ابنتى . . نامى فى حضن أمك . .

فتحت عينيها على اتساعهما فى حجرة الاستقبال . تملأ نظراتها بالعز الذى حولها . وقعت نظرتها على صورة موزة ، كأنها تبتسم لها . تذكرت ابتسامتها للعطار وهى تغادر السرادق . اشتعلت الغيرة فى داخلها . لابد أن هناك شيئا يدور من وراء ظهرها . غاصت قدماها فى السجاد العجمى . تعيش موزة فى كل هذا العز وتستكثر عليها العطار . تريد أن تأخذ حبها الوحيد فى هذه الدنيا . لن تتزوج العطار ولن تجعلها تتزوجه . ستقاتل الدنيا . شعرت بأن قدميها تدوسان على الأشواك . استنفرت شيئا عنيفا تعرفه فى داخلها . الجرى فى أزقة الحياة علمها أن تنتزع ما تريد من قلب الزمن . لن تهزمها أخت الفيروزى بكل مالها . شعرت بالتوحش . أرادت أن تقتل عشرى فقتلته . دخلت موزة يسبقها عطرها الفواح . أسرعت تقف . احتضنتها موزة بشوق ، كأنها صديقة قديمة . . قالت لها بود :

ـ أهلا . . فلة . .

لن ينطلى عليها هذا الود المصنوع . . احتوتها بنظرة فاحصة . بدت

لها كأنها امرأة من ريش نعام . تطير أمام نفخة هواء من فمها . تذكرت هزيمتها لها فى حفل الزار .

قالت لها موزة :

ــ كنت أنتظرك . .

قالت فلة بنبرة مستعدة للنزال :

ــ خير يا حبيبتى !

قالت موزة :

ــ سمعت عنك الكثير . . وعندما رأيتك فى حفل الزار أعجبت بك . .

دخل الخادم النوبى يحمل القهوة . .

قالت وهى تمسك فنجان القهوة بين أصابعها الرقيقة :

ــ يتحدثون عن براعتك فى قراءة الفنجان .

أوشكت أن تقول لها : لا أستطيع أن أقرأ الفنجان فى كل وقت . . ولكنها أبصرت فرصتها . . تعرف أسرارها فقالت بسرعة :

ــ على عينى يا حبيبتى !

قالت موزة بلهفتها :

ــ ستقرئين لى الفنجان الآن . .

قالت فلة وقد امتلأ أنفها بعطر موزة الفواح :

ــ ولمن غيرك أقرأ الفنجان ؟ !

قالت موزة وهى تشرب فنجان القهوة بسرعة :

ــ لم أكن أتصورك أميرة هكذا !

تناولت فلة سيجارة من علبة موزة الذهبية رغم أنها لا تدخن . فكرت أن تقول لها : لست أميرة كما تظنين . . أعرف الاعيبك . . ولكنها وضعت السيجارة الطويلة بين شفتيها ورمقتها بنظرة فاحصة وهى تقلب الفنجان بلهفتها . أحست أنها أمام امرأة عاشقة . . لا يمكن أن يكون العطار هو الفتى المعشوق . نظرت فلة إلى الفنجان المقلوب . أحست بقدرتها . لقد سقطت فى قبضتها . ستفضى بسرها . نظرت فى عينيها السوداوين . أحست برغبة فى تعذيبها . لقد سرقت النوم من عينيها . انتابتها رغبة فى أن تقتلها خلجة خلجة . جذبت نفسا من سيجارتها . كحت . تفحصت الفنجان على مهل . أطالت النظر فى الفنجان الذى أكد فراستها . وكأنها فرصتها الوحيدة لتعذيبها . رمقتها بنظرة ذات مغزى كما لو كانت تقول لها : عاشقة ؟ !

طفر الدم فى وجه موزة . امتلأت عيناها بما يشبه الدموع . عادت نظرة فلة إلى فنجان القهوة وأدارته بين أصابعها ثم نظرت فى عينيها ، تريد أن ترى الدموع فى عينيها تقول لها : لن يأتى . . لتجعلها تعرف البكاء فى الليل . . ولكنها أحست بالخوف فجأة . تفقد الأمل فى عودته ، وتتزوج العطار فى لحظة جنون كما ستفعل هى مع جابر . . قالت بسرعة :

ــ قادم . .

تهللت الدموع فى عينى موزة ضحكة . شعرت فلة بشىء من الراحة . قالت كما لو كانت تزيد أن تتأكد من أنه ليس العطار :

ــ من دمك ؟ !

قالت موزة بفرحتها :

ــ عمرو ابن عمى يتاجر فى التحف فى لندن . .

ـ مشغول البال مثلك . .

طفر الحب من وجنتيها وهى تقول :

ـ صحيح ؟ !

وضعت فلة الفنجان أمامها . امتلأت عيناها بوجه جابر عندما أمسكت يده فى السرادق . قالت موزة فى لهفة تريد أن تسمع المزيد :

ـ أكملى يا فلة . .

أمسكت فلة الفنجان بين أصابعها وقالت :

ـ نقطة واحدة ويكتمل الشمل . .

انهمرت الدموع من عينى موزة . أحست بالشفقة عليها فقالت :

ـ لا داعى للبكاء . . سترتدين الفستان الأبيض . . والطرحة ، وتجلسين على مقعد عال بين الزهور . .

أخرجت موزة كل ما فى جيبها من نقود وفتحت كيس نقود فلة وملأته بالنقود وهى تقول :

ـ لك هدية ثمينة لو تحقق هذا . .

عرفت أنها كانت واهمة عندما فكرت فى أن هناك شيئا بينها وبين العطار . . فوجدت نفسها تقول باسمة :

ـ تعرفين العطار ؟

ـ أى عطار . .

ـ الذى ابتسمت إليه وأنت تتركين السرادق . .

ـ ابتسمت لكل الواقفين . .

ـ الذى كان يجلس بجوارك . .

ـ آه . . هذا هو العطار الذى حدثتنى زبيدة باعجاب الفتيات به . . لم يحدثنى بكلمة . .

وضحكت موزة وهى تقول :

ـ يريد أن يتزوجنى ؟ !

وقفت فلة . قالت موزة وهى تنظر إلى فنجان قهوتها :

ـ لم تشربى القهوة . .

ـ سأشرب الشربات يا حبيبتى فى ليلة فرحك . .

خرجت مسرعة شعرت وهى تمشى فى شوارع الجمالية بأنها تطير . انتصرت . ستذهب إلى العطار . وتنظر فى وجهه . تريد أن تراه مهزوما فى عينيها . دخلت دكانه . رحب بها بحرارة وقال لها :

ـ فلتى . . أين أنت ؟ بحثت عنك . .

استغربت حرارته . . قالت ببرودها :

ـ ماذا تريد ؟ !

ـ اجلسى . .

لم تجلس . .

زعق فى امرأة : لن أبيع فى هذا الصباح . . فكرت هل عرف بانها ذهبت إلى موزة ؟ !

ثم قال بصوت رقيق :

ـ فلة . .

— أفندم . .

— أريد أن أتزوجك . .

انفجرت بالضحك . .

— ماذا يضحكك ؟ . . إننى لا أمزح . . إنى أحبك وأريد أن أتزوجك . .

استمرت فى الضحك . .

قال :

— لا تظنى أننى أقول هذا لأنى قد سمعت هذا الصباح أن المعلم سيهب لك بعضا من ثروته . .

قالت والدموع تجرى على وجنتيها ، وكأنها لم تسمع عبارته الأخيرة :

— انتظرت هذه اللحظة طوال عمرى . .

— فتضحكين ؟ !

— فرحة عمرى . . ألا تستحق ضحكة ؟ !

— تحتاج إلى جد . .

وكأنها غير مصدقة ما سمعت فقالت :

— تحبنى يا عطار ، وتريد أن تتزوجنى ؟

— الليلة . .

قالت فى شىء من السخرية :

— ولم العجلة يا عطارى ؟

قال فى شىء من الغضب :

— إنى أتكلم جد يا فلة . لم أعد أحتمل الانتظار أكثر من ذلك . . والعمر يجرى . . أريد أن يكون لنا بيت صغير وتلدين بنتا نسميها فلة . تملأ علينا حياتنا ، وتزغرد كما تزغردين . زغردى يا فلتى . . أريد أن تسمع الحارة . .

وجدت نفسها تقول :

— وموزة ؟

ضحك . .

— كنت أعرف أن زبيدة ستخبرك . . فعلت هذا لأشعل غيرتك . . عندما تشتعلين . .

قاطعته وهى تقول فى سعادة :

— صحيح أنت تحبنى يا على ؟ !

وأوشكت أن تقول له : قل لى مرة أخرى : انى أحبك . . أريد أن أسمعها من بين شفتيك ، ولكنها وجدته يقول :

— فلنذهب الآن للمأذون ليعقد قراننا . . لأثبت لك بالدليل القاطع انى أحبك . .

احتوته بنظرة طويلة ، وكأنها تملأ عينيها بصورته للمرة الأخيرة ، أبصرت بعض النسوة يدخلن الدكان .

وكأنها انتهزت الفرصة وخرجت من الدكان مسرعة . . أسرع فى إثرها وهو يقول لها :

— انتظرى يا فلة . . أين أنت ذاهبة ؟ . . نريد أن نرتب الأمور . .

لم تنتظر . . كانت تمشى فى حلم عمرها . . لقد سمعت منذ قليل العطار ، عشقها الوحيد يقول : إنى أحبك وأريد أن أتزوجك . . لا تعرف إلى أين تتجه ؟ . . تريد أن تمشى لآخر الدنيا . . تمسك حلمها بين أصابعها وتمشى . . لا تعرف كيف تمشى ؟ أحست أنها قد فقدت توازنها . . أرادت أن تذهب إلى حضن أمها . . وتقول لها أن العطار يريد أن يتزوجها ، وتبكى على صدرها . . ولكنها وجدت قدميها تحملانها وتذهبان بها إلى أنيسة . . تمشى فى أروقة القصر ، وكأنها تسمع الزغاريد وصوت الدفوف ، وهى ترتدى فستان الفرح الأبيض الذى صنعته منذ زمن ، والعطار فى جلبابه الحريرى الأبيض يمشى بجوارها والأغنية تزفهما . . مبروك عليكى عريسك العطار . . والشموع مضاءة . . وحارة الحلوانى ترقص . . ليلة زفاف فلة على العطار . . أسرعت تمسح الدمعة التى طفرت من عينيها ، وأنيسة تقف أمامها وهى تقول :

ـ سأتزوج ياست أنيسة . .

ـ مبروك يا فلة . .

رنت فى أذنى فلة عبارة العطار وهو يقول : لا تظنى أننى أقول هذا لأنى قد سمعت هذا الصباح أن المعلم سيهب لك بعضا من ثروته . .

أرادت أن تسألها : هل هذا صحيح ؟ ! ولكنها وجدت نفسها تقول :

ـ سأتزوج جابر !

ـ ولد طيب . .

وجدت فلة نفسها تطلق زغرودة بصوت عال كأنها تريد أن تصل إلى أذنى العطار الزغرودة التى طلبها منها . . ويتأكد أنها الحبيبة التى لا

تستطيع أن تعصى لحبيبها أمرا . . وينتشر الخبر فى الحارة وينتقل إلى شوارع الجمالية . . لقد طلب العطار الزواج من فلة . . ويفاجأ العطار بزواجها من جابر . . شعرت بالراحة لقرارها بالزواج من جابر . . لم يحبها العطار . . أبصر الحلوانى وهو يغدق عليها المال فى حفل الزار . . وفى الصباح سمع الحارة تردد أن المعلم سيهبها بعضا من ثروته . . فتحرك فى داخله طموحه فى الوصول الى القصر . . يريد أن يصل إليه عن طريقها . . لن تمكنه من تحقيق حلم عمره . جاء وقت تصفية الحساب مع معشوق النساء . . ستمرغ زهوه فى تراب الحارة . . وتجعله حكاية فى أفواه الناس . . تقدم العطار للزواج من فلة ففضلت جابر الأهطل . . آن الوقت ليشرب من كأس العذاب الذى شربته . . ويدفع ثمن دموع حبها التى سحت من عينيها فى ليل عمرها ، وهى تنتظر كلمة « أحبك » من بين شفتيه . . وعندما قالها لها كان يقولها ليصل إلى القصر . .

قالت انيسه .

ـ سأذهب لأخبر المعلم . . سيفرح عندما يعرف أنك ستتزوجين جابر . . سأعرض عليه اقامة الفرح فى القصر . . المعلم يحب جابر . . وأنا أحبك . . وأريد أن تكونى بجوارى . . أنت تعرفين ما أعانى من الوحدة . . أنا فى حاجة اليك . . لا تتركينى يا فلة . . لا أدرى ماذا أصاب المعلم ؟ . . كنت أظن أن الزار سيشفيه . . ولكن المرض قد زاد عليه . . أصبح يقول أشياء لم أسمعها منه من قبل . . يقول أن جده شيخ التجار . . صاحب المسافرخانة . . وتارة أخرى يقول أنه من نسل النبى . . أخاف عليه يا فلة . .

وابتلعت دموعها عبارة : من الجنون .

ثم قالت :

– يرفض أن أجىء له بطبيب . . ماذا أفعل يا رب ؟

أبصرت الدموع تسيل على وجنتى فلة فقالت :

– تبكين فى لحظة فرحك ؟ !

قالت فلة وهى تقاوم الاجهاش بالبكاء :

– وهل تتركنا الدموع فى لحظة فرحنا ؟ !

●

[١١]

بدا لعلى العطار أن الذى يجرى أمام عينيه كحلم . . أن تخبر فلة الحلوانى بزواجها منه ويوافق الحلوانى على إقامة الفرح فى قصره وينسى كراهيته له . شىء لا يصدقه عقل . وقف يرقب القصر وهو يتزين لفرحه . استغرب أن تفعل فلة كل هذا لمجرد أن قال لها : أحبك وأريد أن أتزوجك .

يعرف أنها عاشقة له . طارت من أمامه عندما طلب منها الزواج ، تريد أن تخبر الدنيا . لم يسمعها تزغرد مثلما سمعها بعد أن تركته ودخلت القصر . وصلت إلى أذنيه أحلى زغرودة سمعها فى حياته . فكر فى أن يغلق دكانه ويدخل القصر . يتحرق شوقا لمعرفة كيف أقنعت الحلوانى بإقامة ليلة فرحه فى قصره ؟ يعرف أنها امرأة قادرة . . تصنع المستقبل إذا أرادت . بدا لنفسه كالمسحور وهو يتحرك فى دكانه . لقد لمح حب الحلوانى لفلة من إغداقه عليها بالمال فى حفل الزار بأكثر مما أغدق على زبيدة التى تحبه وأقامت له الحفل . . ورأى فى الخبر الذى تردد فى الحارة فى الصباح من أن الحلوانى سيهب فلة شيئا من ثروته ما أكد له ما فكر فيه طوال الليل . يلتقط الفرصة ويقول لفلة : أحبك وأريد أن أتزوجك . . ويدخل القصر فى ذراعها وتزفه الحارة . شعر بأن الدنيا لا تتسع له ، سقط جوال الفول . تناثرت حبات الفول حول قدميه . سيرتدى الحلة السوداء التى أعدها لحفل الزواج من موزة . كان ينبغى أن يدعو الأصدقاء ليشهدوا ليلة انتصاره . تحقق حلم عمره . هزم الحلوانى بكلمات قالها لفلة . لم يكن يعرف أن فلة التى كان يضيق بها كثيرا فى الأيام الأخيرة ستكون سر انتصاره . كم هو غبى ؟ !

التفت نحو امرأة ثرثارة دخلت دكانه . . تعودت أن تزوره وتشرب معه القهوة كاد يقول لها : لا وقت عندى اضيعه معك هذا النهار . . ولكنه سمعها تقول له :

ــ فلة ستتزوج جابر الليلة !!

وجد نفسه يضحك . كأنه يسمع نكتة أعجبته . هكذا حارة الحلوانى تختلق الأشياء وتصنع منها نكتا تضحك عليها . أبصر جابر يدخل القصر . نادى عليه . يريد أن يجىء ويسمع ما تردده المرأة ويسخر منه . لم يأت جابر ، وكأنه لم يسمعه ، قالت المرأة :

ــ أضعت القصر ؟ !

أوشك أن يقول لها . . القصر يتزين لى « يا عبيطة » سأتزوج فلة الليلة . . ولكنه صمت . انتابته لحظة زهو . فكر . . كيف يتزوج ــ وهو الذى يفكر فى الزواج من موزة أخت الفيروزى أمير الصاغة ــ من فلة التى تقرأ الفنجان وتنتقل من بيت إلى بيت ؟ !

سمع المرأة تقـــول :

ــ لم تسمع كلامى . .

أراد أن يقول لها : لاتكونى غبية . . كيف تتزوج فلة نوارة الحارة جابر الأهطل ؟ ! . . ولكنه أبصرها تقف وتقول وهى تنصرف :

ــ لا أحب الرجال الأغبياء . .

ضحك من غباء المرأة . تبين أن القصر اوشك أن تكتمل زينته . . وأنه لم يتزين بعد . أبصر فلة تخرج من بوابة القصر . لابد أنها قادمة إليه . أسرع يصنع القهوة . يبثها غرامه وهما يشربان القهوة معا . . لا يكفى

ما قاله لها : أحبك وأريد أن أتزوجك . . لا بد أن يدير رأسها بكلامه الحلو . . فارت القهوة . . لم تأت فلة . . لا بد أن الحارة تلتف حولها . . أخيرا ستتزوج من العطار . . خرج . . لم يجدها . . أسرع يغلق الدكان . . لابد أنها صعدت لأمها . يذهب إليها . . لابد أن يتفق معها على المهر وبقية الأشياء الضرورية لعقد القرآن .

تذكر أنها قالت له ذات مرة : مهرى حبك لى . . شعر بشىء من التعب . ينبغى أن ينال قسطا من الراحة . وجد نفسه يصعد إلى شقته . لا بد أن فلة ستجىء إليه وتحدثه عما فعلت ، سيقبلها . يريد أن يكافئها لأنها أقنعت الحلوانى بأن يقيم الفرح فى القصر . سيحدثه بود عندما يلقاه . كان كريما معه . غاب فى حمامه الدافىء . وصله صوت جوقة الموسيقى . ينبغى أن يتطيب بأطيب الطيب . . الليلة يدخل القصر . تنبه إلى أن الوقت قد جرى . . ولكنه عريس الليلة وكل شىء ينبغى أن ينتظره . ارتدى ملابسه على مهل . قبل أن يكمل ارتداء ملابسه لذ له أن يفتح النافذة ويطل . يريد أن يرى الحارة تنتظره . فوجىء بفلة ترتدى فستان عرسها ، وكأن جابر يقف بجوارها . لم يصدق نظرته . حقق . تبين أنه فى حاجة إلى نظارته ليرى جيدا . دخل . بحث عن نظارته فلم يجدها . أكمل ارتداء ملابسه . العروسة تنتظره . لا يمكن أن تتزوج فلة أحدا بعد أن قال لها العطار : أحبك وأريد أن أتزوجك . حلم عمرها قد تحقق . لابد أن بصره قد خدعه . بصره دائما يخدعه . أكمل ارتداء ملابسه . رنت الزغاريد فى رأسه . نزل على السلالم يسبقه عطره . فوجىء بالحارة خالية . لقد دخلوا القصر . انتشى بصوت الدفوف الذى يملأ القصر . أراد أن يدخل القصر . . ولكنه وجد نفسه يقف على بوابته . . كأنه ينتظر أحدا يسبقه ليعلن قدوم العريس . . توقع ظهور أدهم . . لم يظهر أدهم . . سأل أحد الأجراء الذى تصادف وجوده عن أدهم . . قال له الأجير :

ـ أدخل يا أفندم . . الليلة فرح جابر على فلة ؟

وكأن القصر قد تساقط فوق رأسه مرة واحدة . . وشىء فى رأسه ة تبعثر . يختنق ، يريد نسمة هواء . فك رباط عنقه . . وجد نفسه يذهـ ويجىء أمـام بوابـة القصر ، كأنـه يبحث عن نسـمـة الهواء . وجد نفـ يصرخ : فلة تنتحـر . ارتفـع صوت الدفوف ، كأنه صوت جنازة فلة تملكته رغبة فى أن يراها فى هذه اللحظة . ترفضه بعد أن قال لها : أحبـ وأريد أن أتزوجك . لا بد أنها قد جنت . تنتقم منه لأنه طلب من زبيـ أن تخطب موزة له . يعرف أنها لا تغفر له هذا . قرر أن يحمل المزيد من الهدايا إلى زبيدة ، ويطلب منها أن تذهب إلى موزة ، لن ترفض طلبه هذه المرة.لقد ابتسمت له وهى تخرج من السرادق . هاجمه البرد رغم أن الجو كان صيفا ، عطس،أبصر بعض الأجراء،إنهم يضحكون لابد أنهم يضحكون عليه . يفتح دكانه . نسى مفتاحه،يعود إلى البيت ، يحضر المفتاح ، صعد إلى شقته . دخل حجرته . نظر إلى نفسه فى المرآة وهو يرتدى الحلة السوداء. بدا لنفسـه كأنـه أمـير . قال بصوت عال : فلة الخاسرة ، وصله صوت الـدفـوف . لا يريد أن يسمـع شيئا . أغلق النافذة . لا يكفى . أغلق البـاب ، ألقى بنفسـه على فراشه . ما زال صوت الدفوف يصله . شعر برأسـة بكـاد ينفجـر . لا تستحق فلة أن تتزوجه . لا يمكن أن يمنحها الحلوانى شيئـا من ثروته . مجرد أكاذيب ترددها الحارة كعادتها فى ترويج الأكـاذيب . ينبغى أن ينام سعيدا لأن شيئا ثقيلا قد انزاح عن صدره . لا بد أن موزة ستعرف بأنه جعل فلة نوارة الحارة تنتحر بالزواج من هذا القرد الـذى اسمـه جابـر لرفضه الزواج منها . لن ترفض موزه مقابلته وينتهز الفرصة ويدير رأسها بكل خبرته فى التعامل مع النساء .

لقد تعمد ألا يحدثها وهى جالسة بجواره فى السرادق ليؤكد لها أنه ليس من صنف الرجال الذى ينتهز الفرصة ويتهافت عليها رغم أنه حرص على أن يستقبلها ويجلسها بجواره فى صدر السرادق .

أحس منذ النظرة الأولى أنها ثمرة ناضجة تنتظر لمسة لتسقط بين يديه . ستقـع فى حبـه بمجـرد أن يحدثهـا . . ويتـزوجهـا ويشـترى بهـا قصر الحلوانى . ينبغى أن ينام . . تبين بعد قليل أن الصباح قد طلع . . ارتدى ملابسه مسرعا . . ينبغى أن يعرف حكاية زواج فلة من جابر قبل أن يذهب الى زبيدة بالهـدايا . . يعـرفها من أدهم . . فتح دكانه . صنع القهوة . تنظر أدهم ليشرب القهوة . رشف رشفة . القهوة مرة فى فمه . يكره القهوة البـاردة . الحـارة صامتة . ماذا جرى ؟ الأجراء لا يخرجون كعادتهم . جاء المغنى العجوز . وغنى مواويله . توقع أن تظهر كروانة . تبحث عنه لتعرف منه حكايتها . . لم تظهر كروانة . نسى أن أدهم قد قال له أن اسمها أصبح فرط الرمان . لابد أن شيئا غير عادى قد حدث . تذكر الفخرانى .

منذ قتل عشرى والفخرانى يدير الوكالة . يعطيه بعض المال ويحكى له . وجد نفسه يتجه إلى باب الوكالة ، لا يذكر أنه دخلها . هاجمته الرائحة الكريهة . . سد أنفه . أراد أن يعود ولكنه سمع صوت الفخرانى . مشى فى الظلام . أبصر الفخرانى على ضوء شاحب وهو يقول :

ـ لا تخافوا . .

تبين أنه يحدث الأجراء ، بدوا له كالأشباح . قال الفخرانى :

ـ سيستمـر العمـل فى الـوكـالـة كما كان . . ستسافرون إلى بلاد البترول . . أنا المعلم أقول لكم . .

ضحك أحد الأجراء يسخر من عبارة « أنا المعلم » . شعر الفخرانى

بشيء من الخوف . يخشى هذا الفلاح المندفع ، فقال محاولا استمالته :

ــ صدقنى ياعويس . .

وابتلع عبارة . . وانت ول المسافرين . . عندما أبصر العطار يقترب منه . تبين العطار أنه الفلاح الذى جاء من قرية أدهم ووقف فى الحارة يصرخ يريد أن يشكو ظلمه للحلوانى . احتواه بنظرة إعجاب وهو يقول بنبرة حادة :

ــ لم تعد لنا إقامة فى هذه الوكالة . .

هز العطار رأسه مشجعا وعويس يلتفت نحو الأجراء الذين يبدون أنهم يحتمون به :

ــ ماذا تنتظرون ؟ تنتظرون حتى تقبض عليكم الشرطة كما قبض على الذين اتهموا ظلما بقتل عشرى ؟ !

فكر الفخرانى فى أن يتجاهل ما قاله عويس . . ولكنه خاف أن يذهب أحد ويخبر المعلم بأنه قد وقف صامتا عندما حرض عويس الأجراء على التمرد . فابتعد عنه واقترب من الباب . . حتى يجرى إذا حاولوا أن يهجموا عليه . يخشى أن يتكاثروا عليه ويقتلوه كما قتلوا عشرى فقال :

ــ لا تهيج الأجراء يا عويس !!

تحرك حقد العطار على الحلوانى . يود لو تتساقط الوكالة على رأسه . . فقال :

ــ عويس له حق . .

وكأن العطار قال عكس هذه العبارة فقال الفخرانى :

ــ أسمعتم ما يقوله العطار ؟ لن يقبض على أحد منكم . . ستجدون طعاما وعملا . .

اندهش العطار من قدرة الفخرانى على الكذب وقبل أن يكذبه سمع أحد الأجراء يقول :

ــ لا نعمل منذ أيام ولا نكاد نجد لقمة خبز . .

كأن الفخرانى انتهز الفرصة . ينهر هذا الأجير الضعيف حتى يرتدع باقى الأجراء قال :

ــ اسكت يا كلب !

قال عويس غاضبا :

ــ ليس من حقك أن تهين أحدا . . كلنا أولاد آدم .

انكمش الفخرانى فى وقفته . قال العطار وقد تمنى أن يشتعل الموقف ويقود عويس الأجراء ويهجمون على الحلوانى فى قصره ويهدمونه فوق رأسه انتقاما من زواج فلة من جابر :

ــ لا داعى للثورة يا عويس !

ــ وهل ننتظر حتى يقتلونا كما قتلوا خميس ؟ !

قال العطـــار :

ــ لا تذكرنى بخميس . . الله يرحمه . . كان إنسانا طيبا . .

قال عويس :

ــ لن يذهب دمه هباء . .

أوشك العطار أن يقول : دمه فى رقبتنا حتى ننتقم من القاتل . . ولكن الفخرانى أسرع يقول وقد شعر بالخطر يحدق به :

ــ سأخبر المعلم . .

واندفع يخرج . . أمسكه العطار من ذراعه، خاف أن يذهب إلى الحلوانى ويخبره بأن العطار فى الوكالة يحرض الأجراء على التمرد . . ولكن الفخرانى أفلت من يده . . خرج العطار فى إثره . . وجد نفسه فى حديقة القصر . لم يصدق عينيه . يملك الحلوانى مثل هذه الحديقة . ويتمتع بكل هذا الجمال وهو يمضى طوال النهار واقفا فى دكانه يبيع العطارة للنسوة . . وفى الليل يسقط على فراشه من التعب ليستيقظ فى الصباح الباكر ليواصل العمل بلا توقف ليجمع هذه الثروة التى يكدسها فى خزانته الحديدية . شعر بالضيق بحياته ، لا يريد أن يترك الحديقة . . يتنفس . . ولكن وجد خطواته تجذبه نحو القصر . . شدته روعة الجدران . . فوجىء بصوت الحلوانى يقول :

ـ الذى يذهب . . يذهب !!

توقف ، يعود من الحديقة ويخرج من الوكالة إلى دكانه ولكنه وجد نفسه محاصرا بصوت الحلوانى ، قفزت فى داخله رغبة فى أن يرى الحلوانى . لم يره منذ حفل الزار . يقولون أنه هزل فى الأيام الأخيرة . أبصر نفسه فى حجرة الحلوانى وهو يقول :

ـ لا أريد أن أسمع شيئا عن هذه الوكالة . .

وكأن ظهور العطار شجع الفخرانى على أن يقول :

ـ لقد رآنى العطار وأنا أمنعهم من ترك الوكالة . .

قال الحلوانى :

ـ فليذهبوا إلى جهنم . .

أراد الفخرانى أن يقول له : عويس الفلاح الذى جاء من قرية خميس هو سبب هذا التمرد . . ولكن العطار قال :

ـ دع المعلم الآن يا فخرانى !

وكأن الفخرانى قد سمع أمرا بالخروج فخرج . . وجد العطار نفسه أمام الحلوانى . رمقه بنظراته ، كأنه ليس الحلوانى الذى يعرفه وحقد عليه منذ اشترى الدار المهجورة وحولها إلى قصر . . أكله الحزن على حبيبة . سمعه يقول :

ـ اجلس . .

لم يجلس على العطار . تصلب فى وقفته .

فقال له بود :

ـ اجلس يا على . .

وكأنه اكتشف اللحظة أنه جاء على غير موعد واقتحم عليه وحدته فقال يبرر مجيئه :

ـ جئت أسأل عن الصحة . .

قال الحلوانى ساخرا :

ـ الصحـة . .

ثم صمت . شعر العطار بشىء من العجز فلاذ بصمته هو الآخر .

قال الحلوانى بعد وقت قصير :

ـ يجىء وقت فى هذه الحياة . . تود لو ذهبت الصحة حتى نجد سببا ليذهب الواحد منا هو الآخر . . الحياة أكذوبة يا عطار .

كأن العطار قد شعر بشىء من الحرج ، ويريد أن يتخلص منه ، أخرج علبة سجائره ، أشعل سيجارة وناولها له . تناولها منه . ووضعها

أمامه ، تبين أن هناك سجائر كثيرة فى مطفأة السجائر . . فقال العطار لمجرد الحديث :

ـ السجائر أصبحت بلا طعم . .

ضحك الحلوانى وهو يقول :

ـ كالدنيـــا . .

هز العطار رأسه وهو يسمعه يقول :

ـ تزوجت فلة جابر . .

وجد نفسه يقول فى حدة :

ـ لا يهمنى . .

قال الحلوانى وكأنه لم يسمع عبارته :

ـ جابر ولد طيب . ربيته منذ الصغر . .

ثم أخرج من محفظته خطابا باليا وقال :

ـ الرسالة الوحيدة التى أرسلتها حبيبة لى . لم ترسل لى شيئا بعدها ، أعرف أن حبيبة تحبنى . . سترسل لى عنوانها . . إننى أنتظر . .

بدا للعطار أن الحلوانى يبكى وهو يقول عبارته الأخيرة . . احتواه بنظرة استغراب . وجده يضحك . شعر بالخجل من نفسه لحدته عندما قال له عبارة « لا يهمنى » وكأنه يعتذر له وهو يقول :

ـ ربنا يطمئنك عليها . .

قال الحلوانى :

ـ كانت تقول لى : حلوانى . . حبيبة الوحيدة فى دنيايا التى كانت لها حرية أن تنطق اسمى كما تريد . . أنيسة زوجتى لا تجرؤ وتخاطبنى بغير كلمة المعلم . .

شعر العطار برغبة فى أن يقول شيئا يبدى تقديره لحبيبة فقد كانت قريبة إلى نفسه فقال :

ـ بنت أصيلة . !

وتوقفت كلمة « كأبيها » بين شفتيه . .

وكأن الدموع قدطافت فى عينى الحلوانى وهو يقول :

ـ كانت تقول لى . . العصفورة تحبك يا حلوانى . . وتريد أن تحبك الدنيا . . ليس عندى غير حلوانى واحد . . طعمه سكر . .

واختنق صوته بالتأثر وهو يقول :

ـ سكر جواد حبيبة مات يا عطار . . لم يتحمل فراقها . . كانت تحبه وتدلله وتطعمه بيدها . . كان يعرف يدها . . عندما سافرت رفض أن يأكل من يدى . . قلت له : لن تتأخر . . كان يعرف أننى أكذب . . أصبره حتى يأكل ويعيش . . لم يحتمل أن يعيش أكثر من ذلك . . دخلت عليه فى الصباح . . وجدته قد فارق الحياة . .

قال العطار :

ـ الحيوان يتأثر . .

قال الحلوانى :

ـ كانت تقول لى حبيبة . . تريد أن تذوق الحارة طيبتك .

فأقول لها : لو وزعت طيبتى على الناس ما اشتريت هذا القصر .

فتقول لا أريد هذا القصر . .

ثم ضرب جدار الحجرة بقبضة يده وقال :

ــ لا أريد هذا القصر . . وأريد أن تعود حبيبة وأسمع اسمى من بين شفتيها . .

وجد العطار نفسه يقول :

ــ حبيبة بنت أصيلة كأبيها . . لابد أن . .

قاطعه الحلوانى :

ــ لست أصيلا . . لم أعطك حق الجار . . وأنت تجىء تزورنى الآن تسأل عن صحتى . . أنت أفضل منى . .

ــ أستغفر الله .

ــ تظننى مريضا . . أنا لست مريضا . . صحتى جيدة . . ولكن تبينت أخيرا أن الدنيا لا تستحق أن تشعل لها سيجارة . .

وأطفأ السيجارة التى أعطاها له . شعر العطار بالحزن ، قال الحلوانى :

ــ أنت تحسدنى لأنى أملك هذا القصر . .

استغرب العطار نفسه بعد أن قال كلمة « أنا » . قهقه الحلوانى وهو يقول :

ــ أنا الذى كنت أحسدك لأنك حر . . ولست سجينا لهذا القصر كنت أرقبك من وراء المشربية . . وأنت تتحرك فى دكانك بخفة . . تحدث النساء وتضحك . . شهيتك مفتوحة للحياة يا عطار . .

أراد العطار أن يقول شيئا ولكن الحلوانى بدا له أنه لا يريد أن يسمع

شيئا فصمت وأشعل سيجارة .

قال الحلوانى :

ــ ليتنى كنت قد أصغيت لحبيبة . . وفتحت قلبى للحارة . . وما كنت قد حملت لى . .

وجد العطار نفسه يقول بسرعة :

ــ أنا لم أحل . .

قاطعه الحلوانى :

ــ لا تنكر شيئا لو كان الحب فى قلبك لأعطيته لفلة وتزوجتك . .

وضحك وهويقول :

ــ ونلت القصر . .

فتح العطار عينيه بذهوله والحلوانى يقول :

ــ سأهب قصرى إلى فلة . .

وكان الحلوانى قد سمع العطار يغمغم بكلمة فلة فقال :

ــ أحبتك . . ولكنك لم تحبها فاختارت جابر الذى أحبها . .

أراد أن يقول : الزواج قسمة ونصيب ، ولكن كأن شيئا قد أمسك بلسانه . تصبب العرق من جبينه . .

قال الحلوانى وقد شعر بالإشفاق عليه :

ــ لا تحزن فأنا مثلك لم أعرف الحب . . لا أذكر أننى أحببت . . وعندما اخترت أنيسة ، كان زواجى منها شيئا من الفروسية ، وعندما جاءنى حب زبيدة . . كان قلبى قد مات . .

وصلهما صوت بعض الأجراء يتحدثون بشيء من التجاسر مع أنيسة . . دخلت زوجة المعلم وأغلقت الباب خلفها وهى تقول بصوت مضطرب :

ــ لا أعرف ماذا أصاب الأجراء ؟ . . تجاسروا وجاءوا إلى هنا يريدون أن يدخلوا . .

قال الحلوانى :

ــ دعيهم يدخلون . .

اندفع الأجراء يدخلون . . قال الحلوانى بود :

ــ تسألون عن العمل ؟ .

قال أحدهم بشيء من التهيب أصابه فى حضور المعلم :

ــ أمضينا يا معلم أياما بلا عمل . .

قال الحلوانى :

ــ الوكالة انتهت . .

انفعل عويس وقال :

ــ أرأيتم ؟ لم يعد فى قدرة المعلم أن يستمر فى توفير العمل . . لقد أصبح عجوزا . .

وجد العطار نفسه يقول :

ــ تأدب يا عويس . .

قال الحلوانى :

ــ دعه يا عطار . .

ثم قال للأجير :

ــ أنت الفلاح القادم من قرية خميس ؟ . .

تجاهل عويس سؤال المعلم وقال للأجراء وهو يشير للحجرة الوثيرة :

ــ هذا العز الذى يعيش فيه من عرقنا .

فار الدم فى عروق العطار . . قام من مقعده وعويس يقول :

ــ قتل خميس . . ومن يدرى سيقتل من فى المستقبل ؟ !

ووجد العطار يقترب منه كأنه سيضربه . .

قال الحلوانى :

ــ أتركه يا عطار لى . .

ثم قال لعويس :

ــ أنت غاضب من أجل مقتل خميس ؟ !

ــ وجئت لأقابلك ومنعونى من دخول القصر وحبسونى ولولا أدهم لكنت قد ظللت محبوسا حتى الآن . .

ــ لك حق فى أن تغضب . . لقد أخطأت فى حق خميس . . تصورت فى لحظة أنه ليس من حق خميس أن يحب ابنتى . . فصمت عندما قال لى عشرى نتخلص منه فى مشاجرة . .

قال عويس :

ــ أنت قاتله . .

قال الحلوانى :

ـ لم أقتله . . كل ما فعلته هو أننى قد سكت . . لا يمكننى أن أتصـور أن حبيبة التى شقيت العمر كله من أجل أن أجمع لها هذه الثروة تحب أجيرا . . والذى دبر قتله هو عشرى . . وعشرى قتل مثلما قتل خميس . . نال الجزاء .

قال أحد الأجـراء :

ـ الدور عليك يا ظالم . .

انفعل العطار وقد بدا له أن الأجراء سيهجمون على الحلوانى . . فقال الحلوانى :

ـ لا تخف يا على . . هؤلاء طيبون . . أعرفهم . . لا يعتدون على معلمهم .

دخلت زبيدة وعويس يقول :

ـ نبلغ الشرطة . .

استوعبت الموقف بسرعة . . وقالت وقد فار الدم فى رأسها :

ـ تتجاسرون على معلمكم . . وتبلغون الشرطة . . أجننتم ؟!

قال عويس وهو يشير للأجراء الغاضبين :

ـ لقد كانوا فى الماضى مجانين . .

ثم أسرع يخرج ومن خلفه الأجراء . . أبصرت العطار أمامها فقالت بدهشتها :

ـ أنت هنا ؟ !

قال الحلوانى :

ـ اكتشف بعد فوات الأوان أن الحب هو الأبقى . .

قال العطار وشىء من التعاطف مع الحلوانى يتحرك فى داخله :

ـ لم يفت الأوان . .

ـ ليت الأيام تحقق ما يريده الإنسان . .

سالت الدموع على وجنتى زبيدة فقال العطار :

ـ يبدو أن وجودى الآن أصبح . .

وابتلع عبارة « غير مرغوب فيه » .

وخرج . قالت زبيدة :

ـ حلوانى ..

ـ ماذا تريدين يا زبيدة ؟ !

ـ أحبك . .

هز الحلوانى رأسه . .

قالت زبيدة :

ـ ولا أريد سوى أن تعود كما كنت فى الأيام الماضية ترتدى الكشمير وتمشى فى الحارة تهزها بخطواتك وتقيم الحفلات وتصادق الفيروزى وتملأ رهبتك الوكالة . . لا أريد أكثر من ذلك يا حلوانى . .

ـ ليت الحب فى قدرته إحياء الموتى يا زبيدة ! . .

دخلت انيسة قالت للحلوانى :

ـ أدهم يستأذنك للسفر . . وفرط الرمان تريد أن تودعك .

ـ لا أريد أن أرى أحدا . . لم يبق لى شىء للوداع . .

سحت عينا زبيدة بالدموع .

قال الحلوانى بضحكة كالبكاء :

ـ وفرى يا زبيدة دموعك لوقت اخر .

●

الجـزء الرابع

[١]

كان شيئـا أشبـه بالجنـون . أخـذ أدهم فرط الـرمـان وجاء بها إلى الصحراء . غاصت قدماه فى الرمال وقال لها :

ـ لا نملك غير الحب . .

وارتوت رمال الصحراء بالحب ، وعندما تشرب رمال الصحراء قطرات الحب ، تتحول إلى زهرة تتفتح وضحكة خضراء . سمع أدهم ضحكة فرط الرمان وهى تروى الصحراء . بدت له كأغنية ، يرددها حاد ليشق جمل الصحـراء المجهول . ما تعلمه فى أمستردام تفجر فى الصحراء . . تحول إلى زهور تسابق الليل والنهار . كان يرى الانبهار فى عينى فرط الرمان وهو يحول المستحيل إلى ياسمين بلدى . . وفى المساء يجلسان يرقبان زهرة الصبار وهى تتفتح فى الليل . . وعندما تجىء الشمس فى الصباح تذبل . . ولكن فرط الـرمـان كانت تتوهج تحت أشعة الشمس تتسلق الجدار لتكمل شيئا فى الكوخ الصغير الذى لم يكتمل . .

يضحك أدهم . تتمنى فرط الرمان الا يتوقف أدهم عن الضحك ، عندما يضحك أدهم يتحول إلى طفل . . يقول لها :

ـ سنخـرج من هنـا عنـدما نتزود بما يكفينا لنجعل حارة الحلوانى تتبعنا . . سأجعل حارة الحلوانى تتحول إلى قبيلة فى الصحراء . .

تضحك فرط الرمان وهى تقول :

ــ ونسميها قبيلة أدهم . .

ويتعانقان بضحكهما . تشعر فرط الرمان بأنها لم تكن فى لحظة من اللحظات حرة مثلما هى حرة الآن وهى تحتضن الطبيعة بذراعيها . كانت خائفة عندما جاءت ، كأنها طفلة تركت ذراعى أمها . . تبكى أحيانا فى الليل ، عندما تسمع صوت الصحراء وتبتلع فى النهار دموعها حتى لا تعكر مزاج أدهم ، وهو يناضل الرمال . . ولكنها الآن وهى تستحم بالطبيعة تشعر بأنها قد خلقت لترتوى بهذا الحب الوحشى الذى يحتويها . قالت وهى تلتصق بجدار كوخها الصغير :

ــ لا أريد أن أترك هذا الكوخ لحظة !

ضحك أدهم ، تذكر خوفها الذى كان يراه فى عينيها ولا تفصح عنه . ألقت بنفسها على صدره وهى تقول :

ــ لن تتركنى . .

ــ لآخر نسمة فى عمرى . .

أبصرت زهرة تتفتح . تعرف لغة الزهور قالت :

ــ أنظر إنها تتفتح . .

ويذوبان فى لحظة ترتوى بانفاس زهرة تتفتح . تذكر أدهم أباه فى المساء . . قال :

ــ سأذهب لأحضر والدى . . آن الوقت لأن يعيش معنا . . اشتقت لرؤية حارة الحلوانى . .

تحرك خوفها . كادت أن تقول له : لن تذهب . . ولكنها صمتت .

قال أدهم :

ــ سأذهب فى الصباح الباكر . .

ارتعش قلبها بالخوف . قال بسرعة ليبدد خوفها :

ــ سأعود قبل أن تهبط الشمس . . لن أتركك تنامين وحدك . .

●

[٢]

امضت فرط الرمان النهار فى إعداد مائدة شهية . . أندهشت من نفسها وهى تجلس أمام باب الكوخ تنتظر عودة أدهم . لم تشعر بالخوف لحظة واحدة . شعرت بالطمأنينة بين الزهور . طغت موسيقى الصحراء على الموسيقى التى كانت تنبعث من الجهاز الصغير . الدنيا من حولها لها مذاق خاص لم تعرفه من قبل . اندهشت . . كيف أمضت حياتها سجينة بين جدران رغبة الحلوانى ؟ جارية . . ترقص له وتغنى . . لم تكن تعرف أن الحياة جميلة مثلما تراها الآن . . فتحت صدرها لنسمة هواء العصرية . . أبصرت أدهم وأبـاه يدخلان عليها . . امتلأت بفرحة غامرة . . احتضنت اللحظة بكل حبها للأمان الذى تشعر به الآن . .

قال أدهم وهم يجلسون إلى المائدة يتعشون :

ــ قبض على الحلوانى بتهمة قتل خميس . .

شعرت بالفزع .

قال لها السقاء :

ــ لا تخافى . أفرج عنه . لم يثبت عليه شىء . مات عشرى وطوى معه سر قتل خميس . .

قالت بلهفتها :

ــ كيف حاله ؟!

قال السقاء :

ــ تتدهور حاله من لحظة لأخرى . .

امتلأت عين فرط الرمان بدمعة .

قال أدهم :

ــ كأنه يمضى فترة العقوبة فى سجن نفسه .

قال السقاء :

ــ الدنيا تعاقب أحيانا دون حاجة إلى شرطة وقضاء . .

قالت فرط الرمان بحزنها على المعلم :

ــ الحلوانى لا يستحق . .

قال السقاء :

ــ الله الأعلم يا ابنتى . .

قال أدهم :

ــ تصورى . . لقد نحل عود زبيدة . .

ضحك السقاء وهو يقول :

ــ الحب فى آخر العمر يجعل الشحم يذوب . .

أوشكت فرط الرمان أن تقول : مازالت تحب الحلوانى ؟ !

ولكن أدهم قال :

ــ عندما التقيت بالحلوانى بدا لى كالذاهل لا يكاد يعرفنى . .

قال السقاء وهو يأكل فطيرة ألحت فرط الرمان عليه أن يذوقها :

ــ كان الله فى عونه . .

تذكر أدهم عبد العال عندما قتل ابنه خميس فقال بشىء من الغضب :

ـ عم عبد العال الذى يستحق العون . .

شعر السقاء برغبة فى النوم . فى الصباح الباكر أيقظته فرط الرمان وهى تحمل له حليب عنزة . امتلأ بالسعادة وهو يروى مع ابنه الحديقة ، قال وهو يروى الشجر :

ـ الناس كالشجر . . ينبغى أن نرويهم بالماء لكى يثمروا . . ومن أجل هذا حملت القربة على ظهرى لأسقى الناس . .

قال أدهم لفرط الرمان :

ـ تصورى كان يريد أن يعود إلى حمل القربة على ظهره فى هذا العمر !

أمسك الأب يد ابنه وهزها بعنف وهو يقول :

ـ أبوك مازال قويا يستطيع أن يحمل القربة على ظهره ويصعد إلى البيوت !

قالت فرط الرمان :

ـ ستبقى معنا . .

ـ بشرط أن تلدى بنتا

قال أدهم ضاحكا :

ـ كنت أريد ولدا . . ولكن مادامت هذه رغبتك فأنا متنازل . .

وضحكت فرط الرمان . .

●

[٣]

بدت الصغيرة سوسن وهى تلعب مع جدها السقاء كزهرة تجرى بين الزهور وهو يرويها بحبه . أحتضنت فرط الرمان بنظرتها الحديقة التى نمت فى الصحراء . قطفت برتقالة . أحست كما لو أنها تمسك الدنيا بين أصابعها . عاد أدهم من حارة الحلوانى .

الحمام يرقص حوله ، كأنه يرقص للحياة التى تتفتح حوله . حملت له اللبن الحليب . التقت نظراتهما ، وكأنها نظرات عشاق . شرب الحليب بعشقها . قال أدهم لأبيه :

ـ الحلوانى ترك القصر . . وسكن حجرته القديمة . .

أنزل الجد الصغيرة من على ظهره وهو يقول :

ـ يريد أن يعيد الماضى . . لتعود ابنته حبيبة . .

وتنهد وهو يقول :

ـ الذى يمضى لا يعود . .

قالت فرط الرمان ودمعتها تلمع فى عينيها :

ـ مسكين . .

احتضن أدهم ابنته سوسن وقال لها :

ـ لن تتركى أباك وتسافرى إلى باريس . .

ضحكت الطفلة ذات الربيع الثالث وجرت . . جرى فى إثرها . .

اقتربت من زهر السوسن الهولندى . طافت فى رأسه مارى الهولندية . .

●

رفع أدهم رأسه . أبصر أجنبية تقف أمامه . . ظنها عاشقة من عشاق الصحراء . نظر اليها ، كأنه يعرف صاحبة هذا الوجه الباسم ، قفز شىء من أعماقه . . قال :

ــ مارى ؟ !

قالت :

ــ أدهم ؟ !

وكأنه يحلم . يجد مارى تقف أمامه فى الصحراء . .

ــ كيف جئت ؟ !

ــ ذهبت الى حارة الحلوانى وعرفت عنوانك . .

وضحكت ، وكأنها تقول بضحكتها : أنا سوسن . سمع دقات قلبه . تمالك نفسه وهو ينظر إلى فرط الرمان التى كانت خلفه قال :

ــ مارى . . التى ساعدتنى فى هولندا .

قالت فرط الرمان :

ــ عرفتها من وصفك لها . .

ثم نظرت إلى مارى وقالت :

ــ حكى لى عنك الكثير . . قال لى أنك تعرفين اللغة العربية . .

ابتسمت مارى . . تطلعت إلى ابنته ، قال أدهم :

ــ سوسن .

شعرت بفرحة غامرة ، كأنه يقول لها : مازلت أحبك . مدت يدها تتحسس شعر الطفلة الطويل . جرت سوسن . بدت كزهرة بربة قالت :

ــ سميتها سوسن باسم الزهرة الهولندية . . مازلت تحبها

ضحك أدهم . سمع صوت حبه الذى هاجمه فى أمستردام ، ونبا بين الزهور فى مدينة الزهور ، وجرى منه ذات خريف عائدا إلى حارة الحلوانى . أراد أن يخفى عينيه عن عينى فرط الرمان . . قال لمارى وهو يشير إلى حديقة الزهور :

ــ الحلم الذى كنت أحلم به فى أمستردام . . تحول إلى حقيقة . . تذكرين عندما كنت أحدثك فى مدينة الزهور . .

مشت مارى بين الزهور . سمعت فرط الرمان وهى تحكى لها حكاية كل زهرة . بدا الحزن على وجه مارى الضاحك . . منذ تركها أدهم فى الصباح الباكر وهى تحاول أن تنساه . . منذ أيام طغى حبه عليها . . لم تستطع أن تقاومه أكثر من ذلك . . طارت اليه . . كانت تنوى الا تتركه . . تتزوجه . . وتعيش معه فى الصحراء . . وتصنع معه عالما من الزهور . . ولكن الزهور قد سبقتها وتفتحت . . وقفت فرط الرمان أمام زهرة السوسن الهولندية وقالت لها :

ــ أدهم يحب هذه الزهرة . . ولذا سمى ابنتنا سوسن .

وضحكت وهى تقول :

ــ لتذكرة بالأيام الحلوة التى أمضاها فى هولندا . .

نظرت مارى إلى أدهم . أبصرته يخفض نظراته . .

●

وفى الليل كانت سوسن الصغيرة تتعلق بصدر مارى ومارى تغنى لها . ذاب خوف الطفلة . وجاءت نسمة منتشية بعطر الزهور . احتضنتها على ضوء القمر . هاجمها العشق فجأة . أرادت أن تهرب منه . . فجرت فى الصحراء . . ووجدت نفسها تنفجر بالبكاء . كأنها تريد أن تشهد رمال الصحراء دموع حلمها الذى انتهى . نظرت إلى القمر الذى كان فوق رأسها ، كأنها تحدثه . . قالت : لا أستطيع أن أهدم عالما من الزهور . .

جاءت فرط الرمان لأدهم وقالت له :

ــ مارى لا تريد أن تنام . تنتظر أول عربة لترحل فى الصباح الباكر . .

تذكر رحيله عن أمستردام فى الصباح الباكر وأوراق الخريف تتساقط من على الشجر . شعر بشىء من الحزن . ذهب إلى فراش ابنته . أحتضنها . تريد أن تسمع منه حكاية فرط الرمان التى حكاها لها فى الليلة الماضية . جلس بجوارها يحكى لها حكاية فرط الرمان . وكأنه يحكى لها حكاية لا صلة له بها . تخلص من وهم أن جدته ستهبط على كتفه حمامة فى لون فرط الرمان . كأن عالم الزهور أغرق بعطره أوهامه القديمة . تفرس وجه طفلته . تذكر زهر السوسن الهولندى فى مدينة الزهور . فتح النافذة . هبت نسمة ، أمتلأ انفه برائحة الأرض . بدت له ابنته زهرة من نوع خاص . . احتضنها . ترقرقت ضحكتها ، كأنه يحتضن الوجود . .

« تمت »

رقم الإيداع ٢٧٨٦ / ٨٦
الترقيم الدولى ٠ ـ ١٣٨ ـ ١٧٢ ـ ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩